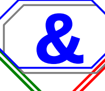
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة منتوري قسنطينة
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
قسم التاريخ.

رقم التسجيل:..................................

الرقم التسلسلي:............................

صنهاجة المغرب الأوسط

من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر

(80 هـ -699 م / 362هـ -973م)

(دراسة إجتماعية)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

تحت إشراف الأستاذة:

- الدكتورة : بوبـــة مـــجاني

من إعداد الطالب:

- رضا بن النية

- أعضاء لجنة المناقشة :

تاريخ المناقشة ....

الإسم واللقب	الرتبــة	الصفة	الجامعـــة الأصلية
إسماعيل سامعــي	أستاذ محاضر	رئيســا	جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة -
بوبـــة مجـــاني	أستاذ التعلم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة منتوري – فسنطينة -
إبراهيم بحـــاز	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة منتوري – قسنطينة-
عـــلاوة عمـــارة	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة -

السنـــة الجامعية : **1426-1427**هـ الموافق لـ: **2005-2006** م

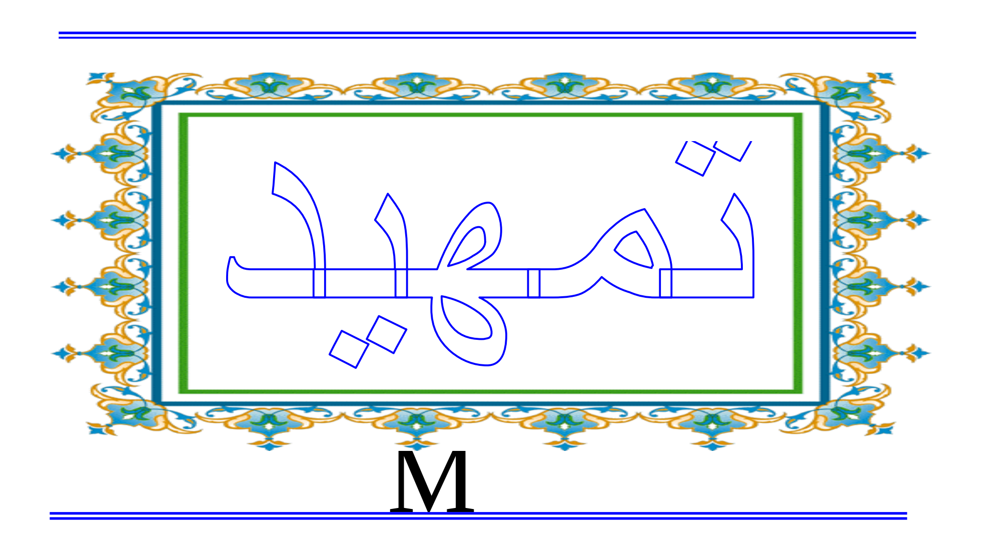
فهرس الموضوعات

المحتوى..الصفحة

الفصل الرابع : المجتمع الصنهاجي

- **الفهـــارس:**

!!!!



لقد كان لانتقال الإنسان المغربي في العصر الحجري الحديث من حياة الصيد والتنقل المستمر إنتجاعا للماء والكلأ، إلى حياة الاستقرار وممارسة الزراعة، أن ظهرت تجمعات بشرية ما فتئت تكبر شيئا فشيئا مشكلة النواة الأولى للمدن والقرى، فأضحى من الضروري تنظيم العلاقات الاجتماعية.

ولئن كان الدارس لتاريخ شمال إفريقيا يلحظ للوهلة الأولى بأن القبيلة شكّلت إحدى الثوابت الأساسية في تاريخ المنطقة، وعنصرا هاما في البنية الإقتصادية والإجتماعية والثقافية،إلا أننا إذا أمعنا النظر في البدايات الأولى للمجتمع المغربي، نجد أنفسنا أمام معلومات شحيحة أو شبه نادرة حول طبيعة النظام الذي كان يسوده(1)،لاسيما مع غياب المصادر المكتوبة واعتماد المغاربة على الرواية الشفوية في تصوير أفكارهم ومظاهر حياتهم اليومية.

---

(1) محمد بن حسن ، المرجع السابق ، ص: 17.

وعلى هذا الأساس فإن الباحث يجد نفسه مضطرا إلى اعتماد الحدس والتخمين بناء على الحقائق والمعطيات المتوفرة،كوسيلة لرفع اللبس ولو بقسط يسير عن الغموض الذي يكتنف المجتمع المغربي منذ العهود المبكرة.

ومن ثمّ فالمجتمع المغربي القديم لاشك بأنه كان يسوده نظام قبلي بدائي،يعتمد على أساليب بسيطة في معيشته وفي ممارسة مختلف أنشطته،فأشكال القبور والحلي والنقوش لا تنم على أن المغاربة الأوائل اعتمدوا على أساليب مدنية وحضارية متميزة،على الأقل في تلك المرحلة.[2]

بيد أنه كلما تقدمنا في المرحلة التاريخية بدأت الرؤية تتضح تدريجيا حول ملامح ومعالم المجتمع القبلي في شمال إفريقيا، ففي القرن الخامس قبل الميلاد أشار المؤرخ الإغريقي "هيرودوتHérodote"[3] أن بلاد ليبيا[4] الممتدة من مصر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا كانت تسكنها أربعة شعوب، منها أمتان أصليتان هما : القبائل الليبية في الشمال كالنازمون والغرامنت والماكاي[1] ،والإثيوبيون في الجنوب،وإلى ذلك ذهب المؤرخ الروماني ساليستوس " SALUSTUS "[2] الذي قسم المجتمع المغربي إلى قسمين :الليبيون في الشمال،والجيتول في الجنوب.

ويتضح من هاتين الروايتين أن المجتمع المغربي كان مجتمعا قبليا على الأقل منذ القرن الخامس قبل الميلاد،وينقسم إلى فرعين: قبائل الشمال التي تميل في معظمها إلى حياة الإستقرار وممارسة الزراعة،أشهرها قبيلة " **التحنو**" الضاربة غرب مصر،وقبائل الجنوب الضاربة في أعماق الصحراء التي اتخذت من هذا المجال منتجعا لها ،وهي إلى حياة البدو والترحال أميل.

ويبدو أن الطابع القبلي الذي ساد بلاد المغرب القديم فرضته جملة من العوامل الجغرافية والجيولوجية،وبلورته التغيرات السياسية والإقتصادية التي شهدتها المنطقة على مرّ العصور،ويمكن حصر ذلك في محطتين أساسيتين:

---

(2) ابن منصور ، المرجع السابق، ج1،ص:251

(3) Textes relatifs à L'histoire de l'Afrique du Nord, traduit par :S.Gselle, typographie,Adolphe Jourdon,Alger,1915,p :70.

(4)ظل مصطلح (ليبيا ،الليبيون) يستخدم في المصادر الإغريقية واللاتينية حتى أواخر الألف الأولى قبل الميلاد،فقد تحدث فرجيلوس عن مدن ودببة ليبيا ،كما استعمل بلين الكبير هذا المصطلح في إشارة منه إلى سكان شمال إفريقيا ،كما عثر عليه في النقوش البونيقية والبونيقية الجديدة تحت رمز (LBT-LBY) في مكثر ومعبد الحفرة،وعثر على المصطلح نفسه في التوراة والنقوش الهيروغليفية أنظر:محمد الهادي حارش،التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، المؤسسة الجزائرية للطباعةوالنشر،الجزائر،1995،ص:21-23.

(1) Hérodote , Op-cit, IV,p:11

(2) Guerre de Jugurtha,traduit par:F.Richard ,édition Garier Flanarions, Paris,1966,p:19.

1ـــ التغيرات الجيولوجية التي تعرض لها سطح الكرة الأرضية أواخر العصر القديم ،وخلاله اتخذت بلاد المغرب شكلها الحالي، فقد نجم عنها تقلص الجليد وانحساره إلى المناطق القطبية ،ومن آثارها أن صار مناخ المنطقة حارا، صحبه اختفاء الأنهار والبحيرات التي كان يزخر بها الجزء الجنوبي لبلاد المغرب، فتحول إلى صحراء قاحلة،وانتشر أهله أوزاعا في المنطقة.

فاستقرت فرقة منهم حول الأراضي الخصبة على السواحل وضفاف الأنهار والواحات ،ومارسوا الزراعة وامتهنوا بعض الحرف[3]، وسرعان ما نشأت تجمعات سكانية ضخمة شكلت فرع الحضر" **أهل المدر**" على رأي ابن خلدون.[4]

وفي الوقت نفسه آثرت الأقلية البقاء في الجزء الجنوبي تصارع الظروف الطبيعية القاسية ،التي فرضت عليهم حياة البدو والترحال ارتيادا لمصادر المياه والمنتجعات الواسعة ،وهم أهل "**الوبر**" كما يسميهم ابن خلدون.[5]

2- صعوبة التضاريس وطبيعة امتداد الجبال التي عزلت أقاليم بلاد المغرب عن بعضها البعض ،مما جعل قادتها عاجزين عن إقامة سلطة سياسية موحدة تنصهر فيها جميع القبائل المغربية ،ويتحول فيها الولاء من القبيلة إلى الوطن،وذلك ما أدركته الأمم التي غزتهم ، فقد حرصت على عدم وحدتهم واتحادهم ،وضربت بعضهم ببعض لأنها رأت في اتحادهم خطرا على مصالحها ،وهي السياسة التي انتهجها الرومان تجاه مملكة نوميديا الموحدة.

ولئن حاول بعض المؤرخين الأوروبيين تبرير واقع التشتت الذي عرفته بلاد المغرب منذ وقت مبكر وصعوبة تحقيق الوحدة بين أقطارها ، بقلة النضج السياسي والحضاري لشعوبها وعدم تمرسهم على أساليب الحياة المدنية الراقية،فإن طرح محمد بن حسن[1] أقرب إلى الواقع،ويعبر عن إدراك واسع للذهنية القبلية للمغاربة،فقد أعزى عجزهم عن تحقيق الوحدة السياسية إلى مدى طموح قبائلهم الذي لم يتعد كسب العيش ومراقبة الطرق التجارية والتخلص من وطأة الضرائب ،ولو أن المغاربة تخلصوا من هذه العقدة فيما بعد بإنشائهم لكيانات سياسية سيطرت على مناطق واسعة من بلاد المغرب ،وسعت لتوحيدها على غرار الدولة الموحدية.

---

(3)إبن منصور، المرجع السابق، ج1،ص:247.

(4)المقدمة ، ص:212

(5)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(1) القبائل والأرياف ،ص : 17-18، شارل أندري جوليان الذي يرجع عجز البربر عن إقامة سلطة موحدة إلى عوامل جغرافية وغياب قادة حقيقيين قادرين على لمّ شمل القبائل المتناحرة تحت راية واحدة.أنظر: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، ص:34 -35.

وبعد استعراضنا لظهور النظام القبلي في بلاد المغرب والظرف التي فرضت على سكانها هذا الأسلوب من الحياة، نحاول في شطر ثان مكمل أن نثير إشكالية غاية في الأهمية ترتبط بالتحولات الإجتماعية العميقة التي شهدتها القبيلة المغربية في ظل الظرفية الجديدة التي طرأت على المنطقة بعد الفتح الإسلامي.

وتماشيا مع موضوع الدراسة فسنأخذ قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط نموذجا لذلك، إلا أن ما يميز بحثنا هذا أنه يتناول حياة قبيلة داخل دولة، ويتوقف عند بداية ظهور ملامح التغير على المجتمع الصنهاجي بشكل جلي وحدوث قفزة نوعية في نمط معيشته من الحياة القبلية إلى طور ممارسة السلطة والدولة.

بداية لابد أن ننبه بأن التغيير ظاهرة عامة شملت كل المجتمعات البسيطة منها والمعقدة ، المنعزلة منها والمنفتحة، بل ومهما بلغت درجة تمسك المجتمع بطريقة حياته فإنه يتعرض للتغيير جيلا بعد جيل، بمعنى أنه لا يوجد مجتمع يظل جامدا أو ساكنا.(2)

وكغيره من المجتمعات القبلية عرف المجتمع المغربي تغيرات جذرية عبر العصور،ولكن بدرجات متفاوتة وفق مايتماشى وأعرافه ويتلائم مع ذهنيته ، ولفظ كل ما هو جديد ومناف لمألوفه، وهو ما يفسر رفضه المستمر للإندماج مع مختلف الوافدين عليه قبل الفتح الإسلامي.(3)

فقد حرص مختلف الطارئين على المنطقة قبل الفتح الإسلامي من فنيقيين ورومان ووندال وبزنطيين على تجنب الاحتكاك مع السكان الأصليين، وعزفوا عن التعامل معهم إلا بالقدر الذي يضمن لهم الأمن الداخلي ،ويؤمن لهم استمرار جباية الضرائب ،ويحفظ سلامة وأمن طرق التموين البري والبحري.(1)

وفي ظل هذا الواقع ظل المجتمع المغربي محافظا على أنساقه الداخلية، رافضا كل ما هو جديد، ومتمسكا في الوقت نفسه بالنماذج الموروثة بالشكل الذي يضمن مصلحة الجماعة،وينظم مختلف أمورها الحياتية من زواج وطلاق وميراث ولباس وطعام، وكل ما هو متعلق بالسلوك العام.(2)

وعلى اعتبار أن المجتمعات لا تسير مهما كانت بسيطة أو معقدة إلا بما يتوافق ونواحي النشاط التي تكون الحياة اليومية للناس التي تتطلب التوجيه، كما لا تستمر الثقافات في سيرها بشكل عشوائي لأن

---

(2) هيركوفيتز ملغيل، عمليات التغيير الثقافي ، ترجمة: مالك الناشف ، المكتبة العصرية ،بيروت، 1967، ص:253.

(3) محمد السويدي،بدو الطوارق بين الثبات والتغيير ــ دراسة سوسيوأنتربولوجية في التغيير الإجتماعي ــ ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1986،ص:31.

(1) موسى لقبال، "البتر والبرانس والمظهر الإجتماعي لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام" ، مجلة الأصالة، ع:24 ،تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر، 1975، ص:59.

(2) بوتشيش ، مباحث في التاريخ الإجتماعي ، ص:240.

الاتجاهات والمعتقدات تتطلب حماية وتعزيزا دائمين[3]، فإن البربر وجدوا في المسلمين خير معين على إحداث ثورة جذرية في ذهنيتهم وعاداهم وتقاليدهم.

وهكذا فقد كان للبربر الإستعداد النفسي الكافي لقبول الدين الجديد وتبني أفكاره والذود عنها، و لم يلق المسلمون نفس الشدة والتصلب التي وجدها غيرهم من الوافدين على المنطقة ولو بصورة نسبية، واستطاعوا أن يندمجوا في المجتمع البربري وينصهروا في قبائله، لاسيما بعد أن أدرك المغاربة كنه الدين الإسلامي والغاية التي جاء من أجلها المسلمون إلى المنطقة.[4]

و لم يكن الفاتحون المسلمون ليتوغلوا في قلب المجتمع المغربي والتغلغل إلى أعماقه لولا فهمهم العميق بكنه الحياة القبلية التي طبعت المنطقة والتي تتشابه إلى حد كبير مع ما هو سائد في شبه الجزيرة العربية، وعدم أنفتهم عن مخالطة السكان والاحتكاك بهم، فحدث نوعا من الإنسجام والإلتحام بين الطرفين عن طريق المصاهرة والخدمة العسكرية والإشتراك في التضحيات والغنائم.[5]

وعلى كل فقد كان للإسلام دور كبير في إعادة غربلة الذهنية البربرية وتنظيم الحياة الإجتماعية للمغاربة ،ومحطة هامة للإنفتاح على العالم الخارجي وتبادل الثقافات مع مختلف الشعوب.

وما كاد يحل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حتى أضحت القبيلة والدعوات الدينية والمذهبية هما الدعمتان اللتان تستند إليهما كل حركة إقليمية أو طموح سياسي،ومنذئذ صار للقبيلة حضورسياسي وإجتماعي قوي ،وأضحت محورا رئيسا يرتكز عليه تاريخ المنطقة.

والساحة السياسية المغربية حافلة بالأمثلة التي تدعم هذا الطرح، فالدولة الرستمية التي قامت بالمغرب الأوسط سنة160هـ/776م استندت إلى قبيلة " **لماية**"[1] التي تبنت الدعوة الخارجية الإباضية بزعامة عبد الرحمن بن رستم الفارسي ،والدولة الفاطمية قامت على كاهل قبيلة " **كتامة**" التي اعتنقت الدعوة الشيعية الإسماعيلية بزعامة أبي عبد الله الداعي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ مطلع العاشر الميلادي.[2]

والملاحظ على هذا التقليد أنه كان يتكئ على واقع إجتماعي هام ،من: قوة العصبية ،وأصالة الموروث،ومتانة علاقات التعاون والتعاضد،وعلى الرغم من أن تلك القبائل التي تبنت الدعوات الدينية قد

(3) محمد عاطف غيث، تطبيقات في علم الإجتماع ، دار الكتب الجامعية ، الإسكندرية ، 1970 ، ص:30.

(4) موسى لقبال ، البتر والبرانس،ص:160.

(5) المرجع نفسه ، ص:160-161.

(1)من أكبر قبائل ضريسة ،من ولد فاتن بن تمصيت ،شغل جمهورها التخوم الجنوبية لإفريقية والمغرب الأوسط بمحاذاة الصحراء ، وإليها لجأ عبد الرحمن بن رستم الخارجي ،وبأرضها اختط مدينة تاهرت ، وباسمها عرفت قرية واقعة بين زواوة وطرابلس. حولها أنظر: ابن خلدون ، العبر، ج6، ص :220-221، ابن منصور ، المرجع السابق ،ج1، ص:309.

(2)ابن خلدون، العبر ،ج6،ص:148.

تحول ولاؤها ـــ بعد ارتقائها إلى مصاف الملك ـــ من القبيلة إلى الدولة والمذهب ،إلا أنها لم تنسلخ تماما عن عاداتها وتقاليدها القبلية وأنساقها الداخلية المتميزة،رغم ركونها إلى حياة الدعة والبذخ ومختلف ألوان الحياة المدنية الراقية، فلما غرقت في نعيمها تسرب الوهن إلى كيانها ،وتفشى الفساد في أجهزتها، وعمت الفوضى مجتمعها،وطغت مصلحة الفرد على المصلحة المشتركة تأتي عصبية أخرى أكثر إنسجاما ،وأشد تلاحما ،مشبعة بالقيم والمبادئ السامية والحياة الخشنة ، متبنية دعوة دينية جديدة وهكذا دواليك.[3]

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما حدث للدولة المرابطية التي قامت على العصبية الصنهاجية،وتبنت الدعوة الدينية التي تزعمها الفقيه عبد الله بن ياسين ، فلما ارتقت إلى مصاف الملك ركنت إلى الراحة والدعة وانغمست في النعيم والترف وتنافس الناس في البناء وتباهوا بلبس الحرير وأكل الطيب واقتناء الحلي من الذهب والفضة ،واستبحر عمرانهم وأوكلوا أمر الدفاع عنهم إلى واليهم والحامية التي تولت حراستهم[4] ، فأصابها الوهن، عندها جاءت الدعوة الموحدية بزعامة المهدي محمد بن تومرت بدعم من قبيلة مصمودة [5] المشبعة بالقيم السامية فحلت محلها.

و لم تخرج صنهاجة المغرب الأوسط ـــ موضوع دراستنا ـــ عن المنحى الذي انتهجته القبائل المغربية في الوصول إلى السلطة ، فقد كانت تمتلك من قوة العصبية وأصالة الموروث ،والقيم والمبادئ السامية ما يؤهلها للارتقاء إلى مرتبة الملك.

وعلى الرغم من أن صنهاجة المغرب الأوسط لم يكن لها دور كبير في قيام الخلافة الفاطمية مقارنة بقبيلة كتامة،إلا أنها سرعان ما خلقت لنفسها مكانة مرموقة داخل هذه الدولة ، بفضل موقعها الإستراتيجي ووزنها الإجتماعي الكبير ،زيادة على ولائها القديم لآل البيت.[1]

إلا أنه لابد من الإشارة إلى أن انتقال صنهاجة إلى طور السلطة والدولة لم يتم بنفس الطريقة الآنفة الذكر ،القائمة على أساس إجتماعي قوامه انغماس الحكام في الشهوات والملذات وركون الرعية إلى الدعة والترف،وإنما كان هبة من الفاطميين بعد انتقالهم إلى مصر نضير التضحيات الجسام التي بذلوها في سبيل نصرة الخلافة وتوطيد أركانها.[2]

---

(3)ابن خلدون ، المقدمة، ص:214.

(4) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها، الجابري ، المرجع السابق، ص:277.

(5)تنحدر من ولد مصمود بن برنس ،وتنحصر مواطنها الأصلية ما بين بلاد الريف والمحيط الأطلسي ،وتضم عدة بطون أشهرها: **برغواطة ، غمارة ، هرغة ، دكالة**،ومن بقاياهم اليوم فرقة تضرب غرب فاس .أنظر : ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص: 204-207 ابن منصور ، المرجع السابق ، ج1، ص:221-222.

(1)ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:152.

(2) النويري ، المصدر السابق، ص:310.

وصفوة القول أن المجتمع المغربي شهد تطورات كبيرة وتغيرات جذرية على مر العصور بدرجات متفاوتة، عرفت أوجها بعد دخول الإسلام إلى المنطقة،الذي هذب ذهنيتها وقوم معتقداتها واحترم عاداتها وتقاليدها وأثرى مورثها، وحولها لأول مرة في تاريخها من موقع دفاعي متأثر إلى موقع هجومي مؤثر.

فبعد أن كانت عرضة لهجمات الغزاة من فينيقيين ورومان ووندال وبيزنطيين ، هاهي تتحول مع مطلع القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي إلى غازية ، فقد أسهمت بقسط كبير في نشر الإسلام **بالأندلس وصقلية وجنوب غاليا**،بالإضافة إلى أجزاء واسعة من السودان الغربي فنقلت كثيرا من عاداتها وتقاليدها إلى أوروبا خاصة في عهدي المرابطين والموحدين،وقدمت إسهامات ضخمة في بناء حضارتها.

!!!

m

ظلت الدراسات المتعلقة بالظاهرة القبلية في بلاد المغرب في أثناء العصر الوسيط قليلة ، لا تتناسب والدور التاريخي والحضاري للقبيلة ،ولم يطرق الدارسون هذه المسألة إلاّ عرضا أو استكمالا لدراسات أخرى ،وبصورة أدق فإننا نفتقر إلى قراءات مستفيضة ذات صبغة شمولية ـــ إلا في القليل النادر ـــ تعنى بالقبيلة كوحدة أساسية للتنظيم الإجتماعي والإقتصادي وحتى الثقافي للمجتمع المغربي الوسيط.

ويصبح الأمر أكثر تعقيدا عندما يتعلق بالجانب الإجتماعي الذي لا يزال يكتنفه الغموض والإبهام، فرغم التحولات الكبيرة والانعطافات الحاسمة التي شهدها المجتمع المغربي في هذه الفترة إلا أنها لم تنل حظها من العناية، وظلت باستمرار الهاجس الكبير الذي يقف أمام كتابة تاريخ شمولي يرتفع عن مستوى التاريخ الحدثي التقريري.[1]

ويتعزز هذا الطرح أكثر عندما نعلم بأن معظم مصنفات العصر الوسيط الإسلامي ارتبطت بالحواضر الكبرى وأهملت الأطراف باستثناء بعض النصوص الخلدونية ، مما يجعل المخرج الوحيد لهذه الإشكالية يكمن في رصد الظواهر الإجتماعية عن طريق ربطها ببنائها السياسي وأنماط الإنتاج السائدة.

ولئن كان المتتبع للمسار التاريخي في المغرب الإسلامي ، يلمح للوهلة الأولى أن تاريخ المنطقة إرتبط بحركية القبيلة[2] ، فإنه ـــ أي تاريخ المنطقة ـــ اتسم بحدة الصراعات القبلية نتيجة التعدد العصبي ،وزاد من وطأتها الإختلاف المذهبي.

ويشكّل الصراع التقليدي المستمر بين البدو والحضر من أجل السيطرة على المنتجعات والطرق التجارية أبرز مظاهر هذا الواقع الذي طبع جل المجتمعات القبلية ، ممثلا في كبرى حلقاته في التناحر المستمر بين قبيلتي زناتة البترية البدوية ،وقبيلة صنهاجة البرنسية الحضرية.

فقد شهد مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بروز قوة جديدة على مسرح الأحداث ،ألا وهي قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط التي استند إليها الفاطميون في دحر خطر زناتة ،خلفا لمكناسة التي لم تستطع أداء هذه المهمة بنجاح أمام التحالف الزناتي ـــ الأموي.

---

(1) إبراهيم القادري بوتشيش ،مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين،ط1،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت،1998،ص:5.

(2) شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية ،تحقيق: محمد مزالي والبشير بن سلامة،الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ج1،ص:34.

وقد أسهم التقارب الفاطمي ــ الصنهاجي في تغيير ملامح الحياة القبلية التي كانت تحياها صنهاجة ــ ولو بصورة نسبية ــ وشهد قفزة نوعية نحو حياة التحضر ، فاستقرت أحوال الناس، وكثرت أموالهم، واستبحر عمرانهم، وبدت مظاهر الرفه على حياتهم.

وبقيام ثورة أبي يزيد صاحب الحمار سطع نجم صنهاجة ،وبرزت كمنقذ للخلافة من هذا الخطر الداهم،وزاد تألقها في المنطقة بانتصاراتها المتكررة على زناتة ،وكادت أن تجتث جذورها نهائيا بالمغرب الأوسط.وبقضائها على ثورة جعفر بن علي بن حمدون الذي شق عصا الطاعة على الفاطميين وتحالف مع زناتة وأمويي الأندلس، خلت إفريقية والمغرب لصنهاجة ،وأضحت أكبر المؤهلين لخلافة الفاطميين على المنطقة بعد رحيلهم إلى مصر.

ومن هذا المنطلق سنحاول تسليط الضوء على نشاط وحركية قبيلة صنهاجة بالمغرب الأوسط، ومدى تأثيرها وتأثرها بالواقع الإجتماعي المغربي ،خلال القرون الأربعة الأولى التي تلت الفتح الإسلامي للمنطقة.

وقد اصطفيت دراسة التاريخ الإجتماعي لقبيلة " **صنهاجة المغرب الأوسط ــ من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر**" لاعتبارات عدة ،أهمها:

ــ أن الدراسات التي اختصت بـــ" قبائل بلاد المغرب " لم تكن القبيلة هي أساس الدراسة ، بل أنها عولجت على أساس أنها سلطة سياسية أو مذهبية.

ــ واخترت موضوع " القبيلة " لأن القبيلة والدعوات السياسية والمذهبية ،هما الدعامتان الرئيستان اللتان صاغتا تاريخ المنطقة منذ الفتح الإسلامي.

ــ وقد آثرت دراسة قبيلة " **صنهاجة المغرب الأوسط**" دون غيرها من القبائل المغربية الأخرى، لدورها الكبير في صنع تاريخ المنطقة الذي استلهمته من موقعها الاستراتيجي ،وثرائها الاقتصادي ووفرتها العددية من جهة، واستكمالا لسلسلة الدراسات التي عنيت بكبريات قبائل " المغرب الأوسط" ،وقد استهلها موسى لقبال بأطروحة دكتوراه حول " **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**"[1] ،وأعقبه الدكتور محمد بن عميرة في دراسة تناولت " **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**"[2]، وعلى الرغم من أن هناك من دلى بدلوه في هذا الميدان أمثال : لوسيان غولفن Laucien Golvin [3] ورشيد بوروبية[4] وإسماعيل العربي[5]، إلا

(1) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1979م.

(2) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984م.

(3) Le Maghreb Central à L'époque des Zirides ,Paris,1957

(4) الدولة الحمادية ــ تاريخها وحضارتها ــ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1977.

(5) دولة بني حماد ــ ملوك القلعة وبجاية ــ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1982.

أن ما يميّز دراستنا هذه أنها تناولت الفترة التي سبقت ارتقاء صنهاجة إلى مصاف الملك ،واختصت بدراسة القبيلة كمؤسسة إجتماعية ذات أبعاد سياسية وإقتصادية وثقافية، واعتنت ببطون صنهاجة المغرب الأوسط وتوزيعها الجغرافي،واقتفاء آثارها إلى يومنا هذا ،كما توغلت في قلب مجتمعها واهتمت بتركيبته وعاداته وتقاليده، وتناولت أثر التطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة على الحياة الصنهاجية ومدى إسهامها في تغيير نمط معيشتها وإثراء ذهنيتها.

ــ كما ارتأيت أن يكون مجال دراستي " **المغرب الأوسط**" كونه المجال الطبيعي والإستراتيجي لتحركات قبيلة صنهاجة الشمال ،زيادة على كونه لم يحظ بعناية كافية لاسيما في الفترة المدروسة ، على عكس " **صنهاجة الجنوب** " التي نالت حظا وافرا من اهتمامات المؤرخين.(1)

وسنحاول من خلال هذا البحث أن نقدم قراءة إجتماعية لمصادر هذه الفترة ، رغم اعترافنا بصعوبة المهمة ــ التي شكلت أبرز **العقبات** التي اعترضت البحث في مختلف أطواره ــ لاعتبارات عدة:

ــ ندرة المادة العلمية المتعلقة بالجانب الإجتماعي في مصادر هذه الفترة وتركيزها على الجانب السياسي والعسكري.

ــ ضياع كثير من المصادر التي أرخت لقبيلة صنهاجة ،والتي أشار بعض الرحالة والمؤرخين إلى أنهم اطلعوا عليها ، الأمر الذي يفوت علينا تقصي الكثير من الحقائق حول هذا القبيل ،وأبرزها " **الديباجة في مفاخر صنهاجة** " لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز المتوفى سنة529هـ/1135م و" **النبذ المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة بإفريقية وبجاية** " الذي ألفه ابن حماد المتوفى سنة628هـ/1231م.

ــ قلة الشواهد الأثرية التي ترتبط بمجال دراستنا لاسيما في الفترة المعنية بالبحث، وعلى الرغم من قيام" **المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية**" بالجزائر العاصمة بحفريات في خرائب " **أشير** " سنة1991م(2)، إلا أن هذه التنقيبات لم تحقق النتائج المرجوة نتيجة توقف عمليات الحفر.

---

(1)كثيرة هي الدراسات التي إعتنت بتاريخ المرابطين وحركيتهم الدؤوبة طوال قرن من الزمن في المغرب والأندلس ،وأهمها:
- Doutte (E), Note sur l'Islam Maghrébin - Les Maraboutes-, Paris,1901.
ــ حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ،ط2، دار الكتاب الحديث ، بيروت،1992، محمد عبد الهادي شعيرة، المرابطون، تاريخهم السياسي، المكتبة الحديثة ،القاهرة،د.ت، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة، 1969م، إبراهيم القادري بوتشيش،المغرب والأندلس في عصر المرابطين ــ المجتمع ، الذهنيات، الأولياء ــ ،ط1،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،1993،ومباحث في التاريخ الإجتماعي الذي تمت الإشارة إليه.

(2) انظر المقدمة، الإحالة 1، ص:ر.

ولعل المتتبع للمسار التاريخي في المغرب الإسلامي قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، يلحظ للوهلة الأولى غياب قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط عن الحركة الإجتماعية ، بالرغم من ثقل تراثها بما يحمله من ذهنيات متميزة ،وتنوع في العادات والتقاليد.

فهل يعزى ذلك إلى عجزها عن توظيف هذه المؤهلات لبلورة تموقعها داخل المجتمع المغربي؟ أم أن وقوع مضاربها في قلب المغرب الأوسط بعيدا عن خطوط الفتح الأولى هو الذي أخرّ ظهورها على مسرح الأحداث ، لاسيما مع تنامي حدة الصراعات الداخلية التي طبعت العلاقة بين بطونها ؟

وما يميز بلاد صنهاجة المغرب الأوسط أنها حبيت ببيئة جغرافية متنوعة جمعت بين السهل والجبل،وزادها أهمية موقعها الإستراتيجي المشرف على البحر المتوسط، الذي جعلها محطة هامة للتلاقح والتواصل وتبادل الثقافات مع مختلف الشعوب.

فهل نجح الصنهاجيون في استثمار هذه المميزات للحفاظ على أنساقهم الداخلية ،وتوظيفها في خلق مجتمع يرفض الثراء الفاحش والفقر المدقع؟

ولئن حفلت الساحة المغربية بحلقات طويلة للصراع التقليدي بين قبيلتي زناتة البترية البدوية وصنهاجة المغرب الأوسط البرنسية الحضرية ، فإنه ــ أي الصراع ــ شهد أوجه مع مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، في ظل تعاظم التنافس الفاطمي ــ الأموي على المنطقة.

أهو صراع عرقي ــ إقتصادي كما اعتبره البعض ؟ أم أنه صراع ذهنيات غذاه تباين نمط المعيشة، واختلاف العادات والتقاليد؟

وقد اقترن تبلور الكيان الصنهاجي ــ خلال العصر الفاطمي ــ بتطورات كبيرة شهدها المجتمع الصنهاجي ، الذي عرف نقلة نوعية من الحياة القبلية في تلول وجبال المغرب الأوسط إلى حياة الدولة والسلطة السياسية ــ ولو بصورة نسبية ــ في المدن والحواضر.

فما هي انعكاسات هذه النقلة على المجتمع الصنهاجي ؟ وما مدى إسهامها في صقل شخصيته وتأصّيل موروثه؟

وقد أملت الدواعي المنهجية أن أهيكل موضوع الدراسة في أربعة فصول ، تتصدرها مقدمة وتمهيد، وتتذيلها خاتمة تضمنت النتائج التي توصلت إليها وآفاق الدراسة.

تناولت في التمهيد ظهور النظام القبلي ببلاد المغرب والظروف التي فرضت على أهلها هذا الأسلوب من الحياة، ثم سلطت الضوء على التغيرات الجذرية التي أحدثها دخول الإسلام إلى المنطقة ، والذي نظم حياة البربر وقوّم سلوكهم وأثرى عاداتهم وتقاليدهم ، وصوّب معتقداتهم.

وعالجت في الفصل الأول الواقع القبلي في المغرب الأوسط ، فتطرقت إلى القبيلة كمؤسسة إجتماعية ذات أبعاد سياسية وإقتصادية ، ثم عرّجت على التوزيع الجغرافي لكبريات قبائل المغرب الأوسط وموضع صنهاجة بينها ومدى ارتباطها بها ،وقدرتها على خلق مكانة إجتماعية مرموقة بينها انطلاقا من المؤهلات الطبيعية والبشرية والإقتصادية التي كانت تتوفر عليها.

واهتم الفصل الثاني بالبحث في أصول صنهاجة من حيث النطق والتسمية ، نسبها وصلتها بالبرانس ، ثم سلطت الضوء على مضاربها وتوزيع بطونها بالمغرب الأوسط، وعلاقاتهم بصنهاجيي المغرب الأقصى والأندلس ،وآثارها المتبقية إلى يومنا هذا، كما خصصت جانبا هاما منه لأشهر رجالات صنهاجة ومدى إسهامهم في إثراء موروثها وبناء صرحها ومنجزاتها.

وبحكم الإرتباط الوثيق بين الواقع السياسي والتطورات الإجتماعية من حيث التركيبة ونمط المعيشة والعادات والتقاليد، فقد كان من الطبيعي أن يطغى الطابع السياسي على معظم أجزاء الفصل الثالث، الذي تتبعت فيه تبلور الكيان الصنهاجي وانعكاساته على الواقع المغربي لاسيما خلال العصر الفاطمي **من منظور إجتماعي**،ودوره في دعم مكانة صنهاجة السياسية والإجتماعية منذ الفتح الإسلامي ، كما خصصت حيزا هاما منه لعلاقات صنهاجة المغرب الأوسط بمختلف القبائل التي أسهمت رفقتها في صياغة تاريخ المنطقة ككتامة وزناتة وصنهاجة الجنوب.

ومن ثم فقد كان الفصل الثالث تمهيدا للفصل الرابع الذي تجلت فيه انعكاسات المكانة السياسية والإجتماعية التي صارت تحظى بها قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط على كامل المنطقة حتى هابتها القبائل والدول، مما أهلها لأن تصبح سيدة على إفريقية والمغرب كله بعد عودة الفاطميين إلى مصر.

فقد شكّل الفصل الرابع لب الدراسة ،وعالج مضمونه تنظيم المجتمع الصنهاجي وتركيبته الإجتماعية،ودور الأسرة فيه ،ومكانة المرأة بين أفراده ،كما أفردت مجالا واسعا منه للعادات والتقاليد الصنهاجية كالغزو والثأر والكرم والمأكل والملبس والإيمان بالطوالع ...ومدى إسهامها في صقل الذهنية الصنهاجية.

وأفردت خاتمة الدراسة للنتائج التي توصلت إليها ،والتنويه بالآفاق التي فتحتها ،والتأكيد على كونها بيئة خصبة للتنقيب عن خبايا تاريخ المغرب الأوسط الإجتماعي ،وذيلتها في الأخير بمجموعة ملاحق وثبت للمصادر والمراجع.

وللإجابة عما أثرناه من تساؤلات ،ومن أجل الوصول إلى حقائق موضوعية ،ونظرا لما للتكامل المنهجي من أهمية في البحث العلمي ،آثرت استخدام أسلوب زاوج بين الوصف في ذكر مراكز صنهاجة

بالمغرب الأوسط وأبرز بطونها ورصد تحركاتها ،والتحليل عند محاولة تمحيص خصائص الذهنية الصنهاجية ومدى استثمارها لعناصر بيئتها ،وانعكاساتها على الواقع الإجتماعي والسياسي المغربي.

وأمام ندرة المادة العلمية التي اهتمت بالتاريخ الإجتماعي الصنهاجي، كثيرا ما إلتجأت إلى إستقراء النصوص والوثائق ومقارنتها لتغطية النقص الذي طبع معظم المصادر في هذا المجال.

وما كانت هذه الدراسة لترى النور لولا استنادها إلى جهود السلف ،وما هي إلا لبنة تضاف إلى سلسلة الجهود المبذولة لإزالة اللبس عن كثير من جوانب تاريخ المغرب في العصر الوسيط التي ما زال يكتنفها الغموض.

وأملنا أن تكون ــ رغم تواضعها ــ قد فتحت آفاقا واسعة وجديدة للبحث في التاريخ الإجتماعي المغاربي الذي لم ينل حظه من العناية ،ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أنوه بالجهود الكبيرة التي بذلتها الدكتورة بوبة مجاني في دعم هذا الإتجاه وتشجيع البحث فيه ،وإليها خالص شكري وامتناني لقبولها الإشراف على هذا العمل ، والتي لم تدخر أي جهد لمساعدتي،وتقويم الإعوجاج الذي طبع البحث في مختلف مراحله ، بفضل صبرها وتحملها مشاق قراءته وتهذيبه ، فجزاها الله عنا كل خير.

كما لا يفوتني أن أعبر عن خالص شكري وفائق إحترامي للأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة المناقشة، الذين تكبدوا عناء قراءة الدراسة من أجل تقويم إعوجاجها وتصويب زلاتها وتهذيب أفكارها وإثراء مضمونها،ولله الحمد في البدء والختام.

عرض المصادر والمراجع وتحليلها:

I ــ المصادر :

1 ــ المصادر المفقودة:

تجدر الإشارة قبل عرض أهم المصادر التي اعتمدت عليها في إنجاز هذا البحث ،إلى أن كثيرا منها استقت أخبارها من روايات لم يبق منها اليوم أي أثر ــ إلا في القليل النادر ــ ،والتي أشار إليها بعض المؤرخين والجغرافيين في مختلف كتاباتهم وتآليفهم ،ولعل أبرزها:

أــ كتاب " **تاريخ إفريقية والمغرب** "[1] **لأبي إسحاق إبراهيم بن القاسم** المشهور بالرقيق القيرواني أو الرقيق النديم المتوفي بعد سنة 423هــ/1031م[2]، الذي شغل منصب رئيس ديوان الرسائل في الدولة الزيرية لأزيد من ربع قرن، كما كانت له إلى جانب التاريخ عناية بالأدب والشعر ومن مؤلفاته" **الراح والإرتياح** " و" **نظم السلوك في مسامرة الملوك**"، بيد أن تاريخ إفريقية والمغرب لم تصلنا منه إلا قطعة صغيرة اعتنى بنشرها وتحقيقها عبد الله العلي زيدان وعز الدين عمر موسى بتونس سنة1968م، وتناول تاريخ المنطقة منذ ولاية عقبة الثانية على المغرب سنة 60هــ/679م ، وتنتهي بتولي محمد بن إبراهيم بن الأغلب الإمارة سنة196هــ/811م.

وعن أبي إسحاق الرقيق نقل كثير من المؤرخين المشارقة والمغاربة أخبارهم،أمثال : ابن عذاري والنويري وابن خلدون، بالإضافة إلى ابن الأثير[3] الذي كان غالبا ما يرجح روايته عن باقي الروايات قائلا:"**ورب البيت أدرى بما فيه**".

ب ــ **"الديباجة في مفاخر صنهاجة" لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني**[4]، المتوفي سنة529هــ/1135م[5] بالمهدية ،وكان فصيحا بارعا ،عالما بالنحو والطب، ارتحل إلى الإسكندرية عام506هــ/1112م ،ثم انتقل إلى المهدية ،واتصل بالخلفاء الزيريين الثلاثة الأواخر يحي وعلي والحسن فقربوه وأجزلوا له العطاء ،ووضع الكتاب المذكور" **للحسن صاحب المهدية**"[6] ، الذي عدّه التيجاني[7] ذيلا لكتاب" **تاريخ إفريقية والمغرب**"، كما

---

(1)الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1990.

(2) يرجح محققا الكتاب أن وفاة الرقيق كانت بعد 447هــ/1033م.

(3) أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت، 1967م،ج3،ص:46

(4) راجع ترجمته في : أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ط1، دار المكتبة العلمية ، بيروت،1991،ج2، ص:322-323، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس،دار صادر، بيروت، 1968،ج1،ص:245-246، لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، دار صادر ،بيروت،1988،ج4، ص:142، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي،شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت،د.ت،ج4، ص:83-84.

(5)يجعل ابن العماد الحنبلي ، المصدر نفسه ،ج4، ص84، تاريخ وفاته سنة528هــ/1134م

(6) مجهول ، مفاخر البربر، تحقيق: محمد يعلى ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ،مدريد ، 1996، ص:191.

(7)أبو محمد عبد الله بن محمد ،رحلة التيجاني ، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب ، تونس، 1967، ص:125.

أشار إليه ياقوت الحموي[1]،ويتناول هذا الكتاب أخبار إفريقية والمغرب منذ حوالي443هـ/1052م إلى غاية سنة517هـ/1123م ،ويمكن قراءة بعض نصوصه في كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب[2] عن"**أخبار المهدية وأميرها الحسن بن علي بن يحي بن تميم**".

ج ـــ كتاب " **الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان في سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيان**" **لأبي محمد عزالدين عبد العزيز ابن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس التلكاتي**[3] المتوفى بعد سنة595هـ/1198م، ومهما يكن من أمر فإن أهمية هذا المصدر تكمن في كونه قريبا من الفترة المدروسة ،وصاحبه من الأسرة الحاكمة ،ومطلعا على خبايا الدولة وأسرارها ،فقد كان من حاشية الأمير الحسن بن علي الصنهاجي.

د ـــ مُؤلَف" **النبذ المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة بإفريقية وبجاية**" **لأبي عبد الله محمد بن علي الحمزي الصنهاجي** المشهور "**بابن حمادو** "أو " **ابن حماد**" المتوفى سنة628هـ/1231م،ويبدو من خلال عنوان هذا الكتاب الذي اعتمد عليه صاحب مفاخر البربر وابن خلدون أنه يتناول تاريخ بني زيري في إفريقية والمغرب الأوسط، بأنه ألّفه تكملة لكتابه الأول الموسوم بـــ" **أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم**"[4]، الذي أوقفه على تاريخ الفاطميين ،ومن خلاله أمكننا تتبع تبلور مكانة صنهاجة الإجتماعية بالمغرب الأوسط والتي ارتبطت أساسا بما تحققه من انتصارات وما تسديه من خدمات للخلافة الفاطمية.

---

(1)معجم الأدباء ،ج2، ص:233.

(2)أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، تحقيق :ج.س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة ، بيروت، 1980،ج1،ص:464.

(3)أنظر ترجمته في:أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الآبار ، التكملة لكتاب الصلة، المكتبة الأندلسية ،مدريد ،1987، ج2، ص:265، تقي الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1991، ج4،ص:542، كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي، ترجمة :عبد الحليم النجار، طبعة القاهرة، د.ت، ج6، ص:98.

(4) مطبعة جول كربونل ، الجزائر، 1935م.

2 ــ كتب النوازل :

تفيد كتب النوازل في قراءة جيدة وجديدة للتاريخ الإجتماعي والإقتصادي للمغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وتميط اللثام عن كثير من الظواهر والجوانب التي أهملتها كتب التاريخ العام، وحتى كتب الرحلة والجغرافيا التي تقدم لنا معلومات عامة في معظمها، كما يمكّننا اختلاف مكان نوازل المسألة الواحدة وزمانها من تتبع تطور بعض المسائل والظواهر في أماكن مختلفة على مر العصور[1]

ومن أوائل الذين نبهوا إلى إمكانية استثمار نصوص النوازل وأجوبتها في دراسة الجوانب الإجتماعية والإقتصادية للمغرب الإسلامي المؤرخ **برانشوفيك** من خلال المقال الذي نشره في مجلة الدراسات الشرقية عام 1943م بعنوان **:" الأهمية التاريخية للأحكام والنوازل".**

ومن أجل توظيف دقيق للإشارات الواردة في النوازل وتوجيهها لخدمة موضوع دراستنا، عمدنا أولا إلى تحديد موضوع النازلة وفهم مضمونه، ولم نتوان في الاستعانة ببعض المصادر المساعدة لاسيما الفقهية منها،حتى إذا خلصنا سعينا إلى تحديد الإطار الزماني والمكاني للنازلة، ولا تكتمل دراسة النازلة إلا بالإطلاع على مضمون جوابها لتعميم الفائدة واستيفاء جميع جوانب الموضوع، وكانت أكثر مصنفات النوازل حظا من حيث الدراسة والعناية:

أ ــ "جامع مسائل الأحكام " [2] **لأبي القاسم بن أحمد البرزلي** المتوفى سنة840 هـ/1437م، الذي أمدنا بإشارات إجتماعية قيّمة لم تذكر في مصادر أخرى كبعض واجبات المرأة المترلية من" **تغربيل وطبخ وكنس وعجن وفرش وغزل ونسيج وحمل الماء والحطب"**[3] ، وأمكننا من الوقوف عن كثب على الوحدة العرقية والثقافية لشعوب المنطقة من خلال تشابه العادات والتقاليد وتلاقح السكان فيما بينهم.

ب ــ "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"[4] **لأحمد بن يحي الونشريسي** المتوفى سنة914 هـ/1508م، وبالرغم من أن كثيرا منها ارتبط بإفريقية ولا يقترن بموضوع دراستنا،إلا أن الواقع التاريخي وتشابه أنماط المعيشة في بلاد المغرب على مرّ العصور والتطور البطيء لمجتمعها، مكنّنا من متابعة كثير من الظواهر الإجتماعية،وبعض العادات والتقاليد التي كانت فاشية بالمغرب الأوسط ،كعادات الزواج والإرث والولائم ومكانة المرأة في المجتمع.

(1)محمد بن حسن ، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط ،دار الرياح الأربع،تونس ،1986، ص:17

(2)مخطوط المكتبة الوطنية ، الجزائر، ج2، رقم:3272.

(3) المصدر نفسه، ج2، و:52. ظ.

(4)تحقيق :أحمد الشرفاوي وآخرون، إشراف :محمد صبحي ،ط1، دار الغرب الإسلامي،بيروت، 1993.

3 ــ كتب الأنساب:

تساعد كتب الأنساب في معرفة أصول القبائل وتحديد مواطنها الأصلية ،وتتبع تطورها وتنقلاتها،كما تمكننا من معرفة النطق الصحيح لها ،والإطلاع على تركيبتها وفروعها.

وعلى الرغم من أن النسابة اختلفوا في تحديد أصل صنهاجة وانقسموا بشأنه إلى فريقين ،إلا أن ما يميز النسابة المشارقة عن المغاربة ،أن الأخيرين اكتفوا بذكر نسب صنهاجة إلى البرانس دون أي تفصيل ، عكس الأوائل الذين ألحوا على النسب العربي اليمني الجنوبي لصنهاجة ،وذكروا سبب قدومهم إلى المنطقة وعلة بقائهم فيها.

والملاحظ على كتب الأنساب التي بين أيدينا غياب المصادر المحلية ،إذ أنها مشرقية أو أندلسية في معظمها ،وعلى الرغم من أن هذه الأخيرة تعتمد عل روايات لنسابة مغاربة أمثال : **ابن أبي المجد المغيلي** الذي يعتمد عليه ابن عبد الحليم[1] لكنه لا يذكر المؤلفات التي استقى منها معلوماته ،والأمر نفسه ينطبق على **المطماطي** الذي ينقل عنه ابن خلدون.[2]

ومهما يكن من أمر فقد استندت الدراسة إلى جملة من كتب الأنساب ، أسهمت في تجانس مادتها وتكامل فصولها ،منها:

أـــ "جمهرة النسب "[3] **لابن الكلبي أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب** (ت 204هــ/ 819م)،وهو أول من نادى بالنسب العربي اليمني لصنهاجة،واعزى وجودها بالمنطقة إلى أحد أحفاد إفريقش بن وائل الذي غزا بلاد المغرب، ثم خلّف قبائل صنهاجة وكتامة ليردوا البربر على شاكلتهم ويأخذوا خراجهم ويدبروا أمرهم.

ب ـــ"جمهرة أنساب العرب "[4] **لابن حزم أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي** المتوفى سنة456هــ/1064م، الذي أنكر على النسابة المشارقة زعمهم بشأن انتساب صنهاجة إلى العرب الحميريين ، وأكد على أن النسابة " **لا يعلمون بوجود ابن قيس عيلان اسمه بر أصلا، وأن إفريقش لم يغزو إفريقية إلا في أساطير مؤرخي اليمن"**[5] كما أطلعنا على بعض بيوتات صنهاجة بالأندلس **كبني جعد وبني دراج** [6]

---

(1)أبو علي صالح ، تحقيق : محمد يعلى ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، مدريد ،1996، ص:86.

(2) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، 1967، ج6، ص:86.

(3)تحقيق: محمود الفردوس العظيم ،دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق،1939م، ج1.

(4)تحقيق: هارون عبد السلام ،ط4، دار الفكر العربي ، بيروت، 1964م.

(5) المصدر نفسه، ص:495.

(6) المصدر نفسه، ص:501-502.

ج ــ **" كتاب الأنساب"**[1] **للسمعاني أبو سعد عبد الكريم المروزي** المتوفى سنة **562هــ/1167م**، الذي أيّد فيه النسابة المشارقة في انتساب صنهاجة إلى عرب الجنوب.

د ــ " الأنساب "[2] **لابن عبد الحليم أبو علي صالح** المتوفى في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر ميلادي ،والذي خصص فيه حيزا هاما لأنساب البربر وكبريات قبائلهم من صنهاجة وكتامة ومصمودة...

هــ ــ "اللباب في تهذيب الأنساب"[3] **لعز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني بن الأثير** المتوفى سنة630هــ/1232م ،الذي ساعدنا في تحديد النطق الصحيح لبعض القبائل ومواطنها الأصلية، وهو إلى انحدار صنهاجة من عرب قحطان أميل.

4ــ كتب الطبقات والتراجم:

على الرغم من أن حركة التأليف في مجال الطبقات والتراجم عرفت ازدهارا كبيرا منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ،إلا أن معظمها ركزت إهتمامها على مراكز وحواضر إفريقية والمغرب وأهملت الأطراف على غرار: أبو العرب والمالكي رغم محاولة القاضي عياض سد هذا الفراغ ،وبخاصة إذا ما تعلق الأمر بالمغرب الأوسط.

ومهما يكن من أمر فإنه بالرغم من ما وصلنا من كتب الطبقات والتراجم إلا أنه لا يثلج صدر الباحث ،ومع ذلك فإن اهتمامها بالفرد أمد الباحثين بمعلومات قيمة عن الجماعة التي كان يعيش في إطارها.

وعلى الرغم من أنها لا ترقى أهمية إلى مستوى كتب النوازل والتاريخ والرحلة،إلا أنها أسهمت في سد بعض الثغرات في الجانبيين الإقتصادي والإجتماعي،لاسيما في مجال المأكل والملبس والعمارة، زيادة على كونها أكبر شاهد على بعض رجالات صنهاجة الذين سطع نجمهم في مختلف العلوم والفنون ، كالسياسة والأدب والتاريخ واللغة وأصول الدين والفقه...، ومن أبرزها:

أ ــ" رياض النفوس في علماء القيروان وإفريقية وتونس وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم"[4] **لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي** المتوفى سنة474هــ/1081م، الذي حفل بإشارات إجتماعية قيّمة لاسيما في جانب المأكل، إذ وردت فيه أسماء لمأكولات عرفت ذيوعا كبيرا بين سكان المغرب الأوسط كــ" **العصيدة والإسفنج والثريد**"، وبعض الألبسة **كالغفارة والسرويلات والرداء والعباءة والعمامة.**

---

(1) مطبعة المثنى ، بغداد ،د.ت.

(2)المصدر السابق.

(3) دار صادر، بيروت،1986،ج2.

(4)تحقيق : بشير البكوش وأحمد العروسي المطوي ،دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت، 1981م

ب ـــ" عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية "[1] لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني المتوفى سنة714هـ/1314م، وعلى الرغم من أهمية هذا المصدر الذي اهتم بأحد مجالات صنهاجة، وألقى الضوء على بعض رجالاتها في القرن السابع الهجري/ الثالث العشر الميلادي الذين حلوا ببجاية أمثال ابن الأساطير وابن حماد الحمزي، إلا أنه لا يرقى إلى درجة المالكي لكونه ركز على مشايخ المترجم لهم والمجالات التي نبغوا فيها، وتقل به الإشارات الإجتماعية والإقتصادية بالمقارنة مع باقي مصادر الطبقات والتراجم التي اعتمدناها في هذا البحث.

ج ـ "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" [2]لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ/1496م) الذي أفادنا في التعرف على بعض مشاهير صنهاجة المغرب الأوسط الذين نبغوا في المشرق العربي والمجالات التي برعوا فيها على غرار الفقيه أبو عبد الله محمد بن موسى بن عائد الونوغي.

د ـ " البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان " [3] لابن مريم أبو عبد الله بن محمد المليتي المتوفى سنة1014هـ/1605م، الذي رغم تأخره عن الفترة المدروسة إلا أنه أمدنا بمعلومات قيمة عن بعض رجالات صنهاجة والبيئة الإجتماعية والإقتصادية التي كانوا يعيشون فيها أمثال: محمد بن عيسى البطوي.

بالإضافة إلى مؤلفي **"فهرس الفهارس والأنساب ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات"[4]** ،**"وتعريف الخلف برجال السلف"[5]** ،اللذين أطلعانا على بعض أعلام صنهاجة المغرب الأوسط ومن بطون لم تسلط عليها المصادر الضوء مثل: **متنان وانوغة** ، وسطع نجمهم في العلم والشعر والأدب.[6]

5ـ كتب الجغرافيا والرحلة:

استندت دراستنا إلى مجموعة من المصادر الجغرافية الأصلية ، عايشت في معظمها الفترة المعنية بالدراسة ، وحفلت بمعلومات وحقائق أنارت لنا الطريق للكشف عن كثير من جوانب التاريخ الإجتماعي والإقتصادي الصنهاجي،ومما زاد في أهميتها أنها نقلت لنا روايات غاية في الأهمية عن مصادر هي اليوم مصنفة ضمن المصادر المفقودة، ولعل أبرزها :

---

(1)تحقيق : عادل نويهض ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بيروت،1969م.

(2)تحقيق : محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر،1908م.

(3)منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت،د.ت.

(4)عبد الكريم بن عبد الكبير الكتاني ،تحقيق: إحسان عباس ،دار الغرب الإسلامي، بيروت،1986م.

(5)أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي الحفناوي ، تحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ ، مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة،تونس، 1982م.

(6)المصدر نفسه،ج2، ص:32.

أ ـــ " **كتاب البلدان** "[1] **لأحمد بن يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي** المتوفى سنة284هـ/897م،الذي زار المغرب في حدود 276 هــ/889م ،وأمدنا بمعلومات وافية عن مراكز صنهاجة المغرب الأوسط لاسيما العلوية منها،مبرزا خصائصها الطبيعية والإثنية ،كما أطلعنا عن كثب على أوضاع صنهاجة المغرب الأوسط قبل بروزها على ساحة الأحداث مع مطلع القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي

ب ـــ ويكتسي كتاب" **صورة الأرض**[2] " **لابن حوقل النصيبي** المتوفى سنة 367هـ/978م ـــ الذي زار المنطقة في حوالي 330هـ/841م ـــ أهمية بالغة ، فزيادة على وصفه الدقيق لبلاد صنهاجة فقد أمدنا بمعلومات تاريخية هامة وانفرد في بعض أجزائه بروايات لم ترد في المصادر الأخرى حتى في كتب التاريخ العام، لاسيما فيما يتعلق بفروع صنهاجة، فقد زاد على التقسيم الذي أورده ابن خلدون تصنيفا آخرا لفروع صنهاجة، ميز فيه بين الصنهاجيين الخلص والصنهاجيين الضاربين ببلاد الزنج والحبشة،كما لمح في موضع آخر إلى وجود فرعين من صنهاجة: المسلمون والكفار.

ج ـــ ولا ينافس كتاب ابن حوقل أهمية سوى مؤلف :" **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**"[3] **لعبيد الله البكري** المتوفى سنة 487هـ/1094م، الذي نقل لنا معلومات غاية في الأهمية ـــ رغم أنه لم يزر المنطقة ـــ عن إقليم صنهاجة وخصائصه الطبيعية وثرواته،وكبرى مراسيه المشرفة على البحر المتوسط،والحركة التجارية الدؤوبة التي طبعت المنطقة منذ وقت مبكر بحكم موقعها الاستراتيجي الذي مكنها من السيطرة على كثير من معابر القوافل التجارية،ناهيك عن أهميته التاريخية التي نافست الكتب المتخصصة نفسها من خلال نقوله الدقيقة واعتماده الكبير على **محمد بن يوسف الوراق** المتوفى سنة 363هـ/973م.[4]

د ـــ ولا يمكن لدارس تاريخ صنهاجة المغرب الأوسط أن يستغني عن كتاب" **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**"[5] **لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الإدريسي** المتوفى سنة 560هــ/1164م الذي على الرغم من تأخره عن مجال دراستنا، إلا أنه أمدنا بحقائق قيمة يرجع بعضها إلى العهد الفاطمي.

وإلى جانب هذه المصادر الأصلية وجدت مصنفات جغرافية أخرى، ورغم أنها تستقي معظم أخبارها منها، إلا أنها لا تقل شأنا عنها، وسمحت لنا بالإطلاع على التغيرات الإجتماعية والإقتصادية التي طرأت على المنطقة ،ومنها:

---

(1) ط2، ليدن 1892، كما اعتمدت على النسخة المأخوذة منه تحت عنوان :" وصف إفريقيا الشمالية، نشر :هنري بريس ،الجزائر،1959، ورمزت لها بــ" البلدان "

(2) منشورات مكتبة الحياة ، بيروت، د.ت.

(3) مكتبة المثنى ، بغداد، د.ت.

(4)عبد الواحد دنون طه، "دراسة في موارد أبي عبيد الله البكري عن تاريخ إفريقية والمغرب"، دراسات أندلسية ، العدد3، 1989، ص:27.

(5) تحقيق : إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1982.

هـــ ـــ "الإستبصار في عجائب الأمصار"[1] لمؤلف مجهول وضعه في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ورغم أنه ينقل كثيرا من أخباره عن البكري[2] ،إلا أنه رصد لنا قسطا معتبرا من أحداث عصره ساعدتنا على رفع اللبس عن بعض جوانب الدراسة.

وـــ "كتاب الجغرافيا"[3] **لابن سعيد علي بن موسى المغربي** المتوفى سنة 762هـــ/1360م الذي ساعدنا في تحديد المجال الجغرافي الذي كانت تشغله صنهاجة وبعض خصائصه الطبيعية كما وردت الإشارة فيه إلى بعض بطونها، وأهم ما يميزه أنه فند إدعاء بعض الرحالة والجغرافيين انتساب مغراوة وبنو توجين إلى صنهاجة، وأكد انحدارهم من قبيلة زناتة.

زـــ كما استعنت بمؤلف **الحميري محمد بن عبد المنعم** المتوفى سنة 727هــ/1326م الموسوم بـــ" **الروض المعطار في أخبار الأقطار"**[4] لتحديد بعض مضارب صنهاجة، وتتبع التطورات والتغيرات التي طرأت على مراكزها، مقارنة بما كانت عليه في عهدي ابن حوقل والبكري اللذان ينقل عنهما الحميري معظم رواياته.[5]

وإضافة إلى المصادر التي تمت الإشارة إليها ، اعتمدت أيضا على مؤلفي :" **أحسن التقاسيم في ذكر الأقاليم"**[6]،و**"معجم البلدان"** [7] لتعميم الفائدة واستيفاء جميع جوانب الدراسة.

6 ـــ كتب التاريخ :

لم يكن البحث في التاريخ الصنهاجي ليستقيم لولا ارتكازه على كتب التاريخ العامة والمتخصصة ، كونها تحفل بإشارات قيّمة حول عادات صنهاجة وتقاليدها،وتنظيمها القبلي وتركيبتها الإجتماعية ،كما مكنتنا من متابعة تبلور الكيان الصنهاجي عن كثب،وأثره في الواقع الإجتماعي والإقتصادي والسياسي المغربي، وكانت أكثر المصادر خدمة للموضوع:

أـــ "رسالة افتتاح الدعوة"[8] **لأبي حنيفة النعمان بن محمد بن حيون التميمي** المتوفى سنة 363هــ/974م، وعلى الرغم من أنها اختصت بدراسة تاريخ الخلافة الفاطمية في دورها المغربي منذ مرحلة الدعوة إلى غاية القضاء على ثورة صاحب الحمار،إلا أن التدقيق في تفاصيلها مكننا من التعرف إلى النظام الذي كان سائدا في المنطقة خلال

---

(1)تحقيق :سعد زغلول عبد الحميد،طبعة الدار البيضاء،1964.

(2)المغرب، ص:60-62.

(3)تحقيق : إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1982.

(4)تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت،1975.

(5)أنظر:صورة الأرض، ص:77، 80 ، المغرب، ص:60-62.

(6) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي ، طبعة ليدن، 1909.

(7) أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت،1977.

(8)تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع،تونس،د.ت.

الفترة المدروسة ، وتوزيع قبائلها ولو على نطاق ضيق،كما جعلنا نقف على كثير من الخصال الحميدة التي طبعت سكان بلاد المغرب عموما، كالكرم والشجاعة وتوقير أهل العلم وحب آل البيت وقوة الشكيمة.

ب ــ " سيرة الحاجب جعفر"[1] **لليماني محمد بن محمد** المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي،الذي أمدنا بمعلومات دقيقة ،كما وردت الإشارة فيه إلى جبال تيطري تحت اسم " **جبال صنهاجة**"،ويتضح من خلال روايته أن التقارب الصنهاجي ــ الفاطمي تمتد جذوره إلى مرحلة الدعوة الإسماعيلية.

ج ــ " سيرة الأستاذ جوذر"[2] **للعزيزي الجوذري** المتوفى في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، الذي استفدنا منه في تحديد طبيعة العلاقة بين إمارة بني حمدون في المسيلة وقبيلة صنهاجة المغرب الأوسط، وعلة الصراع بينهما.

د ــ كما يعد مؤلف صاحب غرناطة **عبد الله بن بلكين التلكاتي** المتوفى سنة483هـ/1091م، المعروف بكتاب **"التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة "**[3] من أهم مصادر هذه الفترة، كونه صادر عن أحد رجالات الدولة الذين حكموا إمارة غرناطة باسم الصنهاجيين ، كما أنه لا يخلو من بعض الإشارات الإجتماعية على غرار التنجيم الذي كان يؤمن به المؤلف إيمانا راسخا، وعدّه مصدرا للشؤم أو التفاؤل.[4]

هـــ ــ "الكامل في التاريخ"[5] **لعزالدين بن الأثير** المتوفى سنة 630هــ/ 1232 م ، الذي على الرغم من كونه مشرقيا إلا أن اعتماده على ابن شداد في معرض حديثه عن صنهاجة أعطى رواياته أكثر مصداقية ، والتي تلتقي رواية النويري في كثير من أجزائها ،ولا تختلف عنها تقريبا إلا في تاريخ اختطاط أشير الذي كان حسب ابن الأثير " **سنة أربع وستين وثلاثمائة**". [6]

وــ "كتاب مفاخر البربر"[7] لمؤلف مجهول عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ويكتسي أهمية بالغة لدارس قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط، فقد غطى هذا المؤلف كثيرا من حروبها ضد زناتة، وسلط الضوء على أصلها وبعض بطونها وأشهر رجالاتها منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، كما وردت الإشارة فيه إلى ديانة صنهاجة قبل الإسلام ضمن الديانة العامة لسكان بلاد المغرب التي امتزجت بين الماجوسية والوثنية والنصرانية.

---

(1)تحقيق ونشر:و.إفانوف، مجلة كلية الآداب ، مج4، ج1، القاهرة،1936.

(2)تحقيق : محمد عبد الهادي شعيرة وكامل حسين،دار الفكر، القاهرة، 1954.

(3) تحقيق : ليفي برفنسال، دار المعارف ، مصر،د.ت.

(4)المصدر نفسه،ص:180-181.

(5)المصدر السابق، المقدمة، الإحالة 3 ، ص:ز.

(6)المصدر نفسه ، ج7، ص:47.

(7) المصدر السابق، الإحالة 6 ، ص: ز.

ز ـــ وما يميز كتاب" **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** "[(1)] **لابن عذري المراكشي** المتوفى سنة712هـــ/1312م عن باقي المصادر أنه غالبا ما يشير إلى مصدر روايته ،إذ استقى معظم معلوماته حول صنهاجة من روايتي أبي إسحاق القيرواني وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني،وقد أمدنا بمعلومات هامة عن تاريخ صنهاجة ،وهو الوحيد الذي لمح إلى أن صاحب " **جزائر بني مزغنة** " حمزة بن إبراهيم العلوي قبل خضوعه لسلطة زيري بن مناد كان على صلة بأمويي الأندلس.

ح ـــ " **نهاية الأرب في فنون الأدب**"[(2)] **لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري** المتوفى سنة 732هـــ/1332م الذي خصص الباب السادس من الفن الخامس لأخبار إفريقية وبلاد المغرب ومن وليها من العمال واستقل منهم بالملك ،ولا ينافسه أيا من مصادر التاريخ منزلة عدا " **كتاب العبر** " حول أخبار قبيلة صنهاجة التي استقى معظمها من رواية ابن شداد[(3)] كما أشار إلى ذلك في معرض حديثه عن النسب الحميري لصنهاجة قائلا:" **هكذا قال عزالدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد**"[(4)] ، إذ يطلعنا على حقائق ومعلومات لا تتوفر في المصادر الأخرى ، كسبب مقدم الصنهاجيين إلى بلاد المغرب بعد أن"**غلبت الحبشة على اليمن وأخرجت حمير عن ملكها** "[(5)] ،وعلة مكوثهم بها، ويقدم لنا معلومات إجتماعية غاية في الأهمية أسهمت بقسط كبير في الإحاطة ببعض خصائص المجتمع الصنهاجي لاسيما في مجال التنظيم القبلي الذي عرف تبلورا كبيرا في العهد الفاطمي ،والعادات والتقاليد كـــ: الكرم الذي طبع صنهاجة قادتها وعامتها ،والشجاعة التي كانت وراء الانتصارات المتكررة لها على زناتة ،والتسلية التي تنوعت ما بين الفروسية والألعاب وزخرفة الأواني وتبادل أطراف الحديث حول الأفراح والأقراح...

ط ـــ يعد كتاب " **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"[(6)] **لعبد الرحمن بن خلدون** المتوفى سنة 808هـــ/1406م خير دليل لدارس القبيلة المغربية ، إذ أنه من المصادر النادرة التي أفردت حيزا واسعا لقبيلة صنهاجة بفروعها الثلاثة خاصة الجزء السادس منه،وأشارت إلى أصلها المشترك ، وشهدت بانتساب هذا القبيل إلى فرع البربر البرانس عكس ما ذهب إليه النسابة المشارقة بحكم " **تجاور الموطن وعجمة اللسان**"[(7)] .

(1)المصدر السابق، المقدمة ، الإحالة2 ، ص:ح

(2)تحقيق : مصطفى أبو ضيف أحمد ،دار النشر المغربية ،الدار البيضاء، د.ت.

(3)حول مصادر النويري ، أنظر: المصدر نفسه،المقدمة ، ص:29-31.

(4)المصدر نفسه، ص :300.

(5)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6)دار الكتاب اللبناني ، بيروت، 1967،كما اعتمدت على الطبعة التي اعتنى بتصحيحها البارون دوسلان، تحت عنوان " تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب"، طبعة الجزائر،1951.

(7)العبر،ج6، ص:89.

كما أكدت هذه الرواية أن مواطن صنهاجة الأصلية انحصرت في المغرب الأوسط ما بين جبال زواوة شرقا وجبال زكار غربا وتمتد جنوبا إلى الأطراف الشمالية لمجالات زناتة عند مدينة المسيلة ـــ وهو مجال دراستنا ـــ ،وبفضل كتاب العبر تعرفنا بدقة إلى بطون صنهاجة المغرب الأوسط حتى الصغيرة منها **كبني سليب وبني وارث ومتنان.**

كما أطلعنا على بعض مظاهر النقلة النوعية التي شهدتها صنهاجة المغرب الأوسط نحو حياة التحضر والتمدن ،ومكّننا من تتبع تحركاتها وتنقلاتها في كامل المنطقة، واستلهمنا منه كثيرا من عادات وتقاليد هذه القبيلة كالغزو والثأر والكرم ، وانفرد هذا المصدر عن باقي المصادر الأخرى بروايتين هما:

- تشيع صنهاجة القديم لآل البيت" **إلا أننا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها**"[1] .
- دخول صنهاجة في خدمة المذهب السني تحت راية العباسيين مسترشدة بنصائح الأمراء الأغالبة.

أما **المقدمة**[2] التي وضع ابن خلدون فيها عصارة علمه وخبرته وكياسته، وملاحظاته الدقيقة في العمران البشري وأحوال الإجتماع الإنساني، فقد كانت بمثابة المصباح الذي أنار لي الطريق، وسمحت لي بتحليل وتفسير كثيرا من الظواهر الإجتماعية، ورصد بعض خبايا وأسرار الذهنية الصنهاجية وعاداتها وتقاليدها، وربطها بواقعها السياسي والإقتصادي.

ي ـــ كما استفدت من مؤلفات المقريزي المتوفى سنة 845 هـــ/1442م " **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** "[3] و"**اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**"[4] و" **المقفى الكبير**"[5] في تغطية بعض الثغرات التي تركتها المصادر الأخرى، واستقيت منها معلومات هامة حول تاريخ صنهاجة في العهد الفاطمي لاسيما في المجال العسكري،والظروف والملابسات التي آل فيها ملك الشيعة الإسماعيلية إليها.

ك ـــ" عيون الأخبار وفنون الآثار"[6] للداعي إدريس عماد الدين القرشي المتوفى سنة 827هـــ/1423م، الذي على الرغم من أنه سلط الضوء فيه على التاريخ السياسي والعسكري لخلفاء الدولة الفاطمية في طورها المغربي ،إلا أنه لا يخلو من إشارات إجتماعية قدمت خدمات جليلة لدراستنا هذه، من خلال إشاراته إلى وفرة الإنتاج الزراعي الصنهاجي ،وكثرة العبيد ،وشدة مراس الصنهاجيين وتفانيهم في الذود عن المذهب الإسماعيلي كما مكننا هذا المصدر من تتبع تطور مكانتهم العسكرية والإجتماعية لدى الفاطميين حتى صاروا يدهم التي

---

(1)العبر،ج6، ص:153.

(2) دار الكتاب اللبناني ،مكتبة المدرسة ، بيروت،د.ت.

(3) مطبعة البولاق، القاهرة، د.ت.

(4)تحقيق : جمال الدين الشيال ،ط1، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996م.

(5)المصدر السابق، المقدمة،الإحالة 3، ص:ح.

(6)ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت،1985.

تبطش بها، كما حدث في حملة جوهر على المغرب سنة347هـ/958م ،ومن خلال توسيع الفاطميين من مجالاتهم،وإغراق قادتهم بالهدايا والطرائف الملوكية.

II- المراجــع:

1- الدراسات الحديثة:

كما استندت هذه الدراسة إلى مجموعة مراجع عربية وأجنبية، أنارت لي الطريق للكشف عن بعض الغموض الذي اكتنف المجتمع الصنهاجي على الأقل قبل عودة الفاطميين إلى مصر.

على رأس هذه الدراسات بحثا الدكتور موسى لقبال ومحمد بن عميرة المشار إليهما ،واللذان فتحا آفاقا واسعة للبحث في تاريخ قبائل المغرب الأوسط،ومهدا الطريق التي يسرت لي كثيرا من المعطيات وذللت كل الصعاب ،إضافة إلى دراسة مؤرخ صنهاجة الجنوب حسن أحمد محمود(1) التي أثرت الكم المعرفي لبحثي ،ومكنتني من عقد بعض المقارنات بين فرعي صنهاجة ،والوقوف على مدى التواصل والتقارب بينهما، دون أن نغفل الدراسة القيمة التي أنجزها عبد الوهاب بن منصور حول " **قبائل المغرب**"(2) التي أفادتنا في التعرف إلى بطون صنهاجة ومواطنها،وآثارها في الوقت الحالي.

ولئن كانت الأبحاث والدراسات التي أعدها رشيد بورويبة حول " **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**" "(3) وإسماعيل العربي " **دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية**" ،وحتى الدراسة المتميزة التي أنجزها هادي روجي إدريس حول " **الدولة الصنهاجية في إفريقية** "(4) ، حاولت كلها تغطية التاريخ الصنهاجي والإلمام بشتى جوانبه ،إلا أنها أهملت في معظمها تاريخ صنهاجة قبل تأسيس دويلاتها و لم تتناوله إلا بشكل عابر ،ويصبح الأمر أكثر تعقيدا إذا ما تعلق بالجانب الإجتماعي لهذا القبيل.

كما استعنت بأبحاث علماء الإجتماع ودراساتهم الحقلية لتحديد الملامح العامة للمجتمع الصنهاجي وخصائصه الإجتماعية والأنثربولوجية ومدى إسهامها في صقل الذهنية الصنهاجية ، على غرار كتاب"**علم الاجتماع البدوي" لمصطفى صلاح الفوال.**(5) ،وكتاب " **تطبيقات في علم الإجتماع" لــ" غيث محمد عاطف** ".(6)

---

(1)المرجع السابق. الإحالة 1 ، ص:ج.

(2)المطبعة الملكية ،الرباط ، 1968، ج1.

(3)المرجع السابق، الإحالة 4 ، ص: ب.

(4)ترجمة:حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت،1992م.

(5)ط1، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1974.

(6) دار الكتب الجامعية ، الإسكندرية ، 1970

ومن المراجع الأجنبية التي أسدت خدمات كبيرة لبحثنا واعتنت بشكل جدي بالتاريخ الصنهاجي، كتاب" **le Maghreb central à l'épouque des Zirides** "[1] لــ"**لوسيان غولفن L.Golvin** " الذي اعتمدت دارسته على النتائج التي توصلت إليها تنقيباته في خرائب أشير ما بين (1954-1956م) بالإضافة إلى كتاب: " **-le passé de l'Afrique du Nord-les siécles obscures**"[2] للمؤرخ الفرنسي " غوتييه **E.f Gautier** " الذي أفادنا في دراسة خصائص فرعي البدو والحضر وعوامل الصراع بينهما،مع أخذ التناحر المستمر بين زناتة وصنهاجة كنموذج لذلك،وكتاب "**les berbères- étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes-**"[3] لــ" **هنري فورنال Fournel** "الذي أمدنا بمعلومات قيمة عن أصل صنهاجة، وعلاقتها بالفاطميين والتطور المستمر لمكانتها لديهم.

إلا أن هذه المراجع على الرغم من أنها حاولت الإستناد في معظمها إلى مصادر الفترة المعنية بالدراسة،غير أن أصحابها كانوا ينتقون الحقائق التي تروقهم في غالب الأحيان لخدمة أغراض سياسية،لذلك يجب التعامل معها بحذر.

III ــ الحفريات ونتائجها :

ارتكزت الحفريات الأثرية لصنهاجة المغرب الأوسط حول خرائب مدينة أشير[4] ،وأول من زارها الباحث الفرنسى" بربرجر **Berberger** "ما بين (1850-1852)م الذي عثر على خرائب قصبة متره بنت السلطان، ليتمكن بعدها" شابوسيار **Chabaussière** "من وضع مخطط عام لها سنة 1869،وفي عام 1908 زار النقيب "رودي**Rodet**" المنطقة وأسفرت دراسته عن تقسيم خرائب المدينة إلى ثلاثة مواضع: **متره بنت السلطان**،**يشير**، **بنية**،وهو ما أكده جورج مارسيه **G.Marçais** عام1922م الذي عثر أيضا على مسجد المدينة وعلى عمود من الحجر المنقوش، وفي الفترة الممتدة ما بين 1954-1956م اكتشف" غولفن **Golvin** " قصر زيري بن مناد وتيجانا وقطعا من الخزف.

---

(1) op-cit.
(2) payot ,Paris,1942
(3)) paris,1927

(4)حول الحفريات التي أجريت في خرائب أشير ونتائجها أنظر:
-G.Marçais,"Recherche d'Archéologie Musulmane" ,R.A , n°52, ,1922, Capitaine Rodet, "les Ruines d'Achir",R.A, ,n°38, 1908,L. Golvin, le Maghreb central…
- رشيد بورويبة، "أشير عاصمة بني زيري" ، مجلة الأصالة ،ع : ، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1972.

وقد مكنتنا هذه الدراسات التي نشر معظمها في المجلة الإفريقية "**Revue Africaine**" من الوقوف على كثير من الحقائق حول المجتمع الصنهاجي، لاسيما في مجال الطراز المعماري ومختلف أنواع الزخرفة، التي أشار إليها بعض الرحالة في وصفهم لمراكز صنهاجة.

وقد عرفت هذه الحركة العلمية فتورا كبيرا بعد الاستقلال إلى أن أعاد بعثها من جديد المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية سنة 1991م[1] ، غير أن أشغال لجان البحث والتنقيب ما لبثت أن توقفت قبل تحقيق النتائج المرجوة نتيجة لتردي الأوضاع الأمنية في المنطقة.

!!!

(1)حول الأعمال التي ارتكزت عليها حفريات فرق البحث في خرائب أشير أنظر: دفاتر أشير:تقرير حفرية 1991-1993م، العدد01 و03 ،وكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، الجزائر.

الفصل الأول

γواقع المغرب الأوسط القبليσ

1- المجال الجغرافي والتوزيع القبلي في المغرب الأوسط.

2- القبيلة والحياة القبلية بالمغرب الأوسط.

3- صنهاجة المغرب الأوسط:الإطار والبيئة الجغرافية.

1ـــ المجال الجغرافي والتوزيع القبلي في المغرب الأوسط:

ليس من السهولة الحديث عن توزيع القبائل في بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط بخاصة ، ذلك أننا نفتقر إلى المعلومات الكافية والحقائق الوافية عن الواقع القبلي لبلاد المغرب إلا في القليل النادر،وإن وجدت فهي تفتقر إلى الدقة ، لذلك نجد أنفسنا مجبرين على الإستعانة بالإشارات التي وردت في كتب الرحلات وما كتبه ابن خلدون حول القبائل المغربية ومواطنها وتنقلاتها ،والتغيرات التي أحدثتها على الأصعدة كافة.

وما يزيد الأمر تعقيدا أن مواطن القبائل البربرية لم تكن ثابتة وكثيرا ما تتداخل فيما بينها ، فقد كانت في مد وجزر تبعا لقوة أو ضعف القبيلة ، فكلما علا شأنها اتسع نطاقها ودانت القبائل المجاورة لسلطانها ، وتتقلص مضاربها وتتضعضع شوكتها ـــ وقد تندثر نهائيا وتندرج ضمن قبائل أخرى ـــ بضعفها.[1]

والأكيد أن الخوض في هذا الموضوع لا يتم دون التعريج ولو بصورة عابرة على أصول مجتمع المغرب الأوسط ـــ ضمن المجتمع المغربي ـــ وتقسيماته الإثنية ،لأن ذلك من شأنه أن يكشف لنا عن كثير من الظواهر التي أسهمت في حركية القبائل وتنقلاتها وتحديد أنماط معيشتها، كما يمكننا من إعطاء تفسيرات منطقية ومقبولة لبعض المواقف والأحداث.

ولئن كانت الأمم والشعوب التي وفدت على المنطقة منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد لم تدرك كنه الحياة المغربية نتيجة قلة احتكاكهم بالأهالي وترفعهم عنهم ،زيادة على تركزهم بالمناطق الساحلية والتلية فقط، إلا أن المسلمين الفاتحين اهتدوا منذ البداية إلى حقيقة الحياة المغربية بحكم أنها تتشابه إلى حد بعيد مع نمط معيشتهم في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام.[2]

وعلى هذا الأساس فقد اتخذ المسلمون من التركيبة البشرية والإثنية لسكان بلاد المغرب كمعيار لتقسيم المنطقة ،وبالرغم من إشارة بعض المؤرخين الإغريق[3] والرومان[4] إلى أن المجتمع المغربي القديم كان ينقسم إلى الليبيين في الشمال والجيتول في الجنوب ،إلا أنهم لم يقدموا لنا معالم واضحة لهذا التقسيم، على عكس المؤرخين والنسّابة البربر والمسلمين الذين بالرغم من عمومية دراساتهم القبلية في الغالب إلا أنها

(1) كما حدث لبني توجين ومغراوة الذين اندرجوا بالغلبة ضمن بطون صنهاجة الشمال ، حتى عدّهم البعض أنهم من الصنهاجيين الخلص. ابن سعيد، المصدر السابق، ص:141، روجي إدريس،المرجع السابق،ج1، ص:42.

(2)الإدريسي ، المصدر السابق ، ص:255.

(3) Hérodote ,op .cit,p :11 ,13

(4) Salustus ,op.cit,p: 19.

أكثر وضوحا ودقة،ويتفقون على تقسيم البربر إلى قسمين : البتر والبرانس ، بيد أنهم يختلفون في المعايير التي اعتمدت في هذا التقسيم.[1]

وعلى الرغم من أننا لسنا بصدد دراسة مستفيضة وشاملة لقبائل البتر والبرانس في هذا الموضع ،إلا أن ذلك لا يمنع من إلقاء نظرة عامة على هذين الفرعين ونمط معيشتهما لسببين إثنين :

ـــ أن قبيلة صنهاجة ببلاد المغرب مزجت بين نمط معيشة الفرعين[2] ،حيث اختصت صنهاجة الشمال بإفريقية والمغرب الأوسط بحياة الإستقرار وممارسة الزراعة ، في الوقت الذي اختارت فيه صنهاجة الجنوب العيش في عز ومنعة عن سلطان الدول وأيدي الجباة ،ودأبت على حياة البداوة وظعن المواشي في أقاصي الصحراء بين غدامس والبحر المحيط.[3]

ـــ أن الوسط الطبيعي والقبلي الذي عاشت فيه صنهاجة المغرب الأوسط ـــ موضوع دراستنا ـــ كان مزيجا بين البتر والبرانس ، إذ تجاورها من الشرق قبيلة كتامة البرنسية الضاربة بجبال زواوة شرق المغرب الأوسط، في حين تحيط قبيلة زناتة البترية بأراضي صنهاجة من الجنوب والغرب، وهما القبيلتان اللتان سنسلط عليهما الضوء لاعتبارات عدة:

- تداخل مواطن هاتين القبيلتين بأراضي صنهاجة ، لاسيما مواطن زناتة انطلاقا من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي التي كانت في مد وجزر بينها وبين صنهاجة تبعا لقوتها أو ضعفها ،حتى أن بعض المؤرخين والنسّابة اختلطت عليهم بطون زناتة كمغراوة وبنو توجين وعدّوها من قبائل صنهاجة.[4]

---

(1) يرى البعض أن تقسيم البربر إلى بتر وبرانس مردّه إلى اختلاف الفرعين في نمط المعيشة ،حيث اختص البرانس بحياة الاستقرار، على عكس البتر الذين مالوا إلى حياة البداوة والترحال، ورجح البعض أن يكون أساس هذا التقسيم ثقافيا على اعتبار أن البرانس كانوا أكثر تأثرا بالمؤثرات الخارجية ،ومن ثم أكثر تمرسا على الحياة الحضرية ،وجعل فريق ثالث من اختلاف المظهر الخارجي للباس الفرعين تبريرا لهذا التقسيم ، فقد ارتدى البربر البرانس لباسا يعرف بالبرنس ينتهي أعلاه بغطاء رأس مخروطي الشكل، في حين كان لباس البتر خال من هذا الغطاء، أما ابن خلدون فقد أعطى لهذا التقسيم بعدا سلاليا ، فالبرانس أشتق اسمهم من جدهم الأكبر برنس أما البتر فيرجع أصلهم إلى ماذغيس الأبتر. أنظر:مفاخر البربر ، ص:256 ،علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ، الطبعة الحجرية ، فاس ،1882،ص:86 ،ابن منصور،المرجع السابق، ج1،ص:292 وما بعدها.

(2) إن نعت قبائل البرانس بالإستقرار ،والقبائل البترية بالبداوة والترحال مسألة نسبية قابلة للإعتراض والجدل ،ذلك أنه من أحفاد برنس من اختص بمظاهر الحياة البدوية النقية كقبائل صنهاجة الجنوب الضاربة في أعماق الصحراء ، في حين اشتهرت قبائل بترية بممارسة أساليب مدنية متميزة ،ومالت إلى حياة الإستقرار كقبيلة كومية التي ينتسب إليها عبد المؤمن بن علي سلطان الموحدين.
أنظر: ابن خلدون، العبر ،ج6، ص:126، حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص:30 ،موسى لقبال ، دور كتامة ، ص:59-60.

(3) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:152.

(4)ابن سعيد ، المصدر السابق، ص:141

- النشاط الحثيث للحركات الدينية والمذهبية الشيعية والخارجية المعارضة للسلطة المركزية في القيروان،التي استغلت قبائلها من زناتة وكتامة وصنهاجة الساخطة على السياسة المجحفة المطبقة عليها لتجسيد أفكارها وتحقيق مشاريعها السياسية ، فشكلت مجالا حيويا تدور حوله جلّ أحداث الساحة السياسية المغربية.[1]
- أن قبيلتي زناتة وكتامة هما اللتان شاركتا صنهاجة في صياغة تاريخ المغرب الأوسط لمدة طويلة،فقد مثلت الأولى الغريم التقليدي لصنهاجة،على عكس الثانية التي حافظت على علاقاتها الودية معها،فتمخض عن ذلك بروز الحلف الصنهاجي ـــ الكتامي مع مطلع القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي تحت لواء المذهب الشيعي الإسماعيلي لمواجهة قبيلة زناتة الخارجية.[2]
- التنافس الشديد بين هذه القوى على زعامة المغرب الأوسط بشتى الوسائل السلمية والعسكرية والذي غذته الصراعات المذهبية ،وعدّه البعض امتدادا للصراع التقليدي بين البتر والبرانس حول المنتجعات والمناطق الرعوية ،والسعي إلى السيطرة على معابر الطرق التجارية ،وأنه تمرد على الحياة القبلية الضيقة الأفق،وتطلع إلى إقامة إمارات ودول تؤصل وجودها وتحقق آمالها.

وعليه سنحاول الغوص قليلا في تاريخ قبيلتي كتامة وزناتة بالمغرب الأوسط ومدى إرتباطه بصنهاجة،حتى يتاح لنا فيما بعد تفسير بعض الحوادث والمواقف ،وهذا ضمن الفرعين اللذين تنضويان تحتهما.

أ- البرانس:

نشأ خلاف كبير بين النسابة والمؤرخين حول أصل كلمة "**برانس**"، من قائل بأنها مشتقة من الكلمة اليونانية "BARANOS " التي تعني الحضر المستقرين[3] ،وقائل بأن التسمية أستمدت من اللباس الذي كان يرتديه هذا الفرع،والمتميز بغطاء الرأس ذي الشكل المخروطي[4] ، في حين اقترح البعض أن هؤلاء البربر قد أخذوا تسميتهم من جدهم الأكبر **برنس بن بر** ، بيد أن ابن حزم[5] أنكر عليهم ذلك.

---

(1) A.Bel ‹La Religion Musulmane en Berbérie (établissement et developpement de l'Islam en Berbérie du VII au XX siecle), Paris ,1938, T I , p : 19.

(2) مفاخر البربر، ص:129 ، Gautier ,op.cit,p: 227-228

(3) Ibid ,p :236.

(4) ابن منصور ، المرجع السابق،ج1،ص:324.

(5) الجمهرة ، ص:495

واتسم هذا الفرع من البربر بالوفرة العددية وسعة الإنتشار في كامل بلاد المغرب حتى زعم البعض أنهم يمثلون ثلثا البربر،وجبلوا على حياة الإستقرار في المدن والقرى، وساعدهم تنوع بيئتهم وخصوبتها على ممارسة الزراعة وتربية المواشي.(1)

والبرانس أكثر أهل المغرب تأثرا بالهجرات الأجنبية لاسيما الضاربين منهم على ساحل البحر المتوسط،نتيجة احتكاكهم المستمر بالطارئين الجدد على المنطقة ، فلا غرابة إذا أن تظهر بينهم محاولات تكوين كيانات سياسية قومية قبل البتر الضاربين في أعماق الصحراء.

وإلى البرانس تنتمي قبيلة كتامة(2)،وهي من أوفر قبائلهم عددا وأشدهم بأسا وأقواهم شكيمة وأعظمهم استقرارا وتمرسا على أساليب الحضارة ،وكانت مواطن جمهورها أيام الفتح الإسلامي شرق المغرب الأوسط تمتد من جبل أوراس جنوبا حتى ساحل البحر المتوسط ما بين بونة(3) وبجاية شمالا.

وجميع بطون كتامة تنحدر من غرسن ويسوده إبنا كتام بن برنس ،ومن أكثرها انتشارا وأعظمها ذكرا بالمغرب الأوسط : **جيملة، بني سكتان ،ملوزة ،زواوة ، دهاجة، مصالة...**(4)

ورغم أن المصادر التاريخية والشواهد الأثرية لا تشير إلى قبيلة كتامة قبل العهد البيزنطي إلا في إشارات عابرة(5)،إلا أن أراضيها كانت مسرحا لمعارك حاسمة في العهد الروماني ،وزادت أهميتها عند اتخاذ الرومان لإحدى قواعدها " سطيف " عاصمة لموريطانيا السطايفية.(6)

ويبدو أن تعذر إقامة دولة موحدة في بلاد المغرب على الرغم من الطموح الذي حدا ببعض قادتها إلى السيطرة على المنطقة على غرار " ماسينيسا " و " صيفاقس " ،خلق نوعا من العداء بين أهالي بلاد صنهاجة المؤيدين لمملكة نوميديا الغربية وأهالي كتامة الخاضعين لسلطة نوميديا الشرقية.(7)

---

(1)ابن خلدون ، المقدمة، ص:214.

(2)يدرج بعض النسابة والمؤرخين كتامة ضمن القبائل العربية الجنوبية،وينكرون ما يزعمه نسابة البربر بأنها تنحدر من فرع البرانس.أنظر: ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب ،ج3، ص:83 ،مفاخر البربر ،ص:190 ، قارن: ابن حزم ، المصدر السابق ، ص:495، ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:147-148.

(3)تقع على الساحل الشرقي للمغرب الأوسط إسمها القديم **هيبون** وتعرف اليوم **بعنابة**،ويطل عليها جبل إيدوغ، وبها اتخذ أبو عبد الملك مروان بن علي المعروف بالبوني رباطه. أنظر: البكري ، المصدر السابق، ص:55، الاستبصار ، ص:127.

(4)ابن خلدون ، العبر ، ج6،ص:148،

Zerouki(B),L'imamat de Tahart-premier état musulmane de maghreb- ,C.N.R.S,Paris,1987, TI ,p:67.

(5)يذكر لقبال مؤرخ كتامة أن أول إشارة إلى هذا القبيل وردت في النقوش المسيحية التي عثر عليها في " فج فدول " بين ميلة وجيجل،أطلقت على بعض سكان كتامة جنوب بابور اسم "**الأكوتماني** " أنظر: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص:171.

(6) أندري جوليان ، المرجع السابق، ج1، ص:241.

(7) محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص:105.

ولئن كان فتح بلاد كتامة تم على يد أبي المهاجر دينار،إلا أن القضاء على مقاومة الكاهنة سنة 74هـــ/ 693م وفتح الأوراس والسيطرة على بلاد الزاب أسهم في انكشافها وإتمام فتح ما تبقى من بطونها[1] ،غير أن المتتبع لحركية الأحداث بالمغرب الإسلامي من الفتح إلى أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي يلحظ أن كتامة قد فرضت عليها سياسة العزلة والانطواء على نفسها، إذ لا تطلعنا المصادر بأي مشاركة لها في مناجزة ولاة بني أمية وبني العباس.

ويخيل إلي أن هذه السياسة تقف خلفها جملة من العوامل، أهمها:

ـــ عدم تبني كتامة لأفكار المذهب الخارجي الذي تزعم حركات التمرد ضد الخلافة الإسلامية وعمالها بالقيروان، مستغلا السياسة المجحفة التي طبقت على أهل المغرب.[2]

ـــ حصانة بلاد كتامة[3] التي يغلب عليها الطابع الجبلي،وتضم أراضيها أعظم الكتل الجبلية بالمغرب الأوسط، ،إذ تحتضن مضارب كتامة جبال أوراس في الجنوب الشرقي ، وجبال الحضنة في الجنوب، وتفصلها عن مواطن صنهاجة في الغرب جبال زواوة، مما ولد أنفة لدى أهلها وشجعهم على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم،على كثرة الفتن والصراعات التي طغت على المنطقة.

ـــ حرص ولاة الخلافة الأموية والعباسية فيما بعد على عدم إثارة عدو جديد ضدهم يدعم القبائل الخارجية التي قويت شوكتها وتفاقم خطرها ،رغم التجاء بعض الثوار ضد الخلافة إلى أراضيها وامتناعهم بجبالها،كما فعل الحسن بن حرب الكندي الثائر على الأغلب بن سالم سنة150هـــ/767م.[4]

وقد إستغل الشيعة الإسماعيلية حياة العزلة التي كانت تحياها كتامة في نشر مذهبهم بين أهلها،والتستر وراء مناقب آل البيت من أحفاد علي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ، الذي كان يحظى باحترام كبير لدى الكتاميين لكونه ينحدر من بيت النبوة[5] ،فوجدوا في ذلك ضالتهم وخرجوا من قوقعتهم في جبال المغرب الأوسط إلى تلوله وسهوله ، للإسهام في الحياة السياسية والإقتصادية المغربية، فأدركوا مجدا عظيما في كنف الخلافة الفاطمية وذلك ما سنبينه في موضع آخر.

---

(1)أبو القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة،1961، ص:156.

(2)ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1، ص:52.

(3)أنظر : ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:148، لقبال ، دور كتامة، ص:98-99 ، Gautier, op.cit ,p :338

(4)استغل الحسن بن حرب الكندي عامل الأغالبة على تونس فرصة انشغال الوالي العباسي على القيروان بحرب الخوارج الصفرية ،وأعلن الثورة ضده سنة 150هـــ/767م،فاحتل القيروان وسجن نائب الأغلب عليها،فأسرع الأغلب بن سالم للقائه واضطره للإنسحاب إلى تونس ،وسرعان ما انهزم الكندي الذي ما لبث أن انتقم لنفسه في جولة ثانية أسفرت عن مقتل سالم بن الأغلب ، غير أن أهل القيروان إلتفوا حول المخارق بن غفار الطائي ضد الكندي الذي اعتصم بجبال كتامة. أنظر: ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1، ص:86-87 ، النويري، المصدر السابق، ص : 233-234.

(5) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة، ص: 32.

وهكذا نلحظ أن قبيلة كتامة على غرار صنهاجة لم تضطلع بدور بارز في بلاد المغرب قبل الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، نتيجة إيثار أهلها حياة الحرية والإستقلال التي جبلوا عليها منذ زمن طويل،كما أن سياسة الإنغلاق التي حدتها كتامة هي الأنسب في مثل تلك الظروف بفعل وقوع مواطنها على خطوط التماس بين جيوش الخلافة والثوار بالقرب من طبنة وبلاد الزاب ،ومن ثم فإن ميلها إلى أي طرف يجعلها الضحية الأولى للطرف الآخر ،و لم تتح لها فرصة الظهور على ساحة الأحداث إلا بعد الوهن الذي دبّ في كيان الإمارة الأغلبية وبروز الدعوة الشيعية الإسماعيلية ببلاد المغرب.

وقد خلقت التطورات السياسية التي شهدها المغرب الأوسط قبل الفتح الإسلامي جوا مشحونا بالعداء بين صنهاجة وكتامة نتيجة نصرتهما لطرفين متصارعين،إلا أنه بعد الفتح الإسلامي حدث تقارب بينهما بعد تبني كتامة للمذهب الإسماعيلي إلى جانب صنهاجة التي كان لها ولاء قديم لآل البيت[1]،ونتج عنه قيام الحلف الصنهاجي ـــ الكتامي الذي أظهر إنسجاما واضحا في قيادة العمليات العسكرية للخلافة الفاطمية[2]، وأسهم لفترة طويلة في صنع شخصية المغرب الأوسط الذي ظل إلى غاية هذه الفترة محل تجاذب بين الخوارج والخلافة الإسلامية كما سنبينه لاحقا.

ب ـــ البتـــر :

اختلف النسابة والمؤرخون حول أصل كلمة "**البتر** "، فقد افترض غوتيه Gautier "[3]" أن التسمية مشتقة من الكلمة اليونانية " BOTROS" وتعني البدو والرعاة، في حين يرجح البعض أن البتر هم المنحدرون من ولد ماذغيس الأبتر بن بر[4]، إلا أن هذا الرأي أنكره ابن حزم[5] بقوله**:" وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بر أصلا،ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر،إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن"**، ورأى فريق ثالث بأن العرب هم الذين أطلقوا على السكان الذين يرتدون ثيابا قصيرة اسم " البتر".

ودأب البتر على حياة البداوة والترحال الدائم انتجاعا للمراعي الفسيحة،وسكنوا الخيام المصنوعة من الشعر والوبر،وأكثر أموالهم من الإبل والأغنام ،ويميلون إلى التوحش والإغارة على مناطق الحضر حتى

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:153.

(2)أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، الإستقصا لدول المغرب الأقصا ، تحقيق: جعفر الناصري وخالد الناصري،دار البيضاء،1954،ج1،ص:81، من ذلك خروج كتامة وصنهاجة جنبا إلى جنب في حملة جوهر الصقلي على المغرب سنة347هـــ/958م، والتي حققت نجاحا كبيرا بفتح مدينة فاس. أنظر: جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي ،أخبار الدول المنقطعة ،تحقيق: عصام هزايمة وآخرون،ط1،مؤسسة حماد ودار الكندي للنشر،الأردن ،1999، ج1،ص:33.

(3) Le passsé de l’Alfrique… ,p :229.

(4) ابن خلدون، العبر ، ج6، ص:89.

(5) الجمهرة ، ص:495.

أضحت أرزاقهم في ظل رماحهم ،واتخذوا من الفيافي والقفار وإقليم السهوب مجالا لتحركاتهم بعيدا عن مراكز السلطة السياسية وأيدي السعاة.(1)

وإلى هؤلاء تنتمي قبيلة زناتة(2)التي شكلت أغلب سكان المغرب الأوسط حتى عرف باسمها(3)،وامتدت مواطنها ما بين غدامس(4) شرقا ووادي الساورة غربا، ثم زحفت أوزاع منهم إلى الشمال واستقرت غرب بلاد صنهاجة بالمغرب الأوسط وملأت سهوله وجباله.

وزناتة من أكبر شعوب البربر وأوفرهم عددا ،وتنحدر من ولد **أجانا أوزانا بن يحي بن ضريس**،ومن أشهر بطونها بالمغرب الأوسط **جراوة** قبيلة الكاهنة الضاربة بجبال أوراس ، **وبنو توجين** بين السرسو والونشريس ،**وبنو يفرن** قرب جبل راشد ،إضافة إلى **مغراوة** التي كانت لها الرياسة على سائر بطون زناتة ، كما كانت لها ولاية لعثمان بن عفان الذي أسلم على يده أميرها صولات بن وزمار(5).

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية تسكت عن دور زناتة قبل العهد البيزنطي(6)، إلا أن بروزها على ساحة الأحداث كان منذ النصف الأول من القرن السابع الميلادي،حيث استطاع الوالي البيزنطي " جرجير "(7) المنفصل عن هرقل متخذا من "سبيطلة "(8) عاصمة له ،أن يستميل عددا كبيرا من الزناتيين إلى صفه(9) .

---

(1)ابن خلدون ، المقدمة ، ص:212-213.

(2)حول زناتة أنظر : ابن حزم ، المصدر السابق ، ص:495 ،ابن عذاري، المصدر السابق،ج1، ص:73 ، ابن خلدون ، تاريخ الدول ،ج2، ص:2(ط.دوسلان)، بلهاشمي بن بكار الغريسي ،مجموع الحسب والنسب والتاريخ والأدب، المطبعة الخلدونية ، تلمسان ، 1961، ص: 354 ، ابن عميرة ، المرجع السابق، ص:15 وما بعدها،.Zerouki,op-cit,p:156-

(3)ابن خلدون ، تاريخ الدول ، ج2 ، ص:2 (ط. دوسلان).

(4)مدينة قديمة بها آزاج محكمة ،وآثار لسالف الأمم ،وبها اتخذت الكاهنة ملكة جراوة سجونها ،ومنها يدخل إلى تادمكة وكامل بلاد السودان . حولها أنظر: البكري ، المصدر السابق ص: 48 ، الاستبصار ، ص:145-146.

(5) ابن خلدون ، العبر ،ج6، ص:153.

(6)أسفرت الحفريات الأثرية عن اكتشاف كتابة في منطقتي " شلف" و"شرشال " تدل على أن اسم" **زناتة**" كان متداولا قبل العهد البيزنطي ،وكان يطلق على شخص يعرف بـ" كلوديوس زناتوس Claudius Zenatus ". لمزيد من الإطلاع انظر: ابن عميرة ، المرجع السابق، ص:15 ، Tauxier (H) ,"Ethnographie de l'Afrique Sepstentionale au temps de Mohamet" R . A , 1864,p :59.

(7)عندما اعتلى قسطنطين الرابع عرش القسطنطينية عام645م وكان من أنصار مذهب " الطبيعة الواحدة الإنسانية " ثار معارضوه ضده وعينوا والي إفريقية جرجير يوس (جرجير) إمبراطورا على مملكة " البربر والروم" ،فخلع طاعته لهرقل ،وضرب الدنانير وامتدت مملكته من طرابلس إلى طنجة واتخذ من سبيطلة عاصمة له ،وظل سيدا على إفريقية إلى أن قتله عبد الله بن الزبير سنة27هـ/647م. أنظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص:221-222 ، ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص:153 ، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الإستقلال، منشأة المعارف الإسكندرية، 1990، ج1، ص:152.

(8)على عكس المالكي وابن الأثير وابن عذاري يشير ابن عبد الحكم أن عاصمة جرجير هي قرطاجة وليست سبيطلة .أنظر : رياض النفوس ، ج1،ص: 292 ،الكامل ، ج3، ص: 46 ، البيان المغرب ، ج1، ص:5-6 ، فتوح مصر و المغرب ، ص:281.

(9)ا أحمد بن يحي البلاذري ، كتاب فتوح البلدان ، تحقيق :رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ت، ص:228.

وعلى الرغم من الإسهامات الكبيرة لزناتة في رد حملات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب تحت قيادة جرجير في حملة عبد الله بن أبي سرح سنة 27هـ/647م، أو في الحلف البربري الذي وقف في وجه حملة عقبة بن نافع الثانية سنة62هـــ/682م تحت إمرة **كسيلة بن لمزم الأوربي**[1] ،ثم محاولة فرعها الضارب بجبال أوراس بزعامة الكاهنة الوقوف في وجه حملة **حسّان بن النعمان الغساني**[2] ،إلا أن الزناتيين سرعان ما أعلنوا إسلامهم بعد القضاء على الكاهنة وصاروا سندا قويا لجيوش الفتح.

وقد أخذ حسان بن النعمان منهم إثني عشرة ألف فارس وجزأهم إلى قسمين على رأس كل منهما أحد إبني الكاهنة ،أبلوا إلى جانبه بلاء حسنا في نشر الإسلام ومطاردة فلول الروم والقبائل المتمردة.[3]

وعلى الرغم من أن سياسة جيوش الفتح إنبنت على إحداث تمازج وانصهار بين العنصرين العربي والبربري،إلا أن تعسف الولاة وتسلطهم خلق نوعا من الحنق والعداء لدى القبائل المغربية تجاه السلطة المركزية لاسيما بالمغربين الأوسط والأقصى[4] ،فوجدت في المذاهب الدينية التي لجأت إلى المنطقة متكأ لتحقيق آمالها ، مما أدى إلى نشوب صراع مستمر بينهما كان المغرب الأوسط مسرحا لكثير من أحداثه.

ويبدو أن دأب زناتة على حياة الحرية والإستقلال منذ القدم وركونها لحياة البداوة وعدم خضوعها لذل المراكز السياسية وأيدي السعاة، جعلتها دوما على رأس الحركات المعارضة لسياسة الظلم والتعسف التي انتهجها ولاة بني أمية وبني العباس تجاه القبائل المغربية.[5] وهنا نتساءل عن سر اعتناق زناتة دون صنهاجة وكتامة للمذهب الخارجي[6] ؟

إن الإجابة على هذا الإشكال يقتضي منا الوقوف على جملة من المعطيات ،أهمها:

ـــ حياة الحرية والاستقلال التي جبلت عليها زناتة بعيدا عن مراكز السلطة ،على عكس صنهاجة الشمال وكتامة اللتين كثيرا ما تأثرتا بالمؤثرات الأجنبية نتيجة احتكاكهما بها ،وامتداد سلطان الوافدين على المنطقة إلى هاتين القبيلتين ولو بصورة نسبية.

---

(1) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ص:227-228.

(2)المصدر نفسه، ص:228.

(3) المالكي، المصدر السابق،ج1 ص:54-55.

(4)ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1، ص:52.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6)ظهر المذهب الخارجي بعد موقعة صفين سنة 37هـ/657م بين أنصار علي بن أبي طالب وأنصار معاوية بن أبي سفيان ،والتجائهما إلى فكرة التحكيم، غير أن جماعة من شيعة علي رفضت هذه المسألة وطلبت منه التوبة لأنه كفر ، فلما رفض انشقوا عنه ورفعوا شعار " لا حكم إلا لله "، واصطلح على تسميتهم " بالخوارج"، ثم وقع شقاق بينهم فانشقوا إلى عدة فرق أشهرها " الأزارقة والإباضية والصفرية.لمزيد من التفاصيل أنظر: أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، ط2، دار الحداثة، بيروت، 1981، ج1، ص:321، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل ،تحقيق: عبد الرحمن خليفة ، ط1، مطبعة محمد علي،مصر ،1926، ج1،ص:123.

ــ بُعد مواطن زناتة عن مراكز الخلافة الإسلامية في المشرق وقاعدتها بالقيروان،مما ساعد على انتشار الحركات الخارجية بمضاربها،والتي استغلت الترعة الإستقلالية لزناتة وإيثارها لحياة الحرية من أجل تجسيد أفكارها،التي لطالما عجزت عن تطبيقها في المشرق.

ــ ويفسر حسن أحمد محمود [1] انضواء زناتة تحت لواء الخوارج منذ وقت مبكر برغبتها في إنشاء كيان سياسي يجمع بطونها ويحمي مصالحها،ووجدت أفضل مسلك للوصول إلى هذا المسعى في تعاليم الخوارج التي تتوافق والذهنية الزناتية.

ــ السياسة المجحفة التي انتهجها الولاة الأمويون والعبّاسيون تجاه البربر[2] ، التي انجر عنها سخط ونقمة أهل المنطقة على الخلافة خاصة لما امتدت أيديهم إلى أهاليهم ،وكانت أكثر القبائل حنقا عليها قبيلة زناتة بفعل الحياة التي كانت تعيشها، على عكس صنهاجة وكتامة اللتين اعتاد سكانهما على مثل هذه المضايقات نتيجة احتكاكهم المستمر بمختلف الوافدين على المنطقة،وكثيرا ما عبر الزناتيون عن رفضهم لهذه السياسة بإعلان الثورة والتمرد ،وكانت أول محطاتها ثورة ميسرة المطغري سنة 122هـ/739م.

وعلى هذا الأساس فقد شاركت زناتة في معظم الحركات المذهبية الخارجية الصفرية والإباضية،وأسهمت بقسط كبير في صنع تاريخ المغرب الأوسط الوسيط.

فقد تزعم الخوارج الصفرية أولى ثوراتهم ضد الخلافة الأموية سنة 122هـ/739م بزعامة ميسرة المطغري وحميد الزناتي على عهد الوالي حبيب بن أبي عبيد نتيجة تماديه في سياسة الجور والتعسف.

كما استطاعت زناتة أن تجمع شمل الخوارج الصفرية والإباضية في حلف واحد لأول مرة في تاريخ المنطقة بزعامة أبي قرة سنة153هـ/770م، الذي عمد إلى محاصرة عمر بن حفص المهلبي ــ الوالي العباسي ــ بطبنة الذي أوكل إليه أبو جعفر المنصور مهمة تقويض النشاط الخارجي بالمنطقة[3]،وما ميز هذا التحالف هو انضمام صنهاجة إلى الخوارج في ألفي فارس بزعامة عبد الله بن سكرديد ،وهو التقارب الوحيد الذي وقع بين زناتة وصنهاجة في تاريخ القبيلتين حسب ما أوردته المصادر.

---

(1) قيام دولة المرابطين ، ص:70-71.

(2) وقد لخص لنا ميسرة المطغري مظاهر هذه السياسة في تقريره الذي تلاه على الأبرش ليبلغه للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بقوله:" إن أميرنا يغزو بنا وبجنده ،فإذا غنمنا نفلهم دوننا ويقول : هذا أخلص لجهادكم ،وإذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم ،ويقول :هذا إزدياد في الأجر، ومثلنا تقي إخوانه ، ثم أنهم عمدوا إلى ما شيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد فاحتملنا ذلك ، ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا..." .أنظر: ابن الأثير ، الكامل، ج3، ص:47.

(3) النويري ، المصدر السابق، ص:242.

ولعل أكبر خطر شكلته قبيلة زناتة وكادت أن تسيطر على إثره على كامل بلاد المغرب، عقب ثورة **" صاحب الحمار" أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني** ، التي أشرفت خلالها زناتة على القضاء على الخلافة الفاطمية بمساعدة أهل السنة وأمويي الأندلس (1) ،بيد أن الدور الهام الذي لعبته قبيلتا كتامة وصنهاجة حال دون وصولها إلى مبتغاها(2) ،ومنذئذ زادت حدة الصراع المذهبي بين زناتة والحلف الكتامي ــ الصنهاجي، مما كان له أثر بالغ في صقل شخصية المغرب الأوسط في هذه الفترة.

وعلى الرغم من أن البعض اعتبر هذه الحركة الدؤوبة التي طبعت نشاط قبيلة زناتة منذ الفتح الإسلامي أحدثت تفككا وانقساما في كيان بلاد المغرب،وحالت دوما دون استقرار المنطقة، ومن ثمّ تشكيل سلطة سياسية موحدة، ــ ومع أن هذا الرأي يحتوي على جانب من الصحة ــ إلا أنه يفتقر إلى الموضوعية ، خاصة من قبل أولئك الذين حاولوا تفسير تاريخ بلاد المغرب في العصر الوسيط على أنه صراع إقتصادي ــ عرقي بين البتر والبرانس دون مراعاة التحولات والتغييرات التي طرأت على المنطقة،والتبلور الكبير لذهنية المغاربة في ظل الظروف الجديدة.(3)

2- القبيلة والحياة القبلية بالمغرب الأوسط:

قبل استعراض المعالم الجغرافية والخصائص الطبيعية لبلاد صنهاجة ،إرتأينا أن نعرج على البنية القبلية للمغرب الأوسط التي تشكل بفعل الوحدة الجغرافية والإثنية جزءا لا يتجزأ من القبيلة المغربية ،حتى يتسنى لنا إماطة اللثام عن بعض اللبس الذي يكتنف هذا الجانب ،وإدراك بعض الحقائق التي من شأنها أن تعيننا على فهم الموضوع واستيفاء جميع جوانبه.

والقبيلة ظاهرة عامة شملت شتى ربوع العالم منها ما زال واندثر كالقبائل الجرمانية بأوروبا ،ومنها ما انحسر وجودها وضعفت شوكتها كالهنود الحمر بأمريكا ،ومنها ما بقي إلى يومنا هذا على غرار الإسكيمو، الأزاندي ،النوير.(4)

ولا ريب في أن البناء الاجتماعي للقبيلة المغربية لا يختلف عنه كثيرا في شبه الجزيرة العربية بحكم التشابه في البيئة الجغرافية، حتى أن من الرحالة العارفين ببلاد المغرب من طابق حياة بعض القبائل المغربية على غرار زناتة بحياة البداوة التي كانت سائدة بين عرب الشمال في شبه الجزيرة العربية.(5)

(1) المالكي ، المصدر السابق، ج1، ص:292-293.
(2) ابن حماد ، المصدر السابق، ص:35.
(3)ابن حسن، المرجع السابق، ص:30.
(4) الفوال، المرجع السابق، ص:325.
(5) ابن سعيد، المصدر السابق، ص:123.

وعلى الرغم من أن مراتب البناء القبلي ببلاد المغرب غير واضحة المعالم، ذلك أن النسّابة والمؤرخين البربر رغم أنهم تكلموا عن القبائل المغربية ضمن التقسيمات المعروفة عند العرب والبربر، إلا أنهم أهملوا كثيرا في كتاباتهم وتآريخهم التزام هذا التقسيم ، فكثيرا ما خلطوا بين **الجذم والشِعب** أو بين **البطن والقبيلة** ،أو حتى بأقل منها، لذلك طغى اسم القبيلة على البناء الإجتماعي المغربي، على الرغم من أن بعضها ارتقى إلى مرتبة الشعب ،في الوقت الذي لم يتجاوز فيه البعض الآخر مرتبة **الفخذ** أوالبطن.[1]

وأمام الغموض الكبير الذي يكتنف المصادر التاريخية حول معالم البناء القبلي بالمغرب الإسلامي عموما،فإننا نجد أنفسنا مجبرين على الإستعانة بما جاء في كتب الأنساب والطبقات [2] ، لاسيما أن كثيرا من النسّابة يرجعون أنسابهم إلى أصول عربية،ومن ثم سوف نعتمد هذا التقسيم الذي كان سائدا في شبه الجزيرة العربية.

فقد مثلت القبيلة حسب ما ذكره القرآن الكريم والمصادر التراثية من كتب الأنساب والطبقات ومصادر اللغة ، ثالث مراتب البناء الإجتماعي عند العرب[3] بعد الجذم والشعب.

والقبيلة لغة ما انقسم فيها الشعب **كمضر وربيعة**[4]، والقبيلة من الناس بنو الأب الواحد،وهي **كالسبط من ولد إسحاق عليه السلام**[5] ،وتجمع على القبائل وسميت كذلك لتقابل الأنساب فيها أو تقابل بعضها ببعض واستوائها في العدد[6]،وهي بمنزلة الصدر من الجسد[7]

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم مقرونة بالشعب في قوله تعالى:" **يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند الله أتقاكم** ".[8]

---

(1) يذكر ابن خلدون في بعض المواطن أن الجذم أقل مرتبة من الشعب (العبر ،ج6، ص: 90)وفي مواطن أخرى يجعل من الشعب أقل مرتبة من الجذم (العبر ،ج6، ص:90) ،كما يرقى في موضع آخر برياح إلى مرتبةالقبيلة (العبر ،ج6، ص:31)

(2) ابن الكلبي، المصدر السابق، ج1 ، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت، 1996 ،ج11،(مادة قبل)،ص:541، النويري،المصدر السابق ،القلقشندي ،نهاية الأرب ،محمد سليمان الطيب ،موسوعة القبائل العربية، دار الفكر، العربي ،مصر، 1997.

(3)قسم النسابة العرب إلى ست طبقات: **الشعب والقبيلة والعمارة ،والبطن،والفخذ،والفصيلة** ،وأخذ بهذا الطرح ابن الكلبي والقلقشندي ، غير أن النويري زاد عليهما أربعة طبقات هي: **الجمهور ، الجذم ، العشيرة، الرهط**، ولم يتوان البعض في تقسيم الطبقات إلى وحدات إجتماعية أصغر ، فظهر: **البيت والحي والجماع** .أنظر :ابن الكلبي ، المصدر السابق، ج1، ص:492، القلقشندي ، نهاية الأرب، ص:13، جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت، ومكتبة النهضة ، بغداد،1969، ج1،ص :509-510، محمد محمود جمعة، النظم الإجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ،مطبعة السعادة ، القاهرة،1949، ص:10.

(4) القلقشندي، نهاية الأرب ،ص:13.

(5) ابن منظور،المصدر السابق، ج11، (مادة قبل)،ص:541.

(6) ابن الكلبي ، المصدر السابق،ج2،ص:412.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(8) سورة الحجرات ، الآية [13]

أما عن مدلولها الإصطلاحي الذي اجتهد في ضبطه المؤرخون وعلماء الاجتماع والأنثربولوجيا من خلال كتاباتهم ونتائج دراساتهم الحقلية لبعض المجتمعات القبلية التي ما زالت إلى يومنا هذا، فقد اختلف من مجتمع لآخر حسب خصائصه الجغرافية والإثنية،وعاداته وتقاليده ومعتقداته.

فقد عرّفها عالم الإجتماع البدوي" مصطفى صلاح الفوال "(1) على أنها ظاهرة عالمية ذات طابع إجتماعي وسياسي وإقتصادي وإداري وقضائي يرأسه قائد أعلى يساعده مجلس استشاري(2)، وتضم مجموعة من الأفراد تجمعهم وحدة الأصل والهدف والمحافظة على مآثر الآباء والأجداد.

وليس بالضرورة أن ينحدر أفراد القبيلة من أصل واحد،فقد يحدث أن تنضوي عدة عصبيات تحت سلطة قبيلة واحدة تأخذ اسم أقواها دون أن تجمعها صلة الرحم(3)،على غرار قبائل مغراوة وبني توجين التي انضوت في الحلف الصنهاجي على الرغم من أنها لا تربطها بصنهاجة أية صلات.

وعلى الرغم من أن القبيلة شكلت المحور الرئيس الذي انبنت عليه الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية في المجتمعات البدوية والريفية على السواء،إلا أن البعض اعتبرها أداة رجعية قديمة ومتخلفة تشكل تكتلا إجتماعيا موحدا جمعته المصلحة المشتركة في إطار البيئة المحيطة به.(4)

ومهما يكن من أمر فإنه على ضوء ما تناقلته مصادر العصر الوسيط بالمغرب الإسلامي ، يمكن أن نعرّفها بأنها مجموعة من الأفراد غالبا ما ينحدرون من أصل واحد ، تجمعهم زيادة على رابطتي الدم والقرابة وحدة الهدف والمصلحة المشتركة،تربط بينهم روابط مشتركة لغوية ودينية وإقتصادية وإجتماعية تزيد من تلاحمهم.(5)

واتسم البناء القبلي المغربي ببساطته وعدم تعقيده ،ويأخذ شكلا هرميا شكلت القبيلة أعلى وحداته الإجتماعية،وقاعدته تتسع وتتقلص من قبيل لآخر،ويتدرج من البطون إلى الأفخاذ فالعشائر ،وتمثل الأسرة أصغر وحدة فيه.

---

(1) علم الإجتماع البدوي ، ص:306.

(2) قسم العلماء القبائل من حيث سلطتها السياسية إلى :

- قبائل بسيطة بلا رئاسة ،وهي مكونة من قوى وجماعات مستقلة.
- قبائل فرعية أو جزئية ،وهي قبائل لا رئاسة واضحة لها،لكل منها إقليمها ونظامها الخاص بها.
- القبائل المركزية، تحتوي على سلطة مركزية سواء أكانت ملكا أو مجلسا استشاريا يتولى شؤون الحكم.

للإستزادة انظر: إبراهيم مذكور وآخرون، معجم العلوم الإجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت، ص:266.

(3) ابن خلدون ، المقدمة ، ص:212.

(4)محمد سليمان الطيب، المرجع السابق،ص:16.

(5) Robert Montagne ، Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc ,librarie Féléx,Paris ,1930,p :159.

وقد تنتظم القبائل في وحدات إجتماعية أكبر تنحدر من أصل واحد عندما تتوسع مضاربها وتتشابك أنسابها مشكلة ما يعرف بالشعب[1] ،ومن مجموع الشعوب نشأ الجذم[2] وهو أعلى وحدة في المجتمع المغربي ككل،وعلى أساسه قسم ابن خلدون[3] البربر إلى جذمين عظيمين: **ماذغيس الأبتر وبرنس.**

وهكذا فقد شكلت القبيلة بالمغرب الأوسط تكتلا إجتماعيا أخذ أبعادا إقتصادية وسياسية وثقافية دعمت كيانه ووطدت أركانه،ونظمت العلاقات بين أفراده على المستوى الداخلي ومع القبائل المجاورة على المستوى الخارجي،حتى أضحت أساسا لمعظم التغيرات الطارئة على المجتمع المغربي في العصر الوسيط.

واقترن دور القبيلة كمؤسسة إجتماعية بالإشراف على مختلف الوحدات المنضوية تحت لوائها، وإدارة الشؤون العامة المتعلقة بالحرب والعلاقات الخارجية والتنظيم السياسي والإقتصادي المرتبط أساسا بالحياة الإجتماعية ،وأضحت القبيلة القاعدة الشعبية ومصدر الطاقة البشرية المتجددة وخزانا لا ينضب في تمويل هذه الأنشطة.[4]

على أن إختلاف البيئة الجغرافية وتباين نمط المعيشة وشدة التمرس على أساليب الحياة الحضرية، أسهم بقسط كبير في تفاوت النشاط الإجتماعي والإقتصادي الذي تضطلع به كل قبيلة بدوية كانت أم ريفية.

فقد فرضت طبيعة المغرب الأوسط المتنوعة التضاريس على السكان الضاربين بين السهول الفسيحة كسهول: متيجة ووهران وبونة، والسفوح الشمالية لسلسة الأطلس التلي ــ حيث تسود التربة الخصبة والمناخ المعتدل والأمطار الغزيرة ،إضافة إلى وفرة المياه والمنتجعات الواسعة والغابات الكثيفة ــ حياة رغدة نتيجة ملاءمة الظروف الطبيعية ، فمارسوا الزراعة وامتهنوا صناعات متنوعة ،واستقروا في بيوت مبنية من الطين والحجارة[5]،فشكلوا بذلك النواة الأولى لنشأة المدن والقرى في المنطقة.

وإذا توغلنا نحو الداخل إعترضتنا نجود مرتفعة تنحصر بين سلسلتين جبليتين شامختين تمتد في شكل مثلث رأسه عند جبال ترارة غربا وقاعدته عند جبال الحضنة شرقا ،وبسفوح جبال هذا الإقليم استقر البربر **الجبالة** في قرى متناثرة لاسيما في السفوح الشمالية للأطلس التلي المواجهة للساحل على غرار قبيلة كتامة

---

(1) الشعب بكسر الشين ،أكبر طبقة في المجتمع العربي القديم بعد الجذم وسمي كذلك لأن القبائل تشعبت منه، وذكر في القرآن الكريم مقرونا بالقبيلة كما سبقت الإشارة إليه ، فعدنان شعب وقحطان شعب.أنظر: ابن الكلبي، المصدر السابق، ج1،ص:430،القلقشندي،نهاية الأرب، ص:13.

(2) يضم الجذم مجموعة شعوب ،ويعني تعذر البحث في سلسلة الآباء وأسمائهم بعد الجذم ،ويذكر ابن خلدون أن أمة البربر كان يجمعها جذمان عظيمان:جذم مادغيس الأبتر،وجذم برنس بن بر. أنظر: العبر ،ج6، ص:89.

(3) المصدر نفسه، ص:89-90.

(4)الفوال ، المرجع السابق، ص:295.

(5) عبد الحميد الفهري، البربر الجبالة في العصور الوسطى،مقال ضمن ، أعمال ملتقى التغيرات الإجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور ،جامعة قسنطينة،2001،ص:143.

الضاربة بجبال زواوة،وصنهاجة بجبل تيطري[1]، وقد جمع هؤلاء بين ممارسة الزراعة على السهول الفسيحة التي تشرف عليها أراضيهم وظعن الإبل والأغنام والأبقار بالمنتجعات القريبة منهم[2] ،إلا أن ذلك لم يمنعهم من احتراف بعض المهن البسيطة كالنسيج وصناعة الأواني الفخارية والطينية وصناعة السيوف.

وأهل السهول والمناطق الجبلية المحاذية لها هم أكثر سكان بلاد المغرب الأوسط احتكاكا بالطارئين الجدد على المنطقة ، مما ساعدهم على التفتح على الثقافات الأجنبية والتمرس على أساليب الحياة الحضارية،ومع ذلك فإنها لم تنصهر فيها كلية وحافظت على انسجامها وأصالة موروثها حتى مجيء الفتح الإسلامي.

في حين فرضت الأراضي الجدباء على التخوم الجبلية للسلسة الأطلسية الصحراوية على أهلها حياة قاسية ،واقتصروا فيها على الضروري من الأقوات ،ومن ثم فهم إلى التنقل والترحال أميل طلبا للمياه،وإنتجاعا للمسارح، وتطلعا إلى حياة أفضل،وكان عيشهم من ألبان حيواناتهم ولحومها " **وليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولاخبزا ،إنما أموالهم الأنعام...ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكله ،إلا أن يمر بهم التجار...**"[3].

وعلى الرغم من النقلة النوعية في نمط معيشة البدو التي أحدثها اكتشاف الجمل في بلاد المغرب نهاية العهد الروماني، فقصرت المسافات وصار البدو يجوبون الصحراء من أقصاها إلى أدناها،إلا أن ذلك لم يخفف من وطأة الحياة القاسية التي كانوا يعيشونها من جراء قهر الظروف الطبيعية.[4]

وبين المنطقة الداخلية الغنية بثرواتها الميسورة في عيشها،والصحراء القاحلة القليلة الجود على أهلها،عاش **أنصاف البدو** في المناطق شبه الصحراوية والإستبسية في مد وجزر بين التخوم الشمالية للصحراء والمناطق الجبلية ،وهي نقاط احتكاكهم بالمدر الحضريين.

فقد اتخذ أهل هذه المواطن من المراعي الواسعة الغنية بالعشب التي يزخر بها إقليمهم منتجعا لظعن مواشيهم ،كما مارسوا الزراعة ولو على نطاق ضيق،لكن مع حلول فصل الشتاء والانخفاض الشديد في درجة الحرارة ينتقلون إلى المناطق الجنوبية حفاظا على ماشيتهم.[5]

وطبيعي أن يحتدم الصراع بين البدو الرحل والحضر المستقرين حول مصادر المياه والأراضي الخصبة والمنتجعات الفسيحة ، بحكم قساوة الظروف الطبيعية في الجنوب وقلة المسارح،والثراء الذي تجود به الطبيعة في الشمال مما يساعد على العيش الميسور.

(1)ابن خلدون، العبر، ج6،ص:153.

(2)ابن خلدون، المقدمة، ص:212.

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:86 ، قارن: ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:98، البكري ، المصدر السابق، ص:164.

(4) ابن عميرة، المرجع السابق،ص:25.

(5) ابن منصور ، المرجع السابق، ج1، ص:282.

فكثيرا ما كان البدو يغيرون على مضارب الحضر للإستيلاء على خيراتهم ومزروعاتهم حتى صارت صنعة لهم، وأضحوا ميالين إلى سلب ما في أيدي الناس ،وصارت أرزاقهم في ظل رماحهم[1].

وأمام هذا الواقع المتأزم اضطرت قبائل الحضر إلى الإتحاد لدرء خطر الهجمات المتكررة للبدو على مواطنها،مثلما فعلت صنهاجة التي جمعت شملها ووحدت بطونها لردع زناتة البدوية[2] التي كثرت تحرشاتها على أراضيها.

وعلى الرغم من اعتناق كلا الفرعين للدين الإسلامي الذي ينبذ العصبية القبلية والصراعات العرقية،إلا أن ذلك لم يخفف من وطأة التوتر بينهما ، لاسيما أنهما لم يجدا الرعاية الكافية من قبل الخلافة بل تعرضا لجورها ،مما جعل مجالاتهما تربة خصبة لنشاط الحركات المذهبية المعارضة للسلطة المركزية منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.[3] .

وقد وجدت القبائل البدوية والحضرية في الحركات المذهبية وسيلة لتحسين أوضاعها واسترجاع هيبتها ،إلا أن طموحات وآمال هذه الأخيرة كانت أكبر من أن تلتفت إلى الوضع المزري لهذه القبائل ، بل أنها اتخذتها مطية لتنفيذ مشاريعها ومخططاتها ،حتى ولو اقتضى الأمر تحريض بعضها على البعض الآخر كما فعل أمويو الأندلس والفاطميون بزناتة وصنهاجة.[4]

وفي الأخير نخلص إلى أن القبيلة بالمغرب الإسلامي شكلت الأساس الإجتماعي والإقتصادي والسياسي للمجتمع المغربي ،كونها الخزان البشري الذي تقوم عليه هذه التنظيمات ،وقد أدى تباين البيئة الجغرافية بين الشمال والجنوب إلى إختلاف نمط المعيشة من قبيلة لأخرى ، تمخض عنه نشوب صراع بينها للسيطرة على الموارد الإقتصادية والطرق التجارية ،وزادت من حدته الصراعات المذهبية والسياسية .

---

(1)ابن خلدون، المقدمة،ص:213.

(2) النويري، المصدر السابق، ص:304

(3) الرقيق القيرواني،المصدر السابق، ص:130.

(4) مفاخر البربر، ص:129.

3- صنهاجة المغرب الأوسط:الإطار والبيئة الجغرافية :

إن دراسة البيئة الجغرافية لأي بقعة على سطح الأرض ضروري لفهم تاريخها ،ويصبح الأمر أكثر لزوما وأشد إلحاحا إذا ما تعلق بالمغرب الأوسط خلال العصور الوسطى على وجه الخصوص، لما لها من تأثير على الحياة القبلية،كما لعبت دورا بارزا في تحديد معالم تاريخ المنطقة ،وفي قيام بعض الدول أو سقوطها زيادة على أثرها البالغ في تحديد نمط معيشة السكان الذي اختلف باختلاف المظاهر التضاريسية وطبيعة البيئة الجغرافية.

ومن ثمّ فإنه لا مناص من الاستعانة ــ لمن يريد الكلام عن القبائل المغربية ــ بخصائص البيئة الجغرافية لمواطنها، حتى يتسنى له تحديد مجالات تحركاتها وتنقلاتها من جهة ،وأن يدرك كنه الصراع التقليدي القائم بين البرانس الحضريين المستقرين على السواحل والأنهار في المدن والقرى آخذين ببعض أسباب الحضارة، وبين البتر البدو الضاربين في أعماق الصحراء وعلى تخومها الشمالية، معتمدين على الترحال والتنقل المستمر انتجاعا للمياه والمسارح الفسيحة لأنعامهم ،والميل إلى الإغارة على مراكز الإستقرار من أجل الإستيلاء على خيراتهم من جهة أخرى.[(1)]

وعلى هذا الأساس سنسلط الضوء على مجال قبيلة صنهاجة بالمغرب الأوسط الفضاء الجيو ــ إستراتيجي لتحركاتها ،والتي لا يخلو جبل ولا بسيط من بطونها في كامل بلاد المغرب[(2)]، مع محاولة إبراز المعالم والخصائص الجغرافية للمنطقة ،حتى نستطيع تفسير بعض الظواهر التي سنتعرض لها لاحقا.

وتحتل بلاد صنهاجة قلب المغرب الأوسط ،وتمتد أراضيها في خط وهمي من **جبال زواوة** غرب إقليم كتامة إلى **المسيلة** في الجنوب، وبين **البحر المتوسط** إلى **جبل زكار** على طول نهر شلف غربا ،وتشرف شمالا على واجهة بحرية شاسعة تمتد من بجاية إلى غرب جزائر بني مزغنة ،أما حدودها الجنوبية فتنتهي عند مدينة المسيلة شمال مجال تحرك قبيلة زناتة البترية.[(3)]

وعرف المجال الجغرافي الذي تشغله قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط اتساعا كبيرا لاسيما بعد اختطاط أشير على حساب مجالات زناتة وإمارة بني حمدون،وشهدت أقصى اتساع لها في العصر الفاطمي على عهد بلكين بن زيري التلكاتي ،حيث أصبحت تضم: **تاهرت ، أشير ، المسيلة،بسكرة، طبنة، باغاية،ومجانة**

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص:212، قارن:أحمد بن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان ، الدار التونسية للنشر، تونس،1976، ج1،ص:102، E.F Gautier, op.cit,p :227-228.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، ص:153.

(3)المصدر نفسه، ص:154 ،النويري، المصدر السابق، ص:310.

وقد مكن إشراف بلاد صنهاجة على شريط ساحلي واسع مطل على البحر الأبيض المتوسط ـــ تتخلله عدة موانئ إستراتيجية :كمرسى بني مزغنة ،ومرسى شرشال ـــ أهلها من الإتصال بمختلف المراكز الحضارية ،والإحتكاك بشعوب البحر الأبيض المتوسط منذ وقت مبكر، وهو ما يفسر اعتناق بعض سكانها للنصرانية بعد احتكاكهم بالرومان من خلال الكنيسة الكبيرة التي بنيت عند بني مزغنة.(1)

فقد ساعد الموقع الإستراتيجي الهام لبلاد صنهاجة على إقامة علاقات تجارية واسعة مع مختلف الإمارات الأوروبية المتوسطية خاصة الإسلامية منها، التي كانت تصدر العسل إليها، كما مكنها من تغطية حاجياتها المحلية بواسطة مختلف السلع التي تستوردها من هذه الإمارات كالحرير(2) ،وبرزت أهمية المنطقة التجارية أكثر في العهد الحمادي.

وفرضت الكتل الجبلية المواجهة للشريط الساحلي على غرار جبال الظهرة وجبال زكار(3) أو التي تندرج ضمن سلسلة الأطلس التلي: كجبال التيطري (4) التي أسماها عبيد الله المهدي **بجبال صنهاجة**(5)،وجبال الونشريس ـــ على السكان الضاربين بينهما عزلة إجتماعية وضيقا كبيرا في معاملاتهم التجارية ، ومدى تمرسهم على أساليب الحياة الحضارية ، إلا أنها كثيرا ما كانت ملاذا آمنا تمتنع به القبائل الأبية من قهر القبائل والدول ،وهو ما يفسر اتخاذ زيري بن مناد لمدينة أشير في موقع حصين على سفح **الكاف الأخضر** بجبال تيطري ، لا يمكن اختراقه إلا من جهة واحدة يكفي لحمايتها عشرة رجال ،وكثيرا ما احتمت بها صنهاجة من ضربات زناتة.(6)

إلا أن هذا لا يعني أن الطابع الجبلي هو الغالب على بلاد صنهاجة ،ذلك أن مرتفعاتها الجبلية تشرف على سهول فسيحة تضم أجود الأراضي في المغرب الأوسط كله.

ويمثل **سهل متيجة** أعظم سهول بلاد صنهاجة ،ويعد امتدادا طبيعيا لسهل وهران ، ويمتد على مسافة 100كلم من غرب حجوط حتى جبل بوزقزة،أما عرضه فلا يتجاوز 30كلم(7) ،وقد استغله الصنهاجيون في زراعة الحبوب من الحنطة والشعير ،كما غرسوا به بساتين شاسعة من التين والعنب والسفرجل..(8)

---

(1)لبكري، المصدر السابق، ص:82.

(2)ابن حوقل، المصدر السابق، ص:141، فتوى اللخمي ، جامع المسائل، ج2،و: 54 ظ.

(3)البكري، المصدر السابق، ص:61 ، اسماعيل العربي، دولة بني حماد،ص:53-54.

(4)يندرج ضمن هذه السلسة الجبل الأخضر الذي بنيت عنده مدينة أشير ،وهو جبل صخري ممتد من الشرق إلى الغرب في شكل حرف لام ، إسمه محدث ، فقد كان يعرف في العصور الوسطى بجبل تيطري ،إلا أن هذه التسمية صارت تطلق على كامل المنطقة.حوله أنظر: ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:152،إسماعيل العربي، عواصم بني زيري ،ط1، دار الرائد العربي ، بيروت، 1984، ص:15.

(5)اليماني ، المصدر السابق، ص: 131 ، كما أوردها التيجاني في رحلته بنفس الاسم.أنظر : الرحلة ، ص:16.

(6)النويري، المصدر السابق، ص:304-305.

(7)ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، تحقيق: عبد الرحمن حميدة، كلية العلوم الاجتماعية،جامعة سعود الإسلامية ،السعودية،1978، ج2 ،ص:34-

(8)اليعقوبي ، المصدر السابق، ص: 35 ، ابن حوقل، المصدر السابق، ص:78.

ولا زال هذا السهل إلى يومنا هذا يدر خيرات وفيرة على أهل المنطقة لاسيما من الكروم والبرتقال والتفاح والمشمش ،إضافة إلى شتى أنواع الخضروات والحبوب والبقول الجافة بكل أصنافها.

إلى جانب **سهل " المدية"** الذي يعدّ المصدر الرئيس لنشاط أهلها في العصر الوسيط ،والسهول الفيضية الممتدة على طول نهر شلف على الحدود الغربية لصنهاجة المغرب الأوسط، لاسيما عند مليانة التي ينعطف عندها هذا النهر واشتهرت بـــ"**...أشجار وبساتين فيها جميع الفواكه...**"[1].

وقد ساعد على حركية النشاط الزراعي ملاءمة الظروف الطبيعية ،من مناخ معتدل دافئ ممطر شتاء وحار جاف صيفا على الساحل ،وبارد بالمناطق الداخلية لاسيما على قنن الجبال ،إلى جانب وفرة المياه وحيازتها على أودية هامة زادت من أهمية المنطقة ،أشهرها على الإطلاق **" نهر شلف"** أطول نهر بالمغرب الأوسط كله، ويمتد على مسافة 700كلم،وينبع من بلد راشد على التخوم الشمالية للصحراء ، ويخترق المنطقة التلية لبلاد حصين ، ثم ينعطف عند جبل زكار قرب مليانة،ويصب في البحر الأبيض المتوسط ما بين **"كلمتين"** و**"مستغانم "**[2] ،وينبع من فوهة نهر آخر يذهب مشرقا عبر بلاد الزاب ،ويصب في **"مشيخة"** ما بين**"توزر"**و**"نفزاوة"** ويعرف بوادي **" شدي"**[3] .

ويغذي نهر شلف عدة روافد كوادي **"دردر" و" وادي مينا" و"وادي الفضة"** التي تنبع كلها من جبال الونشريس جنوب غربي بلاد صنهاجة، وعليه أقيمت أرحية كثيرة لطحن الحبوب وبساتين غناء زادته روعة وجمالا.[4]

إلى جانب وادي شلف ،تخترق بلاد صنهاجة عدة أودية ،منها مشرب أهلها وتروي مزروعاتها أهمها " وادي يسر" الذي ينبع من جبل تيطري على علو 1200م بالقرب من البرواقية ويصب في البحر المتوسط عند دلس ويزيد طوله عن230كلم، وعليه تقيم بعض بقايا بطون صنهاجة على غرار بنو مكلا وبنو حميد،ووادي الشفة الذي يمتد على مسافة 203كلم ،ويصب بالقرب من سيدي فرج، ويرفده "وادي العلايق" ووادي"دجر".[5]

أما بالمناطق الجبلية التي تتلقى كميات كبيرة من الأمطار، وتكسو الثلوج قممها الشامخة حلة بيضاء لفترات طويلة من فصلي الشتاء والربيع ، فتنتشر بها زراعة الزيتون لتوافقها مع التربة الجبلية التي تتسم بقلة

(1) الإستبصار، ص:171.

(2)ابن سعيد، المصدر السابق، ص:141 ، الاستبصار ، ص: 171 ، ابن خلدون،العبر، ج6، ص:102.

(3)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4)الاستبصار، ص:171

(5)أنظر : عبدا لقادر علي حليمي ، جغرافية الجزائر الطبيعية والبشرية والاقتصادية،ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1968،ص:80-82.

نضجها وصغر سمكها وفقرها من حيث المواد العضوية،وقد أذرت هذه الزراعة على أهلها أموالا طائلة قبل الفتح الإسلامي كما أشار إليه ابن عبد الحكم.(1)

كما تزخر جبال صنهاجة بثروة غابية كثيفة لاسيما في الجهة الشمالية الشرقية بمحاذاة جبال زواوة،وشكلت أشجار الفلين والصنوبر والبلوط والأرز...أكثر أشجارها ،واكتست أهمية بالغة في الحياة الإجتماعية والإقتصادية الصنهاجية ، فقد استغل أهلها أخشابها في بناء السفن وتسقيف المنازل والقصور،كما استخدمت في صناعة الأواني الخشبية ،وفي إضرام نار التدفئة لاسيما مع ما تتميز به بلاد صنهاجة الداخلية من برودة شديدة في فصل الشتاء خاصة المرتفعات الجبلية.

ونتيجة لاختلاف كمية الأمطار التي تتلقاها بلاد صنهاجة بين الأطراف الشمالية والمناطق الداخلية،فإن الغابات الكثيفة في الإقليم التلي تتحول إلى حشائش وشجيرات متباعدة بمناطق الإستبس كالديس والحلفاء، وهو مجال احتكاكها بقبيلة زناتة البترية.

ومن خلال استعراضنا للخصائص الطبيعية لبيئة صنهاجة المغرب الأوسط ،نخلص إلى جملة من المميزات نوجزها فيما يلي:

- أن إشراف بلاد صنهاجة على واجهة بحرية شاسعة أدى إلى إنفتاحها أمام المؤثرات الأجنبية،إلا أن سكانها الجبالة الممتنعين بسلسلة الأطلس التلي حافظوا على أنساقهم الداخلية ،وظلوا ينتجون عادات وتقاليد تؤصّل موروثها من جهة، وتعمق الهوة مع الطارئين عليها عبر العصور الذين ظلوا يرفضونهم دوما من جهة أخرى.(2)
- أن بلاد صنهاجة المغرب الأوسط أعطيت مزيتي الجبل والسهل، فمزجت بين قساوة الحياة الجبلية وخصوبة الأراضي السهلية وثرائها، مما كان له أثر بالغ في صقل شخصية أهلها الذين جمعوا بين الخشونة واللين ،وجبلوا على صفات قلما اجتمعت في قبيلة واحدة **كالشجاعة وقوة الشكيمة والكرم والعناد**،وهو ما يفسر مقاومتهم المستمرة للغزاة الوافدين عليهم.
- أن حيازة قبيلة صنهاجة على كل مقومات قيام الدولة،من: إقليم واضح المعالم وسيادتها الكاملة عليه،وامتلاكها لجيش نظامي أسهم بقسط كبير في نضج تفكيرها وإثراء ذهنيتها ،وهو ما ترجمته عمليا منذ مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ،واقتناعها بضرورة إقامة كيان يجمع بطونها ويحمي مصالحها لاسيما في ظل تفاقم حدة الصراع الشيعي ـــ السني في المنطقة.(3)

---

(1) فتوح مصر والمغرب،ص:212.

(2) الفهري، المرجع السابق، ص:144.

(3) مفاخر البربر،ص:129.

- أن الدارس للخصائص الطبيعية لبلاد صنهاجة المتميزة بمناخها المعتدل وتربتها الخصبة ،وغناها بالموارد المائية ،وكثافة غطائها النباتي ،يدرك إلى حد بعيد كنه الصراع المستمر بين صنهاجة التي حباها الله ــ عزوجل ــ بثراء قلّ نظيره، وزناتة التي شغلت أراضي جدباء لا تجود حتى بالضروري من الأقوات[1] .
- أن الموقع الإستراتيجي الهام لقبيلة صنهاجة المطل على البحر الأبيض المتوسط والضارب في قلب المغرب الأوسط،جعلها محل أطماع خارجية وداخلية منذ وقت مبكر ، فقد كانت قبلة للوافدين الأجانب على المنطقة من فينيقيين ورومان الذين جعلوها عاصمة لموريطانيا القيصرية ،كما صارت بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب في مد وجزر بين الإمارات والدويلات الإسلامية[2] ، باعتبارها إحدى أكبر محطات الاتصال بالأندلس وأوروبا ككل.كل هذا جعل بلاد صنهاجة همزة وصل بين شرق بلاد المغرب وغربها،وبين الضفتين الشمالية والجنوبية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ومحطة للتواصل والتلاقح والاحتكاك بين الشعوب وتبادل الثقافات.

###

(1) Gautier ,op.cit,p : 228-229

(2)حول الدويلات والإمارات التي قامت بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب قبل قيام الخلافة الفاطمية. أنظر: ابن عذاري ،المصدر السابق،ج1 وج2، النويري ،المصدر السابق،لسان الدين بن الخطيب ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ــ القسم الثالث من أعمال الأعلام ــ ، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني،دار الكتاب، الدار البيضاء،1964 ،ابن خلدون ،العبر ، ج6، ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،تحقيق: محمد الشمام ،المكتبة العتيقة ،تونس ،1967،حسين مؤنس ،تاريخ المغرب وحضارته ، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع،بيروت،1992 ،ج1.

الفصل الثاني

γصنهاجة المغرب الأوسطσ .
أصلها ، بطونها ،مضاربها.

1- أصل صنهاجة

2- بطون صنهاجة

3-مضارب صنهاجة بالمغرب الأوسط.

1ـ أصل صنهاجة:

ينتسب الصنهاجيون إلى ولد " **صنهاج**"،وأصل الكلمة " **صناك**" بالصاد المشممة زايا والكاف القريبة من الجيم ،فلما عربتها العرب زادت الهاء بين النون والألف فصارت الكلمة " صنهاج" ، ثّم أضافوا لها تاء الجمع فتحولت إلى " صنهاجة"[(1)].

وقد اختلف النسابة والمؤرخون والباحثون في ضبط النطق الصحيح لهذه القبيلة، فابن دريد يذكر أنها تنطق بالضم (**صُنهاجة**)،أما ابن خلكان وليفي بروفنسال فيرجحان نطقها بالكسر (**صِنهاجة**)،في حين يؤكد ابن الأثير والسمعاني على أنها تنطق بالضم كما بالكسر ،وعلى عكس الطروحات الأولى ألح القلقشندي على أن النطق الصحيح لهذه القبيلة هو (**صَنهاجة**) بفتح الصاد المهملة.

كما نشأ خلاف كبير بين النسابة والمؤرخين العرب والبربر حول أصل قبيلة صنهاجة ، أهي من البربر الخلص من ولد مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح ـــ عليه السلام ـــ؟ أم من أصل عربي يمني جنوبي ؟

ونتيجة لتضارب الآراء وتشابك الافتراضات حول أصل صنهاجة[(2)]،فقد برز تياران متناقضان يدافعان عن نظريتين متباينتين ويدعمان طرحهما بأدلة وبراهين،بيد أنها قابلة في مجملها للجدل والإعتراض:

أ- التيار الأول:

يقود هذا التيار علماء الأنساب والمؤرخون العرب ،ولئن كان هؤلاء قد قسموا قبائل العرب إلى فرعين:عرب الشمال العدنانيون نسبة إلى عدنان بن إسماعيل ـــ عليه السلام ـــ ،وعرب الجنوب القحطانيون نسبة إلى قحطان بن عابر[(3)]،فإنهم يؤكدون أن صنهاجة من العرب القحطانية .

وأول من نادى بهذه النظرية هو النسابة الشهير بابن الكلبي المتوفى سنة204هـ/819م،الذي ذكر أن أحد أحفاد إفريقش بن وائل خرج غازيا إلى بلاد المغرب ،ولما توغل فيها اختط " إفريقية" المنسوبة إليه وخلّف بها من قبائل حمير وزعمائها صنهاجة وكتامة ،ليردوا البربر على شاكلتهم ويأخذوا خراجهم ويدبروا أمرهم.

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، ص:152.

(2) للإستزادة انظر: جمهرة اللغة ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي ،دار العلم للملايين ،بيروت، 1987،ص:249.الأنساب ، ج3، ص:560،اللباب ، ج2، ص:249، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ،ج2، ص:271،صبح الأعشا في صناعة الإنشا ، دار صادر، بيروت، 1915، ج5، ص:362.

(3)أبو عمرو يوسف بن عبد الله بن الحسن بن إبراهيم بن عبد البر ،الإنباه على قبائل الرواة ،دار الكتاب العربي ،بيروت، 1985،ص:16، 26ويضيف ابن حزم ،المصدر السابق، ص7، فرعا ثالثا يعرف بقضاعة.

وعلى الرغم من اتفاق أصحاب هذه النظرية على الأصل العربي الجنوبي لصنهاجة[1] إلا أنهم يختلفون في الفرع الذي تنتمي إليه من القحطانيين، فقد جعلها ابن الكلبي والطبري[2] من قبائل حمير المنحدرة من نسل صنهاج بن بر بن صوكان بن منصور بن الفند بن إفريقش بن قيس أحد ملوك التبابعة.

وعلى ضوء هذه الرواية أورد ابن شداد [3] نظرية مماثلة على صورة الأسطورة التي تناقلها بعض نسابة المشرق بخصوص غزو إفريقش لإفريقية ، جعل من المثنى بن المسور بطلا لها الذي قدم إلى بلاد المغرب بعد انهزام ملوك اليمن أمام الأحباش ،ويربط ابن شداد نسب أجداده بزناك بن المثنى بن المسور بن يحصب بن مالك وينهيه إلى يشحب بن يعرب بن قحطان بن عابر.

في حين يرقى ابن النحوي مؤرخ صنهاجة بالأندلس ــ في رواية منفردة ــ بأصل صنهاجة إلى فرع عربي موغل في القدم من ولد صنهاج بن المثنى بن المسور بن مصباح بن يحصب بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر بن سبأ[4].

ب ــ التيار الثاني:

يتزعم هذا التيار النسابة " ابن حزم "[5] والمؤرخ النسابة " ابن خلدون" [6] اللذان يرجحان بأن صنهاجة قبيلة بربرية برنسية تنحدر من ولد صنهاج بن عامر بن زعزاع بن قيما بن سدور بن صولان بن مصلين بن يوين بن مصراييم بن حام بن نوح عليه السلام، ومن ثم فهما ينفيان النسب العربي اليميني لصنهاجة لعدة أسباب:

ــ أن النسابة لا يعلمون بوجود ابن لقيس عيلان اسمه بر أصلا، وأن إفريقش لم يغزو إفريقية إلا في أساطير مؤرخي اليمن [7] .

ــ أن صنهاجة وجدت نفسها بدافع المصلحة ملزمة بإدعاء النسب العربي حتى تجد لها مكانا مرموقا في الحياة السياسية بالمغرب الإسلامي ، لاسيما أن ظهورها على مسرح الأحداث لــم يتجل إلا مع مطلــع

---

(1)الإدريسي: المصدر السابق، ص:125، السمعاني ،المصدر السابق، ص:365،ابن خلكان،المصدر السابق، ج2، ص:271، مفاخر البربر، ص:209، القلقشندي ، صبح الأعشا ، ج5، ص:362، روجي إدريس ،المرجع السابق، ج1، ص:34-35، القادري بوتشيش،المباحث،ص:12 وما بعدها.

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:152.

(3) أبو عبد الله عماد الدين محمد العماد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصرــ قسم شعراء المغرب والأندلس ــ ، تحقيق:محمد المرزوقي وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس ، 1971، ج1، ص:141 ،ابن الأثير ، الكامل ، ج7، ص:47 ،النويري،المصدر السابق، ص:300.

(4) ابن خلدون، العبر، ج6، ص:152.

(5) الجمهرة ، ص:495.

(6) العبر، ج6، ص:152.

(7)ابن حزم، المصدر السابق، ص:495.

القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي.[1]

ـــ أن مواطن صنهاجة قريبة من البربر وأنها تشترك معهم في لهجات أعجمية بعيدة عن اللسان العربي.

وقد لخص ابن خلدون[2] طرح هذا التيار في قوله:" **فالحق الذي شهدت به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة البربر في صنهاجة وكتامة ،وعندي أنهم من إخوانهم**" .

وبين هذا الرأي وذاك فإن أعيان صنهاجة[3] وأمراءها وعلماءها كثيرا ما كانوا يصرون على النسب العربي لصنهاجة ولا يرضون عنه بديلا، فهذا عزالدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد حفيد الأمير تميم بن المعز بن باديس في تاريخه المسمى " **الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان** " يؤكد أن نسبه ونسب أجداده يتصل بحمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر من عرب الجنوب.[4]

كما افتخر المنصور الزيري[5] بنسبه الحميري في خطابه الذي ألقاه على أعيان صنهاجة بأشير عند توليه الإمارة حيث قال :" **إن أبي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر وأنا لا أخذ أحدا إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يولي بكتاب ويعزل بكتاب ،ولا أشكر على هذا الملك إلا الله سبحانه وتعالى، لأني ورثته عن أبائي وأجدادي الذين ورثوه عن أبائهم وأجدادهم حمير...**".

وهذا الشيخ الصالح المفتي أبو عمرو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي يقر لما سئل عن نسبه أنه ينحدر من قبيلة صنهاجة الحميرية القحطانية.[6]

وفي السياق نفسه فقد اعترف الفاطميون أنفسهم بالنسب العربي لصنهاجة ، فما أن سمع الخليفة القائم بن المهدي بنبأ بناء زيري بن مناد لمدينة أشير حتى بارك له هذه الخطوة ،وقال :" **مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر**"[7] .

وعلى الرغم من كل هذه الإعترافات إلا أن الدارس لا يمكنه أن ينساق وراءها كلية، لاسيما أنها تسعى في معظمها إلى إضفاء نسب شريف على صنهاجة يرقى إلى مستوى المكانة السياسية والعسكرية

---

(1) سعد زغلول، المرجع السابق، ج3، ص:293.

(2) تاريخ الدول ، ج1، ص:117.

(3) يميز ابن حوقل بين طبقيتين من صنهاجة: الصنهاجيون الخلص ،والصنهاجيون الأخلاط الضاربون في الصحراء بين بلاد الزنج والحبشة،وهم بنوتانماك ملوك تادمكة ،ويرجح البعض أنهم زنوج أبيضت بشرتهم بفعل الطقس ،وينحدرون من أمهات زنجيات، غير أن البعض الآخر ينفي هذا الطرح ويؤكد نسبهم الصنهاجي .كما يميز ابن حوقل في موضع آخر بين صنهاجة الكفار وصنهاجة المسلمين ، أنظر: صورة الأرض ، ص:102-103.

(4)النويري، المصدر السابق، ص:300.

(5) المصدر نفسه، ص:317

(6) مفاخر البربر ، ص:209.

(7)النويري، المصدر السابق، ص:304-305.

والإجتماعية التي صارت تتمتع بها في كامل بلاد المغرب، قصد إكساب سلطتهم صبغة شرعية وهيبة لضمان ولاء المغاربة لهم.[1]

وحتى أن إقرار الخلافة الفاطمية بالنسب الحميري لصنهاجة يحتاج إلى تحفظ،ذلك أنها تضايقت من تحركات زناتة وتحرشاتها على حدودها الغربية فتبنت ادعاء الصنهاجيين للنسب العربي وباركت بناءهم لأشير ،حتى يكونوا يدا لهم على الزناتيين وحصنا منيعا لصد زحفهم نحو الشرق لاسيما بعد تحالفهم مع أمويي الأندلس.

2- بطون قبيلة صنهاجة :

تعد قبيلة صنهاجة من أقدم قبائل بلاد المغرب، ويذكر بعض الجغرافيين أن اسمها اقترن بقبيلة أخرى تعرف بـــ"Zanagus "[2]،وهي من أوفرها عددا وأكثرها سعة وانتشارا في كامل سهول وجبال وتلول وحتى أقاصي صحراء بلاد المغرب ،حتى زعم البعض أنها تمثل ثلث البربر.[3]

وتضم صنهاجة بطونا كثيرة ادعى بعضهم أنها تراهق سبعين بطنا[4]،منتشرين أوزاعا في كامل المنطقة،وسنحاول من خلال هذه الدراسة أن نلقي نظرة شاملة على أهمها حسب ما أوردته المصادر التاريخية وكتب الجغرافيا والرحلة[5] ،وما توصل إليه بعض الدراسين المحدثين في هذا المجال، زيادة على بقايا هذا القبيل الذي مازالت آثاره إلى يومنا هذا ،مع التركيز على " **صنهاجة المغرب الأوسط**" موضوع دراستنا.(أنظر الملحق رقم 09)

---

(1) سعد زغلول ، المرجع السابق، ج3، ص:322-323.

(2)يرى بعض الدارسين والمؤرخين المحدثين أنه توجد علاقة وطيدة بين مصطلحات " زناجة **Zanaga**، **صنهاجة senhaga**، **سينغال sénégale**"، وأنها مشتقة من أصل واحد مع بعض التحريف ، لاسيما أن مواطن صنهاجة الجنوب قريبة من منطقة السنغال. أنظر :
A.Bel :les Benous Ghanya, Ernest edition, Paris.1903.p :5-6 ,M.Cohen , "Snaga- Senhaga –Sénégale", B .E.A ,n°38 Alger ,1948,p :235

(3) ابن خلدون، العبر، ج6،ص:152.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) صنف ابن خلدون طبقات صنهاجة حسب الظهور التاريخي إلى ثلاث فئات : الطبقة الأولى وتمثلها قبيلة **تلكاتة** بإفريقية والمغرب الأوسط،والطبقة الثانية ويتزعمها بطن **لمتونة** بقلب الصحراء و تعرف بـ" **صنهاجة الجنوب**" ،أما الصنف الثالث فيعرف بـــ" **صناكة** " وانتشرت بطونه شمال المغرب الأقصى ،وينقسم بدوره إلى ثلاث أقسام : **صنهاجة العز** ، **صنهاجة البز** ، **صنهاجة الذل**. العبر،ج6،ص:152، ابن منصور ، المرجع السابق، ج1، ص:329.

أ- تلكاتـــة:

أكبر بطون صنهاجة ، من ولد تلكات بن كرت، وكانت لهم الزعامة على سائر بطون صنهاجة الشمال،كما للمتونة سلطة على سائر فروع الملثمين.[1]

ولعل أعظم فروع تلكاتة بنو مناد بن منقوش ،ويذكر النويري [2] أنهم وفدوا على المنطقة بعد أن هزم ملوك حمير أمام الأحباش، بتحفيز من كاهن أخبرهم بأنه سوف يدرك ولدهم ملكا عظيما فاختاروا المغرب الأوسط وإفريقية مستقرا لهم.

وإلى تلكاتة آل ملك الفاطمين ببلاد المغرب بعد رحيلهم إلى مصر سنة 362هـ/972-973م، ثم انشطروا إلى ثلاث إمارات[3]: الإمارة الزيرية بإفريقية وشرق المغرب الأوسط(362-543هـ/973-1148م) وعاصمتها القيروان،ومن أشهر أمرائها:بلكين بن زيري مؤسس الدولة (362-373هـ/973-984م)،والمنصور ابن بلكين (374-386هـ/984-996م)،والمعز بن باديس(406-453هـ/1016-1061م) الذي أبدى مهارة كبيرة في تسيير شؤون دولته.

والإمارة الحمادية بالمغرب الأوسط (398-574هـ/1007-1152م) وعاصمتها أشير ثم القلعة فبجاية الناصرية ،وعلى عهد ها عادت تلكاتة إلى حاضرة المذهب السني تحت لواء العباسيين ،واستمر ملكها حتى سنة 547هـ/1152م حيث سقطت على يد الموحدين ،وأشهر أمرائها:مؤسسها حماد بن بلكين(398 هـ-419هـ/1007-1028م)،والناصر بن علناس (454هـ-481هـ/1062-1088م) الذي اختط مدينة بجاية والمنصور بن الناصر (481-498هـ/1088-1104م) الذي بلغت الدولة في عهده أوج إزدهارها.

كما انتقل أوزاع من التلكاتيين[4] إلى شبه جزيرة إيبيريا وأسسوا إمارة " غرناطة" التي ظلت آخر معقل للمسلمين صمد أمام حملات " الإسترداد" التي جردها النصارى على المسلمين حتى سقطت سنة 857هـ/1492م وأشهر أمرائها:حبوس بن ماكسن الصنهاجي (429هـ/1037م)،وباديس بن حبوس الذي

---

(1)ابن خلدون، العبر ، ج6،ص:159.

(2)نهاية الأرب، ص:300-301.

(3) كثيرة هي الدراسات التي اهتمت بالإمارات التي أنشأها الصنهاجيون منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ،أهمها: إسماعيل العربي، دولة بني زيري ــ ملوك غرناطة ــ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1982 ،ودولة بني حماد ــ ملوك القلعة وبجاية ــ، ورشيد بورويبة ، الدولة الحمادية ــ تاريخها وحضارتها ــ ، بالإضافة إلى الدولة الصنهاجية " لهادي روجي إدريس ودراسة لوسيان غولفن حول المغرب الأوسط في العهد الزيري التي تمت الإشارة إليها في المقدمة.

(4) اختلفت المصادر حول أفراد بني زيري الذين هاجروا إلى الأندلس ببنيهم وعبيدهم وأموالهم ، فيحصرهم ابن عذاري ، المصدر السابق،ج1،ص:269 في زاوي وجلالة وماكسن إخوة بلكين ،ويتفق معه ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج1، ص:142 ، في حين يذكر ابن خلدون ، العبر ،ج6، ص:179، أن زاوي رحل إلى الأندلس "...في بنيه وبني أخيه (ماكسن) وحاشيته ، ونزل على المنصور بن أبي عامر...".

خلفه بعد وفاته ابن أخيه عبد الله بن بلكين (456-483هـ/1063-1090م) آخر ملوك غرناطة الزيرية التي انتزعها منه المرابطون سنة 483هـ/1090م)[1].

ومن آثار تلكاتة القلعة المنادية بإقليم سجلماسة التي اتخذها مناد بن منقوش قاعدة لمناجزة زناتة والحد من تحرشاتها المستمرة على مضارب قبيلته[2]،إضافة إلى حواضر ضخمة بالأندلس والمغرب الأوسط،والتي شكلت إحدى أكبر مراكز الإشعاع العلمي والحضاري بالمنطقة كلها ،مثل :**أشير بجاية، القلعة ، غرناطة...**

وقد اشتهر بعض أمراء تلكاتة إلى جانب دهائهم السياسي وإتقانهم لمختلف الفنون الحربية بنبوغهم في مجال العلم والأدب،منهم: الأمير عبد الله بن بلكين التلكاتي صاحب غرناطة الذي عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ،واهتم بالأدب والشعر وعلم الفلك[3] ،ومن مؤلفاته " كتاب التبيان " الذي حققه ليفي بروفنسال" Lévi Provançal ".

وإلى تلكاتة ينتسب جم غفير من فطاحل العلماء والفقهاء والأدباء والمؤرخين ،اشتهر منهم: والأمير أبو يحي تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي المتوفى سنة501هـ/1107م[4] ، الذي كان أديبا وشاعرا فحلا،له ديوان ضخم ضمن الأصفهاني كتابه الموسوم " خريدة القصر وجريدة العصر" كثيرا من أشعاره.[5]

إلى جانب الأديب المؤرخ عز الدين محمد عبد العزيز بن شداد بن المعز بن باديس الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ،ومن مؤلفاته " كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان"،وعنه نقل كثير من المؤرخين والنسابة أخبارهم ،كابن الأثير وابن حماد والنويري[6]. و يحي بن علم الملك حفيد الأمير تميم بن باديس المشهور بابن النحاس المتوفى سنة 589 هـ/1193م وكان من أعيان الدولة الأيوبية بمصر وبلاد الشام.[7]

---

(1)مفاخر البربر ، ص:191.

(2) البكري ، المصدر السابق، ص:137.

(3)الأمير عبد الله ، المصدر السابق، ص: 180-181 ، مفاخر البربر ،ص:191

(4)أنظر ترجمته في : الكامل ، ج7،ص:277 ، وفيات الأعيان ، ج5، ص:233 ،نهاية الأرب، ص:348 ، العبر،ج6، ص:160.

(5)العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ح1، ص:300-301.

(6)الجمهرة ، ص:495 ، نهاية الأرب ، ص:300

(7)السخاوي ، المصدر السابق، مج5، ص:251.

ب ــ مزغنة [1] :

عرفت لدى بعض الرحالة والجغرافيين بـــ" **مزغنى**" أو " **مزغناي**"أو " **مزغنا**" أو " **مزغنان** "،وهي من أشهر بطون صنهاجة بالمغرب الأوسط ، تمتد أراضيها من غربي حمزة إلى غرب الجزائر قبل تأسيسها،والتي إقترن اسمها فيما بعد بهذه القبيلة " **جزائر بني مزغنة** ".

وما تزال إحدى البطون المندمجة في قبيلة بني سليمان الشراقة تحتفظ بنفس الاسم القديم للقبيلة،وتنتشر بقاياها اليوم على العدوى اليمنى لوادي يسر على بعد 30كلم من مدينة الأربعاء غربي العاصمة.[2]

وإلى المدينة التي عمرتها قبيلة مزغنة ينتسب كثيرا من أعلام الفكر والفقه والأدب،منهم : الحافظ عثمان بن سليمان الجزائري المتوفى سنة825هـــ/ 1421م الذي كان متضلعا في الفقه،واعترف له ابن حجر العسقلاني بالفضل والعلم[3] ،إلى جانب أبو زيد عبد الرحمن محمد الثعالبي[4] المتوفى سنة875هـــ/1470م،الذي نبغ في الفقه وعلوم القرآن والتصوف والتاريخ،ومن مؤلفاته "جامع الهمم في أخبار الأمم" و" كتاب الإرشاد في صالح العباد"[5] .

دون أن ننسى الفقيه المحدث والأديب الشاعر المفتي أبي عثمان سعيد بن إبراهيم المشهور بقدورة المتوفى سنة1066هـــ /1656م.[6]

ج ــ بجايـــة :

بجاية بكسر الميم ، اسم قبيلة صنهاجية ،مضاربها الأصلية بالمناطق الجبلية الواقعة غرب واد الصومام[7]،ولها منفذ إلى البحر المتوسط عبر مرسى قديم لهذه القبيلة،وبساحلها اختط الأمير الحمادي

---

(1) حول التسميات التي أطلقت على قبيلة مزغنة أنظر : ابن حوقل، المصدر السابق، ص:77، المقدسي ، المصدر السابق، ص:189، ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج2،ص:132، الإستبصار، ص:170، الحميري ، المصدر السابق، ص:167، ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:153، ولا يستبعد أن تكون هذه التسمية تحريف للكلمة البربرية " ايمازيغن" بمعنى الأمازيغ. أنظر:

Benachenhou (A) , Hessen Ben Mohamed El Ouazzane (Léon L'Africain), L'Algérie en 1515, Alger ,1969,p :156.

(2) ابن منصور ، المصدر السابق،ج1، ص:324.

(3)الكتاني ، المصدر السابق،ج2،ص:156.

(4)ولد سنة 758هـــ/1384م بوادي يسر،ويتصل نسبه بجعفر بن أبي طالب ، أنظر سيرته في: الكتاني ، المصدر السابق ، ج2،ص:732،مولاي بلحميسي، "مدينة الجزائر من خلال النصوص العربية والأجنبية"، مجلة الأصالة، ع:3، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1972، ص:86.

(5)الكتاني ، المصدر السابق،ج2،ص:732.

(6)المصدر نفسه، ج2،ص:156.

(7)ابن خلدون، العبر، ج6،ص:156.

الناصر بن علناس مدينة " الناصرية" سنة460هـ/1067م،إلا أنها اشتهرت باسم بجاية نسبة إلى القبيلة،وإليها انتقلت عاصمة الحماديين من القلعة [1].

ومن بجاية ينحدر بطن بني وركايل الضاربين بالقرب من "ملالة" الموضع الذي التقى فيه المهدي محمد ابن تومرت عبد المؤمن بن علي الكومي ،وبها اتفقا معا على مباشرة الدعوة الموحدية التي انبنت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2] .

ومن بقايا بجاية اليوم فرقة بين وادي الصومام وتيزي وزو[3] ، وأخرى بإفريقية تحمل اسم" بجاوة" التي من المرجح أنها مشتقة من الإسم الأصلي للقبيلة.

وتجدر الإشارة إلى أن بجاية المدينة عندما تحولت إلى عاصمة للدولة الحمادية إستبحر عمرانها وقصدها العلماء والفقهاء من القاصية، وصارت من أكبر مراكز الإشعاع العلمي والحضاري ،وغالبا ما استعمل مصطلح " البجائي " للتدليل على الإنتساب للمدينة.

ومهما يكن من أمر فإلي بجاية المدينة ينتسب علماء وفقهاء وشعراء سطع نجمهم في المشرق والمغرب، أمثال : **أحمد بن عبد القوي بن محمد بن عبد القوي البجائي** الأصل المكي المولد، وكان له تضلع كبير في الفقه المالكي.[4]

والشيخ الحافظ أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف المجلاتي ،وكان متضلعا في الفقه مستبحرا في حفظ المسائل والفروع ،ولي قضاء بجاية ،كما كان له حظ من الأدب وإسهاما في فنون العلم،وقد توفى سنة730هـ/1329م[5] .

إلى جانب علي بن موسى البجائي أحد شيوخ القطب سيدي عبد الرحمن الثعالبي،وكان إماما فقيها سطع نجمه في الأصول والحساب،كما كانت له مسائل في الفنون،واشتهر بحسن خطه وكثرة تقليده،توفى سنة816هـ/ 1413م.[6]

---

(1)يعرف أيضا بوادي " الساحل" ،ينبع من جبال البيبان ،ويرفده وادي بوسلام ،ويشتد انحداره عند حمزة ويصب في خليج بجاية. أنظر: حليمي، المرجع السابق، ص:166.

(2) أبو بكر علي البيذق الصنهاجي ،كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ،تحقيق :عبد الحميد حاجيات ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974،ص:52.

(3)ابن منصور، المصدر السابق، ج1،ص:330.

(4)السخاوي ، المصدر السابق، ج5، ص:362.

(5) الكتاني ، المصدر السابق، ج2،ص:532.

(6)المصدر نفسه، ج2، ص:90

ولا يمكن لدارس تاريخ بجاية وأشهر رجالاتها أن يتجاهل العالم الحافظ أبا القاسم محمد عبد الصمد البجائي صاحب "تكملة حاشية المدونة " للوانوغي ، وكانت منزلته ببجاية تعادل مكانة البرزلي بإفريقية.[1]

د- مليانة :

من فروع صنهاجة الشمال بالمغرب الأوسط ،وبأرضها اختط الأمير بلكين بن زيري بأمر من والده زيري بن مناد مدينة جديدة على أنقاض المدينة الرومانية ونسبها إلى قبيلة " مليانة " على الضفة الشرقية لوادي شلف ، ثم جعلها عاصمة له.[2]

وتوجد بقايا مليانة اليوم مندمجة ضمن كثير من قبائل المغربين الأوسط والأقصى،وإليها تنسب مدينة مليانة على سفح جبل زكار[3]غرب جزائر بني مزغنة.

وقد اشتهر من المليانيين نخبة كبيرة من العلماء والفقهاء والمتصوفة ـــ ولو أن جلهم ينتسب إلى مليانة المدينة ـــ منهم: أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الجبار الملياني، وكان متضلعا في الفقه واللغة العربية وأصول الدين ، ثم رحل إلى إفريقية ولازم مجلس أبي زكرياء الحفصي (الأمير) حتى وافته المنية سنة 644هـــ/1246م[4] .

كما نبغ منهم ابن الأساطير أبو الحسن علي بن عمران بن موسى الملياني المتوفى سنة(670هـــ/1271م)، الذي برع في الفقه وأصول الدين والتصوف، وجلس للتدريس ببجاية إلى أن توفى بها[5] .

ومن أهل مليانة من ذاع صيته في التعبد والزهد والتصوف يترأسهم أحمد بن يوسف الملياني الأصل ، الذي تعلم بالمدرسة السنوسية بتلمسان ،وبعد عودته من رحلته العلمية إلى المشرق صار مقدما للطريقة الشاذلية بالمنطقة ، فسمى أتباعه بـــ" **الفقراء** " وادعى أنه نائب رسول الله r ، وأنه يراه في اليقظة كما في المنام ، فتعرض لمضايقات شديدة واتهمه علماء بني عبد الواد بالكفر، وعاش في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[6] .

---

(1) الكتاني ، المصدر السابق،ج2، ص:32.

(2)ابن خلدون، العبر ، ج6، ص:154.

(3)البكري، المصدر السابق، ص:61 ،ورد هذا الإسم عند ابن خلدون تحت اسم " **زكارة**" العبر ، ج6، ص:154، وعند صاحب الاستبصار باسم " **نكار**" ، المصدر السابق، ص:171.

(4)الغبريني ، المصدر السابق، ص:188-189.

(5)المصدر نفسه، ص:228

(6) عبد الكريم بن الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعي الولاية ، تحقيق: أبو القاسم سعد الله،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1987،ص:112. الناصري السلاوي ، المصدر السابق، ج5، ص:51، الحفناوي ، المصدر السابق، ص:103.

هـــ ـــ المديـــة :

لامها أصلية كلام لمتونة ولمطة ،ويسميها ابن خلدون[1] " **لمدونة** "،أما المؤرخون الأروبيون فيحذفون عنها الألف واللام فتصبح " مدية Média" ،وهي من أشهر بطون صنهاجة المغرب الأوسط.

وبأرض المدية اختطّ الأمير بلكين بن زيزي التلكاتي مدينة حملت نفس اسم القبيلة[2]،وجعلها همزة وصل بين أشير وجزائر بني مزغنة ،وقاعدة لمراقبة تحركات القبائل المجاورة.[3].

وما تزال هذه القبيلة إلى يومنا هذا تشغل مدينة المدية الواقعة على بعد **55** ميلا من جزائر بني مزغنة،إلا أنها على عكس بجاية وسوق حمزة فقد تعرب كثير من أهلها ،وفقدوا قسطا كبيرا من تراثهم الصنهاجي بفعل احتكاكهم بالمناطق المجاورة .

وـــ بطيوة :

تعرف بـــ" **بطوية**" أيضا ،وكان موطن جمهورها بالمغرب الأقصى في إقليم الريف ،ومن بقاياهم بالمغرب الأوسط فرقة تقيم قرب أرزيو غرب وهران تحمل نفس اسم القبيلة[4]،ويبدو من خلال إشارة البكري[5] إلى وجود رباط بأحواز صفاقس يعرف بـــ" ***محرس بطوية***" أن هناك أوزاعا منهم إنتقلت إلى إفريقية.

ومن أعلام بطيوة **محمد بن عيسى** الذي عاش في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي، وتتلمذ على يد **المقري وابن مريم** ،ومن مؤلفاته " **مطلب الفوز**"[6] ، إضافة إلى **محمد بن عيسى البطوي** التلمساني الفقيه المالكي المتضلع في علم الحديث، الذي عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.[7]

زـــ وانوغة :

(1)العبر ، ج6، ص:154

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) البكري، المصدر السابق، ص:65.

(4) ابن منصور، المرجع السابق، ج1، ص:330

(5) المغرب، ص:20

(6) ابن مريم ،المصدر السابق، ص:272.

(7) المصدر نفسه ، ص:51، الحفناوي ، المصدر السابق، ص:74.

تعرف أيضا بـــ" **أنوغة** " بحذف الواو ،وإليها تنسب جبال "**وانوغة** " بالقرب من سور الغزلان، وتوجد بقاياها اليوم قرب مدينة الجزائر مندرجين في عدة قبائل ،كقبيلة بني مكلا قرب وادي يسر.[1]

ومن مشاهير أعلامها **أبو عبد الله محمد بن موسى بن عائد الوانوغي** المالكي ، استقر بمكة ولزم رباط "**الموفق**"بها،واشتهربالتعبد والتواضع والإكثار من عمل الخير ،وظل كذلك حتى توفي سنة827هـــ/1423م.[2]

ويوسف بن إبراهيم الوانوغي الحنفي الذي نبغ في العلوم الدينية كالحديث والفقه وعلوم القرآن ، ثم رحل إلى دمشق واشتغل بوابا في بعض طواحينها ، فتسامع به الناس وقصدوه وأخذوا عنه مختلف فنون العلم، ومن مؤلفاته " **شواهد الزجاج**" [3]، دون أن ننسى الفقيه المالكي الشهير "**بالوانوغي** "الذي شرح مدونة الفقه المالكي.[4]

ح ــ متنان :

من فروع صنهاجة بالمغرب الأوسط ، تركزت مواطنهم الأصلية حول عين بسام على وادي السفلات أحد روافد وادي يسر، كما أشار البكري[5] إلى فرقة منهم إستقرت بين طنجة وسبتة.

وإلى متنان ينتسب **منصور بن محمد بن عبد العزيز بن سليمان بن عمر** المالكي المولود سنة865هـــ/1460م، الذي ارتحل إلى بجاية وتتلمذ على يد **اللحام وسليمان بن يوسف الحسناوي**، وسطع نجمه في الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق والفرائض والحساب.[6]

ومن أهل متنان من نبغ في الأدب ،منهم الشيخ الصالح **خليفة بن عبد الرحمن بن خليفة بن سلامة المالكي** الذي حفظ الألفية عن صاحب " **الضوء اللامع** "،وزار المشرق ونهل من نور مراكزه العلمية خاصة مكة والقاهرة.[7]

ط ــ صنهاجة[1] :

(1) لقبال ، المرجع السابق، ص:90.
(2) السخاوي،المصدر السابق، مج5، ص:228.
(3) المصدر نفسه،مج5، ص:293.
(4) لقبال ، المرجع السابق، ص:190.
(5) المغرب، ص:108.
(6) السخاوي ، المصدر السابق، مج5، ص:172.
(7) المصدر نفسه،مج5، ص:186 -187.

ظلت بعض بطون صنهاجة محافظة على الإسم الجامع العام للقبيلة ،منهم الفرقة الضاربة على ضفة الوادي الكبير[2] بين بونة وسكيكدة شرق المغرب الأوسط، وفرقة أخرى على وادي يسر جنوب شرقي جزائر بني مزغنة.[3]

ي ـــ ملوانة :

تعرف بـــ"**إيملوان** " بالبربرية ،وهي من أكبر بطون **صنهاجة القِبلة**[4]،وتتركز مواطن جمهورهم في المغرب الأقصى بإقليمي الرباط وورزازات ،ومنهم أوزاع بالمغرب الأوسط مندرجين ضمن قبيلة بني مسيسرة[5]،ومازالت الحمامات المعدنية التي إشتهرت بها بلادهم تحمل نفس الاسم على بعد 45كلم جنوب جزائر بني مزغنة.

ك ـــ بنو دركون :

يعرفون كذلك **ببني دركول** ،ويضربون في ناحية زمورة قرب مدينة غليزان ،كما توجد بطون منهم مندرجين ضمن بعض القبائل شمال المغرب الأقصى[6].

ل ـــ بنو عمران :

(1)توجد بالمغرب الأقصى أيضا قبائل كثيرة مازالت تحتفظ بالإسم الجامع لقبيلة صنهاجة ،غير أنها تنقسم إلى ثلاثة أصناف: **صنهاجة غدو** بإقليم تازة وهم أهل مدر، **وصنهاجة السراير** بإقليم الحسيمة وتضم عد ة بطون أشهرها : **بنو سدات، بنو بشير بنو زرقت ،وصنهاجة مصباح** شمال إقليم فاس، وتنقسم بدورها إلى: **صنهاجة الشمس وصنهاجة الظل** . ابن منصور، المرجع السابق، ج1، ص:329. ويبدو أن هذا التقسيم ما هو إلا أثار للتقسيم الذي كان سائدا في عهد ابن خلدون ، فقد كانت صنهاجة وقتئذ تتفرع إلى: **صنهاجة العز كبني زروال** الضاربين على وادي ورغة،**وصنهاجة البز** حول واد ورغة، واشتهرت **بالحياكة** ومنها **بطن فشتالة ،وصنهاجة الذل** ويقيم جمهورها حول مدينة آزمور ، ومن أشهر فروعها **قبيلة بطوية** .العبر، ج6ص:206.

(2) يعرف أيضا بوادي " **الرمل** " أو **وادي المساقة**" قديما ، طوله 250كلم ،ويأخذ منابعه من مضارب **فج مزالة** إلى أن يصل إلى إقليم قسنطينة ويصب في البحر الأبيض المتوسط . حليمي ،المرجع السابق، ص:66.

(3)موسى لقبال، المرجع السابق،ص:82.

(4) أدرج ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:206 ، معظم **بطون ملوانة** خاصة الضاربين بالمغرب الأقصى ضمن **صنهاجة البز** ، في حين جعلها صاحب كتاب الأنساب ضمن بطون **صنهاجة القبلة** .أنظرأيضا: لقبال، دور كتامة، ص:87.

(5) ابن منصور، المرجع السابق، ج1، ص:321.

(6)لقبال، دور كتامة،ص:90.

توجد منهم بالمغرب الأوسط خمسة بطون تقيم جميعها شرق المنطقة ، منهم بنو عمران الضاربون على العدوة الغربية لوادي يداس على بعد18 كلم من بجاية،واستقرت فرقة منهم قرب برج منايل وتيزي وزو شرق بني مزغنة ،وسكنت فرقة أخرى منطقة الأربعاء قرب وادي يسر ،كما وجدت أوزاع لبني عمران **السفلية** قرب مرسى جيجل ،إلى جانب بني عمران **الجبالة.**[1]

م ــ بنو وارث:

يعرفون أيضا باسمهم البربري " **بني وارثن**"، مواطنهم الأصلية بناحية بجاية بقرية تعرف بإسمهم " **آيت وارث وأعلي**"[2]،كما عثر على أحد فروعها بين تامدلت وأودغست ،وفي الطريق بين درعة والصحراء مندمجين في قبائل صنهاجة الجنوب[3].

ن ــ بنو خليل :

اشتهروا أيضا " **ببني خليلي**" ،وتوجد بقاياهم اليوم بين بجاية وتيزي وزو بالمغرب الأوسط[4]، كما أشار الإدريسي[5] إلى بطن يقطن جبال الونشريس تحت اسم " **بني أبي خليلي**" ،الذي يرجح أن يكون من بطون صنهاجة.

س ــ بنو زروال:

كانت مواطن جمهورهم على مشارف وادي " **ورغة**" شمال إقليم فاس[6] ،كما عثر على بعض آثارهم اليوم بالمغرب الأوسط مندمجين في قبيلة **بني ستيتين** بالبيض في الجنوب الغربي للمنطقة.

ع ــ بنو جعد:

(1) لقبال ،دور كتامة ، ص:89.
(2) ابن منصور ، المرجع السابق ، ج1،ص:335.
(3) البكري ، المصدر السابق، ص:157.
(4) لقبال ، دور كتامة، ص:88.
(5) نزهة المشتاق، ص:154.
(6) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:155.

من بطون صنهاجة الشمال الضاربين بالقرب من حمزة وعين بسام شرقي بني مزغنة[1]،وإليهم ينتسب العالم **محمد بن علي الشريف الجعدي** الذي تتلمذ على **محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي** صاحب **"المنح البادية"** ،وعاش في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي.[2]

ف ــ بنو حميد:

لم تبق آثارهم اليوم سوى جنوب شرقي جزائر بني مزغنة مندمجين ضمن قبيلة يسر الغربي ،أو ضمن بطون بني عثمان.[3]

ص ــ بنو سليب:

تركزت مواطنهم الأصلية بأحواز بونة شرق المغرب الأوسط[4].

3 ــ مضارب صنهاجة المغرب الأوسط:

ليس من السهولة تحديد المجال الجغرافي لأية قبيلة، لأنه غالبا ما يكون في مد وجزر تبعا لقوة أو ضعف القبيلة فكلما كانت قوية إتسعت مضاربها وإمتد نفوذها ،وتضمحل وتتقلص وقد تزول وتندثر بضعفها.

وإذا أردنا أن نخص صنهاجة[5] بدراسة هذا الجانب ، فليس من بد أن نقسم مجالها الجغرافي إلى وحدات صغيرة لشساعته وتشعب بطونها ، التي شغلت كامل المنطقة الممتدة من برقة إلى البحر المتوسط، ومن الأندلس إلى بلاد السودان،وتداخل مضاربها بمواطن قبائل أخرى.

وقد إختصت صنهاجة المغرب الأوسط بمضاربها في قلب المغرب الأوسط ، التي جعلها ابن خلدون[6] الموطن الأصلي لكامل صنهاجة الشمال ،وتمتد أراضيها من جزائر بني مزغنة شمالا إلى المسيلة في الجنوب،ومن بجاية شرقا إلى مدينة مليانة عند منعطف وادي شلف غربا.

---

(1) ابن خلدون ، العبر ،ج6، ص:156.

(2)السخاوي ، المصدر السابق، مج2،ص:541.

(3) ابن منصور ، المرجع السابق، ج1، ص:334.

(4)ابن خلدون ، العبر ج6، ص:152-153.

(5) بالإضافة إلى المواطن الأصلية لصنهاجة المغرب الأوسط ، تركز الصنهاجيون في: المنطقة الممتدة ما بين البحر المتوسط ونهر كرط إلى بلاد غمارة وشمال المغرب الأقصى،والمحور الممتد من وادي درعة إلى المحيط الأطلسي والسفوح الخلفية لجبال الأطلس ،والصحراء الكبرى من غدامس إلى المحيط الأطلسي ،وتمتد حتى بلاد السودان جنوب الصحراء.أنظر: المصدر نفسه، ج6، ص:152، 181.

(6) وعيب هذا التحديد أنه يترك الحد الشرقي لبلاد صنهاجة دون توضيح ،لكن بما أنه يشير في موضع آخر بأن جبال زواوة تدخل ضمن مضارب كتامة فيمكن أن نعتبر هذه الكتلة حدا فاصلا بين مضارب القبيلتين. أنظر: المصدر نفسه، ج6،ص:151.

إلا أن بطون هذا الفرع تفرقت أوزاعا في كامل بلاد المغرب الأوسط وإفريقية ، فقد إنتقلت بطون منهم مع بني زيري إلى القيروان[1]،وآخرون إلى القلعة وبجاية رفقة بني حماد ، في حين شدت فرقة ثالثة الرحال إلى الأندلس وشيدت إمارة غرناطة.[2]

ولصنهاجة بالمغرب الأوسط حواضر كبرى يشرف بعضها على الساحل المتوسطي ،وينتشر البعض الآخر عبر تلول وجبال بلاد صنهاجة(أنظر الملحق رقم 10) ،وسنعرج في هذا الموضع على أكثرها ذيوعا وأوفرها عددا وأعظمها إسهاما في صنع المجد السياسي والعسكري لقبيلة صنهاجة.

أ. أشير:

(أ-1) ــ أسباب إختطاط المدينة:

لقد إستدعى احتدام الصراع المذهبي والسياسي بين الفاطميين والأمويين والتنامي المستمر لقوة قبيلة صنهاجة ، تأسيس قاعدة حصينة لدرء الأخطار الخارجية والذود عن حياض القبيلة والمحافظة على مكتسباتها،وإعدادها لتكون في مستوى الدور الذي ستضطلع به في المنطقة خاصة بعد تحالفها مع الفاطميين،وقد تظافرت عدة عوامل عجلت بالصنهاجيين إلى تأسيس أشير[3] ،منها:

ــ حاجة صنهاجة إلى قاعدة قارة تركز فيها نفوذها ،وما ينجم عنه من إستتباب الأمن والإستقرار الإجتماعي ،ويضمن أثر الإنتصارات العسكرية ،ويعزز مكانة القبيلة.[4]

ــ إستطالة زناتة المستمرة على زروع ومراعي صنهاجة وتهديدهم الدائم لإستقرار أهلها،ومن ثم فقد كان تأسيس أشير لمراقبة تحركاتها وضحد مؤامراتها.[5]

ــ ويفسر ابن خلكان[6] وياقوت الحموي[7] إقدام زيري بن مناد على بناء أشير أنه تمهيد لطلب الإمارة ، سيما بعد إنتصاراته المتكررة وذيوع صيتها بين الناس.

---

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:310.

(2) ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1، ص:269، ابن خلدون ، العبر ،ج6، ص:171.

(3)وإلى أشير ينتسب مجموعة من فطاحل علماء صنهاجة والمغرب الأوسط منهم: **أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري** ، الذي كان في البداية يرعى بعض شؤون دولة عبد المؤمن بن علي الكومي ، ثم ارتحل إلى المشرق واستقر به المقام بحلب إلى أن استدعاه العادل نورالدين محمد بن زنكي فقربه وأكرمه ،وقد توفى ببعلبك سنة 561هـ/1165م. راجع ترجمته في : أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن الآبار ، الحلة السيراء، تحقيق : حسين مؤنس ،ط1 ،القاهرة، 1963، ج2،ص: 237 ،أبو محمد عبد الله بن اسعد بن علي اليمني اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، طبعة بيروت، 1970، ج3،ص:170.

(4) إسماعيل العربي،عواصم بني زيري، ص:14.

(5) النويري، المصدر السابق، ص:304

(6) وفيات الأعيان ، ج2، ص:91

(7) معجم البلدان ، ج1، ص:202.

ــ وقد يكون إختطاط أشير تم بإيعاز من الخلافة الفاطمية التي على الرغم من بنائها لمدينة المسيلة إلا أنها لم تكبح تحرشات زناتة على حدودها الغربية،فإرتأت إنشاء قاعدة ثانية تستند إلى عصبية قوية ، بدليل مباركتها لبناء أشير ودعمها لزيري بالمهندسين ومواد البناء.[1]

(أ-2) ــ مؤسس المدينة وتاريخ إختطاطها:

عدا **الحميري**[2] وصاحب " **الاستبصار في عجائب الأمصار**"[3]، اللذان يذكران بأن "**أشير ...مدينة قديمة فيها آثار عجيبة ،وإنما بنى زيري سورها وحصنها وعمرها...**" فإن جل المؤرخين والرحالة والجغرافيين يجمعون بأن بناء المدينة تم على يد زيري بن مناد بموضع خال[4]،ويستدلون على ذلك بأبيات شعرية نظمها **عبد الملك بن عيشون** يهجو فيها أشير ومؤسسها:

يَا أَيُهَــا السَائِلُ عــن غَرْبنَا[5] **وعَن محَــَــــلّ الكُفرِ أَشِير**

عَن دَارِ فِسقٍ ظَالِم أَهلُــها قَد شُيّدَت للإِفكِ والــزُور

أَسَسَهــا المَلعُــون زِيريها فَلَعــنَة الله علــى زِيــرِي

[من البحر السريع]

وهناك من الرحالة[6] من أشار إلى أن بناء المدينة تم على مرحلتين:

ــ **مرحلة التعمير والبناء** وأشرف عليها زيري بن مناد.

ــ **مرحلة التحصين** في عهد بلكين بن زيري ــ نائب الفاطمين على إفريقية والمغرب ــ الذي أحاطها بسور عظيم.

أما عن تاريخ إختطاط المدينة فقد إنقسم بشأنه الرحالة والمؤرخون إلى فريقين : فريق ذكر بأن أشير شيدت سنة 324هـ/935م ومنهم **النويري**[7] **وابن خلكان**[8]،وفريق آخر أدرج هذا الحدث ضمن وقائع سنة364هـ/974-975م،وانفرد بهذا الطرح صاحب " **الكامل في التاريخ**"[9] .

---

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:304-305

(2) روض المعطار، ص:60.

(3) مجهول ، ص:170

(4) البكري ، المصدر السابق، ص:60، ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج1، ص:202، الحميري ، المصدر السابق، ص:60، ابن خلدون، العبر، ج6،ص:153-154.

(5) ورد الشطر الأول من البيت الأول عند ابن عذاري بهذا الشكل" **يا أيها السائل عن حربنا**".أنظر:البيان المغرب، المصدر السابق،ج1، ص:216.

(6) البكري، المصدر السابق، ص:60

(7) نهاية الأرب، ص:304

(8) وفيات الأعيان ، ج2، ص:91

(9)ابن الأثير، الكامل ، ج7،ص:47.

ويبدو أن رواية ابن الأثير التي تتفق مع رواية النويري في كثير من أحداثها ـــ لاسيما أنهما يستقيان معلوماتهما من نفس المصدر المنسوب **لابن شداد** ـــ بعيدة عن الواقع السياسي آنذاك لإعتبارات عدة:

ـــ أنه ذكر في معرض حديثه عن صنهاجة أن زيري بن مناد هو الذي أسس مدينة أشير،وفي موطن آخر من روايته يؤكد أن بناء المدينة كان سنة364هـ/974م، على الرغم من أن جلّ المصادر التاريخية تتفق على أن زيري بن مناد لقي حتفه في حربه ضد زناتة في رمضان360هـ/971-972م.[1]

ـــ أن صاحب الكامل أشار إلى أن بلكين خرج في سنة361هـ لحرب زناتة ، فلقي جحافل جيشها بالقرب من تلمسان ، فهابوه وولوه الدبر، فدخل بلكين المدينة ونقل وجوه القوم معه إلى أشير[2]،مما يرجح أن المدينة كانت قائمة على الأقل منذ هذا التاريخ.

ومن كل ما سبق يمكن أن نفسر هذا التناقض الذي تضمنته رواية ابن الأثير في حديثه عن قبيلة صنهاجة بإحتمالين إثنين:

ـــ حدوث سهو من المؤرخ أو الناسخ في تدوين هذا التاريخ إذ أنه لا يوجد فرق كبير ما بين كتابة الرقمين "**٢**و**٦**" بالأرقام الهندية ،ولو غيرنا رقم "**٦** " برقم "**٢**" لحل الإشكال.[3]

ـــ أنه وقع خلط لابن الأثير ما بين زيري بن مناد وابنه بلكين حول اختطاط مدينة أشير،لاسيما وأنه أشار من قبل بأن مؤسسها هو زيري بن مناد،ومن ثم فهو يؤيد طرح البكري[4] بأن المدينة بنيت على مرحلتين.

ونخلص في الأخير إلى أن تشييد أشير كان سنة 324هـ/935م على يد زيري بن مناد،لاسيما أن هناك تطابقا كبيرا بين روايتي النويري وابن الأثير في معرض حديثهما عن تنامي قوة صنهاجة.

(أ-3) ـــ التسمية :

" **أشير**"[5] بكسر ثانيه وياء ساكنة بعد الشين ،اسم أطلق على المدينة التي إستحدثها زيري بن مناد بالمغرب الأوسط ،وتعرف باسم " **ياشير**" باللهجة البربرية ،وتعني " **المخالب**"[6] كناية عن حصانتها

(1) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي بن حيان،المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق:عبد الرحمن علي الحجي،دار الثقافة،بيروت،1965،ج3،ص:37، النويري ، المصدر السابق، ص:308، ابن خلدون،العبر ، ج6، ص:155.

(2) ابن الأثير، الكامل، ،ج7،ص:47، وقد أشرف هؤلاء القوم الذين أجلاهم بلكين إلى أشير على إختطاط مدينة جديدة أطلقوا عليها اسم تلمسان، التي يرجح أن تكون **أشير بلكين** . روجي إدريس، المرجع السابق، ص:95.

(3) بورويبة، أشير،ص:117

(4) المغرب، ص:60، غير أن البكري يضع هذا الحدث ضمن وقائع سنة367هـ/977م.

(5)هي غير **مدينة الياشير** الواقعة على بعد15 كلم من برج بعريريج شرق المغرب الأوسط.

(6)بورويبة ،أشير، ص:117.

وإنقضاضها على كل من سولت له نفسه بمهاجمتها،كما حدث لزناتة عندما إغترت بقوتها وهجمت عليها، وقد أسماها البعض " **أشير زيري**"[1] نسبة إلى مؤسسها زيري بن مناد.

(أ-4) ـــ موضع أشير:

لما أيقن زيري بن مناد بضرورة إتخاذ مركز دائم له تنطلق منه حملاته العسكرية ،خرج يرتاد موضعا إستراتيجيا لبناء مدينته حتى إنتهى إلى الموضع الذي بنيت عليه أشير ،فوجده ـــ على ما يرويه النويري[2]ـــ خاليا كثير العيون فاستحسنه ،وقال لأصحابه: " **هذا موضعكم الذي يصلح أن تسكنوه**".

وقد بنيت المدينة على مرتفعات **جبل تيطري** عند الكاف الأخضر على علو1400م فوق مستوى سطح البحر، على مساحة إجمالية تتجاوز 53هكتار.[3] (أنظر الملحق رقم 02)

ومما زاد في أهمية موضع أشير كثرة عيونه وغزارة مياهه، فقد أشار الرحالة إلى أنه توجد بداخلها عينان " **لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر..**"[4]، تعرف إحداهما " **بعين سليمان**" ،والأخرى بعين"**تالانتيرغ**"،وأضاف البكري[5] عينا ثالثة شرقي المدينة تسمى " **عين مسعود**".

وموضع أشير من أحصن مواقع مدن بلاد المغرب وأعسرها على محاصرها و"**..ليس في تلك الأقطار أحصن منها، ولا أبعد متناولا ولا مراما ...منها..**"[6]،وذكر النويري[7] أن هذا الموضع لا يمكن أن يخترق"**..إلا من شرقيها ، يحميها عشرة رجال ،ولو لم يكن عليها سور لإستغنت بعلوها عن السور..**"

وعيب أشير الوحيد أن موضعها كان في منطقة منعزلة تربو عن سهول ومراعي واسعة كانت دوما مسرحا لتحرشات زناتة ، فمن غير الممكن أن تكون عاصمة للمغرب الأوسط كله على كثرة المتربصين بها، ذلك أن معظم الحواضر والقرى المحيطة بها بسيطة التضاريس سهلة المنال[8] ،وهو ما من شأنه أن ييسر قطع طريق القوافل نحوها ويمنع وصول المدد إليها، مما يفسر حرص زيري الدائم على حماية الزروع والقرى المحيطة بها.[9]

---

(1) البكري ، المصدر السابق، ص:60.
(2) نهاية الأرب ،ص:304.
(3) Rodet , op-cit ,p :85
(4) الحميري، المصدر السابق، ص:60.
(5) المغرب ، ص:60، من غير المستبعد أن تكون هي الموضع المعروف اليوم **بسيدي مسعود** شمال شرقي عين بوسيف.
(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(7) نهاية الأرب، ص:304، هناك تطابق كبير بين وصف البكري وصاحب الاستبصار والنويري لمدينة أشير ،ومن المرجح أن مصدر الرواية هو محمد بن يوسف الوراق الذي يعتمد عليه البكري كثيرا.
(8)ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1،ص:202.
(9) النويري ، المصدر السابق، ص:304-305.

(أ-5) ــ بناء المدينة بين وصف الرحالة والمكتشفات الأثرية:

شرع زيري بن مناد في بناء أشير سنة324هـ/935م واستعان بالبنائين والنجارين من المسيلة وحمزة وطبنة ،وطلب من القائم أن يمده بالصناع ،فأرسل إليه أحذق مهندسي إفريقية كلها، وزوده بالحديد ومواد البناء[1]، وهو ما يفسر أهمية بناء أشير للفاطميين أنفسهم،كي تكون قاعدة لهم لصد المد الزناتي ــ الأموي نحو الشرق ،وذلك ما ترجمه القائم في قوله :" **مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر**"[2].

وبعد أن أتم زيري بناء مدينته نقل إليها وجوه الناس من طبنة وحمزة والمسيلة[3] ، فما لبثت أن علا شأنها وإستبحر عمرانها،واتخذ أهلها الدور والقصور والحمامات ،وصارت قبلة للتجار والفقهاء[4]،وأضحت من كبريات حواضر المغرب الأوسط.

وقد إضطرنا نقص المادة العلمية وشح المصادر التاريخية وكتب الرحلة وحتى النوازل ومؤلفات السير والطبقات وإفتقارها إلى معلومات دقيقة حول مدينة أشير ،لإلتجاء إلى ما توصل إليه بعض المؤرخين وعلماء الآثار في دراساتهم الحقلية لخرائب أشير[5]، ومع ذلك فقد ظلت معلوماتنا غير كافية لإنجاز دراسة وافية تشمل شتى جوانب الحياة الصنهاجية ،لاسيما بعد توقف عمليات البحث والتنقيب بسبب تردي الأوضاع الأمنية في المنطقة ،والتي منعتنا من التنقل إليها لأخذ ــ على الأقل ــ صور فتوغرافية لخرائب أشير وموضعها.

وتوصل هؤلاء الباحثون إلى أن مدينة أشير تتوزع على ثلاثة مواضع منفصلة(**أنظر الملحق رقم 01**)،هي:

1ــ منزه بنت السلطان:[6]

يقع على بعد 10كلم شمال غرب عين بوسيف ،وهو حصن سميك السور طوله276م وعرضه26م[7]،وبه عثر بربرجر Berberguer [8] على خراب" **قصبة** " سنة1852م،وقد افترض النقيب رودي Rodet [9] أن يكون هذا الموضع محل إقامة زيري بن مناد قبل إختطاطه لأشير.

---

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:304.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج1 ،ص:202

(3) النويري ، المصدر السابق، ص:305.

(4) ابن خلدون ، العبر، ج6،ص:154.

(5)حول نتائج الحفريات التي أجريت على خرائب أشير أنظر: المراجع التي تمت الإشارة إليها في المقدمة، ص:ق - ر

(6) يشير بعض الدارسين إلى أن موضع **منزه بنت السلطان** هو نفسه القلعة المنادية التي أشار إليها البكري،المصدر السابق،ص:137، أنظر: روجي إدريس ،المرجع السابق، ج2،ص:194. Marçais (G), L'architecture Musulmane d'Occident ,Paris ,1954,p : 89.

(7) Achir,p :22

(8) بورويبة ،أشير ،ص:118-119.

(9) Les Ruines d'Achir ,p :25

2 ــ يشير:

هو اسم أشير باللهجة البربرية،وقد عثر على آثاره على مسافة 12كلم شمال شرق عين بوسيف،ويتربع على مساحة إجمالية تتجاوز 15هكتار[1]،ويعتقد رودي **Rodet** [2] أن هذا الموضع هو مكان بناء أشير القديمة، التي بناها زيري بن مناد كما يرويه النويري ،وبه إكتشف غولفن**Golvin** [3] قصر زيري بن مناد.

3 ــ بنية:

توجد خرائبه على مسافة 2كلم جنوب شرق أشير على مساحة تقدر بــ"35" هكتار(**أنظر الملحق رقم** 03)،ويقترح رودي **Rodet** [4] أن يكون هذا الموضع هو مكان إختطاط المدينة الجديدة على يد بلكين بن زيري،وتسويره لكامل المدينة بأجزائها الثلاثة،وببنية عثر مارسييه **G.Marçais** [5] على مسجد المدينة.

وهكذا نخلص من خلال إستقرائنا لكتابات الرحالة والجغرافيين وما توصل إليه علماء الآثار من قراءة الحفريات التي تم العثور عليها، أن أشير بنيت على مراحل في عهدي زيري بن مناد وابنه بلكين ،وتضم خرائبها بقايا ثلاث مدن.

(أ-6) ــ أهمية المدينة:

لم يمض وقت طويل على تأسيس مدينة أشير حتى صارت عامرة آهلة بالسكان ،وأضحت قبلة لكل أهل المغرب الأوسط قاطبة، فضلا عن السكان الذين رحلهم زيري من حمزة وطبنة والمسيلة[6]،وتلمسان على عهد بلكين.[7]

وقد شهدت أشير حركة اجتماعية نشيطة زاد من حيويتها هجرة العلماء والفقهاء إليها،فأضفوا ديناميكية كبيرة على الحياة الثقافية بها ،حتى إشتهرت المدينة "**...بفقهائها وعلمائها...**"[8].

(1) Achir,p :132.
(2) Les Ruines d’Achir,p :28
(3) Les Maghreb Central…,p:202
(4) Achir,p:132
(5) Les Ruines d’Achir,p :30

(6) النويري، المصدر السابق، ص:305.
(7) ابن الأثير، الكامل ، ج7،ص:48.
(8) النويري ، المصدر السابق، ص:305.

أما من الناحية العسكرية فإن موقع أشير الحصين وأهميته الإستراتيجية جعل منها سدا منيعا ،انهارت عنده جلّ محاولات إختراقه على مرّ الزمن ،وتحولت إلى قاعدة خلفية لحملات الصنهاجيين العسكرية، بها تصنع الأسلحة ،وبميدانها تدرب الأجناد ،وبقلعتها توضع الخطط،ومنها تنطلق الجيوش.[1]

وقد ساعد موضع أشير المشرف على سهول فسيحة ومنتجعات واسعة على نشاط الحركة التجارية بالمدينة ، التي كانت تتصل عبر أربعة طرق تجارية بمختلف مراكز صنهاجة ،هي:

- **أشير ـــ مرسى الدجاج**[2] : السالك لهذه الطريق يمر بقرية تعرف بشعبة، ومنها ينفذ إلى سوق حمزة ، ثم يصل إلى بلياس ، التي يرجح أن تكون ثنية البقاس الحالية.
- **أشير ـــ بني مزغـــنة**[3] : توجد على طول هذا الطريق عدة مدن وقرى أولها مما يلي أشير: مدينة **المدية** التي اختطها بلكين بن زيري، وتليها مدينة **قزرونة** بسهل المتيجة نواحي البليدة ، وقبل الوصول إلى جزائر بني مزغنة تصادفنا مدينة **اغزر** التي يحتمل أن تكون مدينة **بوفاريك** الحالية.
- **أشير ـــ المسيلــــة**[4] : يعد هذا المسلك جزءا من الطريق الذي يربط أشير بقلعة بني حماد.
- **أشير ـــ مليانــــة**[5] : تمر هذه الطريق بسوق **هوارة** ، ثم بسوق **كران** على ضفة نهر شلف وصولا إلى مدينة **مليانة**.

كما أدى سك زيري بن مناد لعملة صنهاجية قوامها الدرهم والدينار بدلا من مقايضة السلع بالأغنام والأبقار، ووفرة أشير على سوق أسبوعي كبير تروج فيه منتجاتها الحرفية والزراعية، ذاع صيته وتنوعت سلعه وقصده التجار وصارت " **تباع به كل طريفة وتجلب إليه كل لطيفة**"[6]، إلى تفشي الرخاء وتحسن المستوى المعيشي للسكان.

بيد أن نجم أشير ما لبث أن أفل ، وفقدت المدينة سنا بريقها، لاسيما بعد إختطاط القلعة[7] سنة398هـ/1007م التي استقطبت إليها أهل المنطقة،وتضعضع أمر أشير منذ أن أقدم يوسف بن حماد على

---

(1) إسماعيل العربي،عواصم بني زيري، ص:16.

(2) ابن حوقل، المصدر السابق، ص:77-78، البكري،المصدر السابق، ص:60.

(3) ابن حوقل،المصدر السابق، ص:78 ،البكري، المصدر السابق، ص: 60 .

(4) المصدر نفسه، ص:59-60.

(5) المصدر نفسه، ص: 60-61 ، ويتضح من خلال تسميات هذه المواضع أن هذا الطريق طبعته حيوية كبيرة لاسيما أن مدينة مليانة كانت تحتل مكانة إستراتيجية ـــ إقتصادية هامة لدى الصنهاجيين.

(6) الإدريسي ، المصدر السابق،ص:155

(7) إختط حماد بن بلكين مدينة القلعة سنة398هـ/1007م على أنقاض قلعة رومانية قديمة بجبل عجيسة **(كيانة)** لصد هجمات زناتة ودعم إستقلال دولته ونقل إليها وجوه الناس من المسيلة وسوق حمزة ،كما عرفت بقلعة حماد وقلعة أبي الطويل .حولها أنظر: الإدريسي،المصدر السابق،ص:156 الإستبصار،ص:167 ، ابن خلدون، العبر،ج6، ص:158 ، بورويبة ، الدولة الحمادية،ص:20.
Berjie (Ide), La Kalaa des Benis Hammad - une Capitale Berbére de l'Afirque du Nord au XI siécle-Paris,1909,p :9.

تخريبها ،وعلى الرغم من إعادة إعمارها سنة455هـ/1064م[1] إلا أنها فقدت مكانتها حتى إنقرض ذكرها،وهي اليوم أطلال وخراب.

ب ـ جزائر بني مزغنة :[2]

إختلف رحالة ومؤرخو العصر الوسيط الإسلامي حول النطق الحقيقي للقبيلة التي نسبت إليها مدينة الجزائر ، فقد أسماها الإصطخري[3] والحميري[4] " **جزائر بني مزغنة**"،وعرفت عند المقدسي[5] بـ" **جزائر بني زغناية**" ،وأشار إليها ابن بكشوال[6] باسم " **جزائر بني زغني**"، وأكد صاحب الإستبصار[7] أنها تعرف بـ"**جزائر بني مزغناي**".

ولا نعرف شيئا كثيرا عن جزائر بني مزغنة قبل أن يعلو شأنها وتضطلع بدور كبير في المنطقة ، على أنه يبدو من خلال الحفريات المكتشفة ،ووصف الرحالة أنها مدينة "**...قديمة البنيان فيها آثار للأوّل وآزاج محكمة،تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم...**"[8].

ورغم أن فتح المدينة تم على الراجح في عهد موسى بن نصير ،إلا أن المصادر أهملت ذكرها خلال القرون الأولى للفتح ،وحتى اليعقوبي[9] الذي وصف المنطقة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي تناولها بصورة عابرة ، مما يدل على أنها كانت وضيعة الشأن.

ويتضح من خلال استقرائنا للوثائق التاريخية التي تتناول هذه الفترة أن جزائر بني مزغنة كانت تدين بالولاء ـ على غرار كثير من مراكز صنهاجة بالمغرب الأوسط ـ للأمراء العلويين من بني محمد بن جعفر، وهو ما أكده ابن عذاري [10]لاحقا عندما أشار إلى أن المدينة كان يحكمها حمزة بن إبراهيم العلوي ـأحد أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الذي يبدو وحسب الرواية ذاتها أنه متحالف مع أمويي الأندلس.

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص:60.

(2)مدينة على سيف البحر بين بجاية وشرشال ، بنيت على دائرة عرض 36.77° شمالا ،وخط طول 0.44° شرقا ،وهي اليوم قاعدة القطر الجزائري.أنظر : إبراهيم خورشيد وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية ، ط2 ، دار الشعب ، القاهرة، 1969، مج4، (مادة الجزائر) ، ص:145.

(3)المسالك والممالك، ص:39

(4)الروض المعطار، ص:163.

(5)أحسن التقاسيم ، ص:189

(6)كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة، 1966،ص:94

(7)مجهول، المصدر السابق، ص:170

(8) البكري، المصدر السابق، ص:66.

(9) البلدان ، ص : 125.

(10)البيان المغرب، ج2،ص:215.

ومع تنامي قوة صنهاجة على عهد زيري بن مناد وإتساع سلطانها عقد له المنصور الفاطمي على قومه وولاه على أشير وأعمالها سنة335هـ/946م،وحرص زيري على تنظيم أعماله وتقويتها ،وأوكل إلى ابنه بلكين بن زيري إختطاط مدينة " **جزائر بني مزغنة**" على سيف البحر.(1)

وعلى الرغم من أن أحدا من الرحالة والمؤرخين لم يشر إلى تاريخ إختطاط المدينة ـــ أو بالأحرى تجديدها وتوسيعها ـــ إلا أنه يستنتج من رواية ابن عذاري(2) حول ذهاب صاحب بني مزغنة " حمزة بن إبراهيم " رفقة بعض أمراء زناتة إلى الخليفة الناصر(3) بالأندلس سنة337هـ/948م أنه كان يتعرض لمضايقات زيري بن مناد الطامح إلى توحيد صنهاجة كلها(4)، فمن غير المستبعد إذا أن يكون تأسيس المدينة تم بعد ذلك بقليل في أواسط الربع الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.(5)

وقد إرتاد بلكين بن زيري موضعا إستراتيجيا لتوسيع جزائر بني مزغنة يطل على سيف البحر ، في ربوة مشمسة تتوفر على الأخشاب ومواد البناء.(6)

وإلى جانب مليانة مثلت جزائر بني مزغنة العصب الإقتصادي لصنهاجة بما تشغله من أجود الأراضي، التي إستغلها أهلها في زراعة الحبوب من الحنطة والشعير(7) ،كما اشتهر سكانها بثرائهم وأكثر أموالهم المواشي والأنعام(8)،ومن المرجح أن معظمها إكتسبوه من غنائم حروبهم مع صنهاجة ضد زناتة.

ومنذئذ أضحت جزائر بني مزغنة محطة هامة للمبادلات التجارية(9)، خاصة أن من ساحلها كانت تنقل سلع كثيرة إلى الأندلس،إضافة إلى العسل الذي كان يصدر إلى القيروان وشتى أصقاع المغرب.(10)

---

(1) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:154.

(2) البيان المغرب، ج2، ص:215.

(3)هو **أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله** أحد أحفاد عبد الرحمن الداخل ، بويع بالإمارة سنة300هـ/913م ،وتلقب بأمير المؤمنين سنة316هـ/929 م،وكان معاصرا للخليفة المقتدر في العراق ،والخليفة المهدي في القيروان ،لمزيد من التفاصيل أنظر : ابن حيان، المصدر السابق، ج3، ص:32 ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص:215 ، الحلل الموشية ،ص:7.

(4) يمكن هنا التمييز بين صنفين من صنهاجة قبل توحيدها من قبل زيري بن مناد ، فقد كانت قبائلها تخضع للإمارات العلوية التي أنشئت بالمغرب الأوسط على غرار مزغنة وسوق حمزة ،في حين ظلت قبائل أخرى مستقلة عن سلطان الدول يحكمها النظام القبلي مثلما هو الشأن بالنسبة لقبيلة زيري بن مناد (تلكاتة).

(5)يذكر الزياني أن المدينة تم إختطاطها سنة361هـ /972م ،كما يشير إلى أن مدينة البليدة بنيت قبلها سنة345هـ/ 955-م من قبل بلكين .أنظر: الترجمانة الكبرى ، تحقيق : عبد الكريم الفيلالي ، طبعة الرباط، 1967، ص:149.

(6) حليمي ، المرجع السابق، ص:83.

(7) الحميري، المصدر السابق، ص:163.

(8) ابن حوقل،المصدر السابق، ص:77.

(9) شهدت المدينة أيام الإدريسي حيوية قل نضيرها ،حيث ذكر بأنها أصبحت " عامرة آهلة وتجارتها مربحة ،وأسواقها قائمة ،وصناعاتها نافقة...العسل والسمن كثير ببلادهم وربما يتجهز بها إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة" .أنظر : نزهة المشتاق ،ص:159.

(10) ابن حوقل، المصدر السابق، ص:77.

وصفوة القول أن جزائر بني مزغنة عرفت حيوية كبيرة بإنضمامها إلى الحلف الصنهاجي ، فصارت مدينة آهلة ، تزخر بأسواق عامرة ،وولت عن حياة الركود والجمود التي كانت تعيشها.

ج ــ مليانة:

من أكبر مراكز صنهاجة بالمغرب الأوسط ، تقع بأحواز أشير بين تنس والمسيلة ،وتنسب إلى أحد بطون صنهاجة الضاربين بجبال الونشريس مع بني واريفن.(1)

وقد شيدت المدينة على سفح جبل زكار على ارتفاع 720م فوق مستوى سطح البحر ،وتشرف على سهل فسيح عند منعطف نهر شلف(2)،ومازالت إلى اليوم تحتفظ بنفس اسمها القديم.

وعلى الرغم من أن مليانة فتحت على عهد موسى بن نصير الذي أخضع أهل صنهاجة المقيمين حول نهر شلف وسبى منهم خلقا كثيرا (3) إلا أنها ظلت قليلة الشأن ،وقد أوردها اليعقوبي(4) تحت اسم" **مذكرة**"، وأصبحت منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إمارة علوية يتعاقب على حكمها أحفاد محمد بن سليمان بن عبد الله العلوي.(5)

ومع مجيء زيري بن مناد عرفت المدينة صحوة كبيرة على غرار كامل بلاد صنهاجة ،ولا ريب في أن أهلها كانت لهم إسهامات كبيرة في الإنجازات العسكرية الضخمة التي حققتها صنهاجة ،واستفادوا من غنائم وفيرة أثلجت صدورهم وحسنت من معيشتهم وزادت من ثرائهم.

وقد ساعد بلكين في توسيعها توفرها على شَعراء كبيرة جلب منها الأخشاب ،إضافة إلى مواد البناء لاسيما الحجارة التي استخلصها من جبل زكار، وحرص على إمداد المدينة بالمياه من العين المنبعثة من أعلى هذا الجبل.

ولما إستوسق الأمر لزيري بن مناد كلف ابنه بليكن بإختطاط مدينة مليانة في الوقت نفسه مع جزائر بني مزغنة، فرحل بلكين إليها وجدد بناءها وحصّن سورها وأحسن إلى أهلها ، الذين يبدو أنهم رحبوا به إذ لا تطلعنا المصادر على أي رد فعل سلبي منهم(6)، فعمّ بها الرخاء وتحسنت أحوال الناس.

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ص:159.

(2)الحميري، المصدر السابق، ص:547.

(3)أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،كتاب الإمامة والسياسة ، مطبعة الفتوح الأدبية،مصر، د.ت، ج2،ص:54.

(4) البلدان، ص: 27 ، ويذكر ليون الإفريقي أن المدينة في عصره إستبحر عمرانها وتكاثر أهلها ،واشتملت على أربعة آلاف كانون ، واشتغل سكانها بالزراعة والصناعة.أنظر: وصف إفريقيا ، ج2،ص:34-35.

(5) البكري، المصدر السابق، ص:61.

(6) الإستبصار، ص:171.

ويبدو أن موقع المدينة الممتاز وجودة أراضيها ووفرة إنتاجها هو الذي أغرى زيري بن مناد على إختطاطها ،وكلف ابنه بالإقامة فيها حتى يضمن من جهة تموين أشير بمختلف السلع والمنتجات ،وكي تكون خطا دفاعيا أولا يعرقل تحركات زناتة ،ويحول دون زحفها نحو الشرق من جهة أخرى.[1]

ولئن اختصت مدينة جزائر بني مزغنة بزراعة الحبوب ، فقد ساعدت خصوبه أراضي مليانة وإشرافها على نهر شلف على إقامة "**...أشجار وبساتين فيها جميع الفواكه...**"[2].

وبحكم الموقع الممتاز الذي تحتله مليانة في قلب المغرب الأوسط فقد تحولت إلى مركز تجاري هام، يزخر بسوق جامعة تجلب إليها خيرات عظيمة تباع بها سلع متنوعة[3]، فعمّ بها الرخاء وتحسنت أحوال الناس.

د ــ المـــديـــة:[4]

لم ترد الإشارة إلى مدينة " **المديـــة**" لا في كتابات المؤرخين ولا في وصف الرحالة والجغرافيين قبل القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي ،مما يرجح أنها لم تكن مدينة ذات شأن.

وتقع المدية جنوب مواطن بني مزغنة بينها وبين أشير ،ويذكر ابن خلدون [5] أنها تنتسب إلى أحد بطون صنهاجة المعروف بـــ" **لمدية**" أو " **لمدونة**".

وبالنظر إلى الفترة التي زادت فيها حيوية المدينة والدور الذي لعبته في الحركة الصنهاجية بالمغرب الأوسط ، يمكن أن نؤكد أنها أسست لأغراض عسكرية ــ إقتصادية بحتة:

---

(1) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:154.

(2) الإستبصار، ص:171، وأضاف القزويني أنها كانت :"..كثيرة الخيرات ،وافرة الغلات ،مشهورة بالحسن والطيب وكثرة الأشجار وتدفق المياه...". أنظر : آثار البلاد ، ص:311.

(3) الحميري ، المصدر السابق ، ص:547.

(4)أختلف حول أصل تسميتها ، هل هو مشتق من اسم المدينة الرومانية التي بنيت على أنقاضها "**Lambdia** "،أم أنها كلمة بربرية تعني الأرض المرتفعة ،في حين اقترح بعض المؤرخين الأوربيين أن يكون اسم المدينة مستمدا من الحرفة التي اشتهر بها أهلها " **المدي Média**" وهي السكاكين، أنظر: بلحميسي مولاي ، مدينة المدية عبر العصور ،مقال ضمن كتاب : تاريخ المدن الثلاث الجزائر، المدية ، مليانة ، مطبعة صاري بدر الدين، الجزائر، 1972، ص:220

(5)العبر، ج6،ص:154.

ـــ فإختطاطها[1] من جهة سمح بإتخاذها كقاعدة عسكرية تمون بها الجيوش ،وتنطلق منها الحملات إلى بلاد زناتة ، كما يسهل منها مراقبة تحركات القبائل الصنهاجية وردع المعارضين منها.

ـــ ومن جهة ثانية سعى زيري بن مناد إلى جعل مدينة المدية محطة تجارية بين جزائر بني مزغنة وأشير[2]، تستريح بها القوافل وتؤمن طرقها من وإلى أشير ، لاسيما أن جزائر بني مزغنة شكّلت قاعدة إقتصادية هامة للإمارة الصنهاجية.

هـــ ـــ سوق حمـــزة:

مدينة محدثة بين بجاية وجزائر بني مزغنة ،وتنسب إلى مؤسسها **حمزة بن الحسن بن سليمان العلوي**،وكانت من أعمال **هاز**، راجعة في أمرها للأمراء العلويين.[3]

وقد أسست مدينة " **حائط حمزة** " كما يسميها ابن حوقل[4] أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي على سهل فسيح **بأحواز بجاية** التي لم تؤسس بعد.

وعلى الرغم من أنها وجدت منذ وقت مبكر إلا أنها لم ترق إلى مستوى مدن أخرى أسست بعدها، حتى أن اليعقوبي الذي إهتم بوصف المنطقة أهمل ذكرها عند تعرضه لقواعد العلويين ببلاد صنهاجة .

وبتحطيم مدينة هاز وانضواء أهل سوق حمزة في الحلف الصنهاجي الذي أنشأه زيري بن مناد بدأت المدينة تضطلع بدور متنام في المنطقة ، لاسيما أنها كانت من الممولين الرئيسيين للحملات الصنهاجية على زناتة.

وينبئ اسم المدينة وسهولة موقعها الجغرافي على أنها أسست لأغراض تجارية صرفة ، لاسيما أنها كانت تشكل همزة وصل بين شرق المغرب الأوسط وغربه، ومحطة تجارية هامة بين **مرسى الدجاج** وأشير[5]، وبين سطيف وتاهرت ، مما ساعد على إزدهارها ورخاء أسعارها.[6]

---

(1) يجعل بلحميسي ، المرجع السابق، ص:220 ، تاريخ تأسيس المدية في الفترة الممتدة ما بين تعيين الفاطميين لزيري واليا على تاهرت سنة348هـ / 959م،ووفاته سنة 360هـ/971م، في حين يجعله الزياني ، المصدر السابق، ص:149، ضمن أحداث سنة361هـ /972م، إلا أن ذلك يبدو مستبعدا على اعتبار أن المصادر تتفق على أن إختطاط المدينة تم بأمر من زيري ،كما تتفق معظمها على أنه توفي قبل هذا التاريخ.

(2) البكري، المصدر السابق، ،ص:65، ابن سعيد ،المصدر السابق، ص:65.

(3)أختلف في نسب حمزة الذي نسبت إليه هذه المدينة ، فقد أشار البكري ، المصدر السابق، ص:65، أنه حمزة بن حسن العلوي ، في حين يرجح التنسي أنه حمزة بن علي صاحب تنس.أنظر: نظم الذر والعقيان في شرف بني زيان ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1985،ص:82.

(4) صورة الأرض،ص:87 ، ابن سعيد ، المصدر السابق، ص65.

(5) البكري ، المصدر السابق، ص:65

(6)ابن حوقل ، المصدر السابق،ص:87.

وعلى الرغم من نقل زيري بن مناد لوجوه أهلها إلى أشير[1] ،إلا أن سوق حمزة لم تفقد بريقها، لاسيما من الناحية الاقتصادية والتجارية.

ومع أنها أنشئت لأغراض عسكرية إلا أن ساستها لم يأمنوا غارات الأعداء عليها، فعمدوا إلى تغطية ضعف حصانتها الطبيعية بإحاطتها بسور ضخم مدعوم بخندق عظيم ،أما بناؤهم فكان من الطوب على ما يذكره المقدسي.[2]

وخلاصة القول أن سهولة موضع سوق حمزة ووقوعه في ملتقى الطرق التجارية جعل منها مدينة تجارية بحتة ، سطع نجمها في أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتى أضحت من أقوى مراكز صنهاجة بالمغرب الأوسط.

و ـــ مراكز أخرى :

إلى جانب التجمعات الصنهاجية الكبرى التي سبقت الإشارة إليها وجدت بالمغرب الأوسط مراكز أخرى ،ورغم أنها لم تكن ذات شأن كبير سياسيا وإقتصاديا بيد أن الموقع الإستراتيجي لبعضها وبهاء منظرها كثيرا ما إستوقف الرحالة والجغرافيين.

وكان أكثرها ذكرا وأعرقها تاريخا مدينة " **شرشال** " على سيف البحر[3]، وهي آخر حد بلاد صنهاجة غربا،وكانت دار ملك لسالف الأمم،وبأرضها أختطت عاصمة موريطانيا القيصرية ، ولئن فقدت المدينة بريقها وهجرها سكانها فيما بعد إلا أنها سرعان ما استعادت نشاطها مع مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ،وصارت على ما يصفه الإدريسي[4] عامرة آهلة بالسكان الذين اشتغلوا بالزراعة وغرس البساتين الفسيحة التي ضمت شتى ألوان الفواكه من السفرجل والعنب والتين...، كما تعاطوا زراعة الحبوب من الحنطة والشعير ،واعتنوا بتربية النحل والأنعام.

ويبدو أن مدينة شرشال بموقعها الإستراتيجي وقدمها التاريخي قد خطفت الأضواء من المراسي المجاورة الواقعة بينها وبين جزائر بني مزغنة ،كمراسي: **جنابية**[5] ـــ **الذبان**[6] ـــ **هون**[7] التي بالرغم من حصانة مواقعها إلا أنها لم تستطع مواكبة الحركة الدؤوبة التي جُبل عليها أهل شرشال.

---

(1) النويري، المصدر السابق،ص:305.

(2) أحسن التقاسيم، ص:189.

(3) محمد بن محمد بن علي بن احمد بن مسعود العبدري ،الرحلة المغربية ، تحقيق: أحمد بن جدو، مطبعة البعث ، قسنطينة،د.ت ،ج1،ص:

(4) نزهة المشتاق ، ص:158-159.

(5) هو عبارة عن شبه جزيرة قديمة،ويرجح أن يكون هذا الموضع هو نفسه رأس سيدي فرج.أنظر: البكري، المصدر السابق، ص:82.

(6) تدل الآثار الموجودة به على أنه مرسى قديم ،ويقع بالقرب من أنف القناطر.أنظر:المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

(7)يقع بين أنف القناطر ومرسى بطال ، وبه قرية قديمة تقع وسط خليج يحمل نفس إسمها ، أنظر : المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

وإلى الشرق من جزائر بني مزغنة وعلى مقربة من مرسى الدجاج أختطت مدينة **تامدفوس**(1) على موضع حصين مشرف على الساحل، وتدل الآثار الموجودة بها على أنها مدينة قديمة ، إلا أنها لم تضطلع بدور كبير في الحركة الصنهاجية التي طبعت المغرب الأوسط مع مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

كما أشار الرحالة إلى كثير من المراكز الصنهاجية المنتشرة على تلال المغرب الأوسط وسهوله ، التي تعد اليوم من أكبر مراكز المغرب الأوسط،كمدينة **"اغزر"**(2) التي يرجح أن تكون مدينة بوفاريك الحالية ،وهي من أكبر مراكز صنهاجة الزراعية خاصة بساتين البرتقال والعنب والتين والمشمش بالإضافة إلى الخضروات،تليها إلى الجنوب مدينة" **قزرونة"** وتعرف باللهجة البربرية **" أقزرونة"**(3) التي أقيمت على سهل متيجة الشريان الرئيسي للاقتصاد الصنهاجي ،وإشتهرت ببساتينها الواسعة ،وتدل كثرة المطاحن بها على وفرة إنتاجها الزراعي لاسيما من الحنطة والشعير.

وتنتشر بين جزائر بني مزغنة ومليانة تجمعات صنهاجية أخرى لا تقل شأنا عن سابقاتها ، فقد أقيمت مدينة" **سوق كران"**(4) على نهر شلف وتميزت ببساتينها الغناء المروية من هذا النهر، وأقيمت بها سوق مشهورة يرتادها سكان المناطق المجاورة كل جمعة لإقتناء وتبادل مختلف السلع،وإلى الغرب من مليانة على أقصى الحدود الغربية لبلاد صنهاجة وجدت مدينة **" سوق ماكسن"** (5) على العدوة الشرقية لنهر شلف ،التي اضطر أهلها أمام ضعف حصانتها إلى تسويرها لدرء الأخطار الخارجية عنها.

والملاحظ على تسميات مراكز صنهاجة أنه يغلب عليها تسمية السوق ،مما يرجح أن كثيرا منها أقيمت لأغراض تجارية بحتة،وقد ساعدها على ذلك موقعها الإستراتيجي عند ملتقى الطرق التجارية ، زيادة على توفرها على إنتاج زراعي ضخم من المحاصيل الزراعية، فقد عرفت حركة تجارية دؤوبة سادت ربوع المنطقة ،ولعل هذا ما يفسر أحد عوامل الصراع الفاطمي ــ الأموي على بلاد صنهاجة.

###

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ص:159.
(2) ابن سعيد، المصدر السابق،ص:61.
(3)المصدر نفسه، ص:65-66.
(4) ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:89
(5)البكري، المصدر السابق، ص:64.

الفصل الثالث

J تبلور الكيان الصنهاجي وأثره على الواقع المغربي J

" قراءة اجتماعية "

1ـ قبيلة صنهاجة من الفتح الإسلامي حتى العهد الفاطمي

أ ـ الفتح الإسلامي لبلاد صنهاجة

ب ـ صنهاجة وثورات الخوارج.

جـ تلكاتة تتولى زعامة صنهاجة المغرب الأوسط

2ـ واقع المغرب الفاطمي وموضع صنهاجة فيه.

أ ـ السياسة الفاطمية تجاه القبائل المغربية

ب ـ صنهاجة والخلافة الفاطمية:

1 ـ عوامل التقارب الفاطمي ـ الصنهاجي

2 ـ مكانة صنهاجة لدى الفاطميين.

- المكانة السياسية
- المكانة العسكرية
- انعكاساتها على المجتمع الصنهاجي

3ـ علاقة صنهاجة المغرب الأوسط بـ:

أ ـ قبيلة كتامة

ب ـ قبيلة زناتة

ج ـ صاحب المسيلة

د ـ قبيلة صنهاجة الجنوب

هـ ـ قبيلتي غمارة وبرغواطة.

4 ـ قبيلة صنهاجة تحكم بلاد المغرب.

قد يخيل للقارئ أن هذا الفصل ذو صبغة سياسيةـــ عسكرية خالصة ، ولا يرتبط بالتاريخ الإجتماعي لقبيلة صنهاجة المغرب الأوسط، وعلى الرغم من أن هذا الطرح له جانب من الصحة إذ أن بعض عناصره طغى عليها الطابع السياسي ـــ العسكري، إلا أننا آثرنا اعتماد منهج يقوم على رصد الظواهر الاجتماعية من خلال ربطها بواقعها العسكري وبنائها السياسي وأنماط الإنتاج السائدة.

والواقع أن هذا الفصل هو عبارة عن قراءة اجتماعية للتاريخ السياسي والعسكري، ومحاولة لإبراز بعض مظاهر تأثر الحياة الصنهاجية بالظرفية الجديدة التي خلقها ظهور الخلافة الفاطمية بالمنطقة ،ومع ذلك فقد فضلت ترك بعض المحاور على فطرتها السياسية أو العسكرية دونما تأويلات اجتماعية لاعتبارات عدة:

ـــ استيفاء شتى جوانب الدراسة التي لا تستقيم إلا بوضعها في أطرها السياسية والاقتصادية، لما لها من ارتباط وثيق بالتاريخ الإجتماعي، بل انه نتيجة حتمية لتفاعل هذه الجوانب فيما بينها، كما حدث تماما مع قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط مثلما سيأتي بيانه.

ـــ إبقاء الدراسة في أطرها التاريخية والموضوعية ، وتجنب التكرار والحشو في المعلومات، خاصة أن منها ما تناولناها في أكثر من عنصر ولكن من زوايا مختلفة.

ـــ كما تركت توضيح بعض آثار وانعكاسات هذه الجوانب على الحياة الاجتماعية الصنهاجية إلى الفصل الرابع ،دائما لتفادي التكرار وحتى تنال حظا أوفرا من الدراسة، كبعض العادات والتقاليد(الكرم، الغزو، الثأر...) ومظاهر التنظيم الاجتماعي.

1 ـــ صنهاجة من الفتح الإسلامي حتى العهد الفاطمي:

أ : الفتح الإسلامي لبلاد صنهاجة:

ما من شك في أن للجانب الديني والعقائدي أثر كبير على الحياة الاجتماعية، ودور بارز في تحديد كثير من العادات والتقاليد القبلية ،في نسق عام خاضع لمعتقد القبيلة ويحترم أعرافها وعوائدها.

وعلى الرغم من تعدد أجناس ومعتقدات الوافدين على بلاد المغرب ورقي حضارتهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا الانصهار في المجتمع المغربي، ولا حتى فرض ذهنيتهم ونسقهم في الحياة على البربر إلا على نطاق ضيق، لأن الحكام لم يعتنوا بالمنطقة وسكانها إلا بالقدر الذي يضمن لهم الأمن الداخلي والجباية المستمرة.[1]

(1) موسى لقبال ، البتر والبرانس، ص:160.

فقد نظر هؤلاء باستعلاء إلى البربر ورفضوا الاحتكاك بهم، و لم يتوغلوا نحو الداخل وظل وجودهم مقتصرا على المناطق الساحلية وتخومها الداخلية، ومن ثم بقوا جاهلين بكنه الحياة المغربية وذهنية أهلها الذين ظلوا يرفضونهم دوما.[1]

وعلى العكس من ذلك فقد استغل المسلمون ثغرات وأخطاء النظام القديم وحاولوا منها الولوج إلى قلب المجتمع البربري، وتم لهم ما أرادوا بفضل سماحة الإسلام وبساطة تعاليمه،وعلى أساس احترام العادات والتقاليد غير الوثنية للسكان،وفهم نمط معيشتهم الذي يتشابه إلى حد بعيد مع ما هو سائد في شبه الجزيرة العربية، وساعدهم في ذلك احتكاكهم المستمر بالمغاربة سواء في أداء الخدمة العسكرية أو عن طريق المصاهرة ، أو تعليمهم مبادئ الإسلام وإشراكهم في المغانم والتضحيات.[2]

وهكذا فقد تمكن المسلمون من تحقيق ما عجز عنه سابقوهم، واستطاعوا أن يقودوا البربر إلى بر الأمان ، وأحدثوا ثورة في عاداتهم وتقاليدهم وفق ما يتماشى والشريعة الإسلامية مع احترام الأعراف القبلية للسكان المحليين الذين تحولت نظرتهم تجاه كثير من القضايا ولو بدرجات متفاوتة ،على غرار مسائل: الثأر ، الغزو ، تربية الأولاد، مكانة المرأة،رغم أن ذلك سوف يخضع للمذهب الذي اعتنقته كل قبيلة.

ولئن كنا سنتطرق في مستهل هذا الفصل إلى ديانة صنهاجة قبل الفتح الإسلامي وظروف فتحها وملابساته، إلا أن انعكاسات ذلك لاسيما على الواقع الاجتماعي الصنهاجي ستظهر في ثنايا باقي أجزاء الفصل، وبشكل جلي في الفصل الأخير على ما سنشير إليه.

1ـــ ديانة صنهاجة قبل الفتح الإسلامي:

على الرغم من النتائج التي اهتدى إليها المؤرخون وعلماء الآثار حول الجانب الديني للمغاربة ،إلا أن معلوماتنا تظل غير كافية لإعطاء تصور شامل حول معتقدات البربر قبل الفتح الإسلامي.

بيد أنه يفهم من إستنطاق الشواهد الأثرية والنصوص التاريخية المتوفرة لدينا أن المغاربة القدماء، كانت لهم نظرة سطحية، وأفق ضيق حول الآلهة التي كانوا يعبدونها وحتى عن مصير الإنسان بعد موته،ومن ثم فلا ريب أن ديانتهم لم تخرج عن الإطار العام للمجتمعات البدائية آنذاك ، التي اتخذت من

(1) عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، ط2، المركز الثقافي العربي ، بيروت، 1996، ج1، ص:93 وما بعدها.
(2) موسى لقبال ، البتر والبرانس ، ص:160-161.

مختلف الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم آلهة لها، كما دان بعضهم بالماجوسية [1]على ما ذكره ابن خلدون.[2]

ولئن كان للمغاربة عند قدوم الملاحين الفينيقيين آلهتهم وطقوسهم الدينية التي لم تتغير إلا شكليا في العصور اللاحقة ،إلا أنه وبفعل إحتكاكهم بالمصريين والفينيقيين فقد اعتنقوا آلهة جديدة أعطوها مسحة مغربية خالصة[3].

فقد انتشرت بين المغاربة عبادة الإله " آمون" معبود المصريين من خلال العثور على صور كبش فوق رأسه قرص شمس في مناطق مختلفة من شمال إفريقيا،كما ذاعت بينهم عبادة الإله " **بعل حمون**" الذي هو نتاج اندماج بعل إفريقي ذي أصول شرقية فينيقية بإله ليـــبي قريب الصلة بالمعبود المصري " **زيوس آمون**"، في حين ظلت عبادة " **العجل قورزيل** " تحتل الصدارة حتى فترة متأخرة.[4]

وقد عرفت الديانات السماوية طريقها نحو بلاد المغرب منذ وقت مبكر عن طريق التجار والمهاجرين ومختلف الوافدين على المنطقة ، على غرار اليهودية التي اعتنقتها قبيلة جراوة البترية الضاربة بجبل أوراس[5] وظلت تدين بها حتى الفتح الإسلامي[6] ، إلى جانب النصرانية التي اقترنت بالإحتلال الروماني لبلاد المغرب، ثم إمتد تأثيرها إلى المناطق الخاضعة لهم .

ويصبح الأمر أكثر تعقيدا إذا ما اقترن بالجانب العقائدي لقبيلة صنهاجة كون المصادر التاريخية أهملت دورها السياسي والعسكري خلال هذه الفترة،ومع هذا فإن ديانتهم لا غرو لم تخرج عن الإطار العام لمعتقدات المغاربة.

وبحكم الإنتشار الواسع لقبائل صنهاجة في كامل بلاد المغرب فقد دان أفرادها بأكثر من ديانة تبعا لمواطنها ومدى تأثرها بالمؤثرات الخارجية، فتلك القريبة من الساحل ـــ لاسيما بالمغرب الأوسط ـــ كانت

---

(1) أكدت بعض الدراسات الحديثة أن العرب أخطأوا في نطق كلمة " **موغوش**" مجوسا ، ونسبوها إلى أتباع **الدين الزرادشتي** ،وتضيف هذه الدراسة أن كلمة " **مجوس**" إسم لديانة كانت شائعة في " **مادا** " قبل **زرادشت** ، فلما امتدت هذه النحلة إلى بلاد العرب أطلقوا عليها اسم" **موغوش**"،ويقوم مذهب المجوس على مبدأين: **المبدأ والمعاد**، وعرف العرب المجوس على أنهم " **عبدة النار**". لمزيد من التوضيح أنظر: عمار طالبي ، الخوارج الكلامية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ،1978، ج1،ص:307.

(2) العبر ،ج6، ص:109، ويذكر صاحب مفاخر البربر ، ص:255 ، أن من البربر من "...**تنصر وبقي آخرون يعبدون ما يعبد أهل الجاهلية من الأصنام والأوثان ،وبعضهم يعبد الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك ،ومنهم من تهود وتمجس.**."

(3) محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص:147.

(4) مهران محمد بيومي ، المغرب القديم ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1990،ص:211.

(5)يقع شرق المغرب الأوسط،وأكثر أهله من الخوارج الإباضية ،خاصة **هوارة ومكناسة** ،وكان معقلا لكثير من الثورات ،فمنه قاومت جراوة جيوش الفتح، وإليه التجأ أبو يزيد مخلد بن كيداد ليعلن ثورته على الفاطميين .أنظر:البكري، المصدر السابق، ص:50،76 ،الإستبصار، ص:164.

(6)ابن خلدون، العبر، ج6، ص:109، أما ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ص:212، فيذكر أنها كانت وثنية تعبد الأصنام.

أكثر احتكاكا بالفرنجة والروم ،ولا يستبعد أن يكون أهلها قد مارسوا شعائر النصرانية خضوعا للغالب ولو على نطاق ضيق.[1]

ومما يدل على توغل النصرانية في بلاد صنهاجة الساحلية إشارة بعض الرحالة والمؤرخين إلى وجود كنيسة عظيمة بالمنطقة عند بني مزغنة،وقد ذكر البكري[2] بأنها"**...كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين، مفصص كثير النقوش والصور...**".

أما بالمناطق الجبلية وأقاصي الصحراء ورغم أن نور الإسلام قد طالها منذ وقت مبكر، إلا أن بعدها وتوغلها في الفيافي والقفار قلل من احتكاكها بالمسلمين وظل إسلامها سطحيا تشوبه بعض العادات والتقاليد الوثنية على غرار بطون صنهاجة الجنوب التي ظلت على هذه الحالة وفي مقدمتهم بطن " **لمتونة**"[3] حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تاريخ ظهور الحركة المرابطية بزعامة **الفقيه عبد الله بن ياسين**،والتي أخذت على عاتقها مسؤولية تطهير القبائل المغربية من العادات والتقاليد الوثنية وترسيخ تعاليم الإسلام في نفوسها، ولما تمكن الإسلام من قلوب الصنهاجيين راحوا ينشرونه في كل مكان وتم على أيديهم فتح مناطق واسعة من بلاد السودان والأندلس.[4]

2 ـــ فتح بلاد صنهاجة:

بغية مواصلة نشر الرسالة الإسلامية وتأمين الحدود الغربية للدولة الإسلامية عمدت الخلافة في المدينة ـــ ثم في دمشق ـــ إلى فتح بلاد المغرب ،إلا أن البربر أظهروا إستماتة كبيرة وبأسا شديدا ووقفوا الند للند أمام المد الإسلامي.

فقد تعاقب على فتح بلاد المغرب ثلة من القواد الذين بالرغم من صعوبة تضاريس المنطقة وقلة معرفتهم بمسالكها زيادة على قوة شكيمة أهلها وشدة مراسهم ، بيد أنهم أبلوا بلاء حسنا وأعملوا السيف في رقاب البربر وبددوا قوى الروم وفتحوا مناطق واسعة من بلاد المغرب.

ومع ذلك فإن المغرب لم يدن لهم بكامله إلا على **عهد حسان بن النعمان**، الذي قضى على كثير من حصون الروم وألحق الهزيمة بالكاهنة أميرة جراوة سنة 74هـــ/693م،وقام بإصلاحات إدارية وعمرانية لتنظيم

(1)ابن خلدون ، المقدمة ، ص:212.

(2)المغرب ، ص:66 ، الحميري ، المصدر السابق، ص:163.

(3)من أكبر بطون صنهاجة اللثام ،وله الرياسة على سائر فروعها، علا شأنه منذ تبنيه للحركة الدينية التي تزعمها عبد الله بن ياسين،فحمل كثيرا من أهل بلاد المغرب الصحراوية على الدخول في الإسلام ،وتندرج تحت لوائه عدة بطون أشهرها: **بنو ورتنطق** ، **بنو زمال** ، **بنو صولان** ...حوله أنظر:ابن خلدون،العبر ، ج6، ص:181، أحمد محمود ، المرجع السابق، ص:35 ، ابن منصور ، المرجع السابق، ج1، ص:332.

(4)الحلل الموشية ،ص:16 ،39.

ولايته[1] ، إلا أنه عزل قبل أن يكمل مشروعه بإيعاز من والي الأمويين على مصر عبد العزيز بن مروان واستخلفه بموسى بن نصير سنة76هـ/ 695م [2] ــ حسب رواية ابن عبد الحكم ــ الذي عمل على تصفية جيوب المقاومة ومطاردة فلول المخالفين ،واستهل نشاطه بإيفاد حملة إلى قلعة زغوان على مسيرة يوم من القيروان فظفر بأميرها وأحكم سيطرته عليها وجلب منها غنائم وفيرة، ثم سير حملة أخرى بقيادة ابنه مروان إلى جهة أخرى فحصد سبيا كثيرا وغنائم ضخمة ثم انصرف قافلا ،وبعث بابنه عبد الرحمن إلى أطراف إفريقية فظفر وغنم.[3] .

ويبدو أن موسى رغم هذه الإنتصارات الكبيرة لم يكن مرتاحا في ولايته لاسيما أن تعيينه على مصر لم يرض الخليفة عبد الملك بن مروان،فسعى موسى إلى استمالة قلبه بكثرة الغنائم وسعة المناطق المفتوحة،وأتيحت له الفرصة عندما أخبره جواسيسه بأن صنهاجة على غرة منهم وغفلة وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحا[4] ، عندئذ قرر موسى غزوهم على رأس ستة آلاف من المسلمين منهم أربعة آلاف من أهل الديوان وألفان من المتطوعة وقبائل البربر،وخلّف عياش على أثقال المسلمين في ألفي فارس.[5]

وقد جعل على مقدمة جيشه عياض بن عقبة بن نافع ،وعلى ميمنته زرعة بن أبي مدرك ،وعلى ميسرته المغيرة بن أبي بردة القرشي، وقدم على ساقته نجدة بن مقسم ، ثم زحف به غربا حتى غشي صنهاجة وهم لا يشعرون فقتل منهم خلقا كثيرا ،وغنم من الإبل والغنم والبقر والخيل والحرث والثياب مالا يحيط به الحصر.[6]

ويبدو أن ما تذكره الروايات بأن سبي موسى في حملته على صنهاجة تجاوز مائة ألف مبالغ فيه[7]،حتى أنه أدهش ــ رفقة سبي سكوما ــ الخليفة الوليد بن عبد الملك نفسه الذي كتب إلى موسى **"ويحك أظنها إحدى كذباتك ،فإن كنت صادقا فلهذا حشر الأمم"**[8] ،في حين يجعله خليفة بن خياط عشرين ألفا، وعلى الرغم من ضخامة هذا العدد إلا أنه الأقرب إلى الواقع.

وعلى الرغم من أن سياسة موسى بن نصير الحازمة كان لها أثر كبير على القبائل المغربية ، إذ سمحت بدخول معظمها في الإسلام خشية بطشه ووصول فتوحه إليها ، فأتوه أفواجا معلنين إسلامهم تفاديا للسبي

(1)ابن قتيبة ،المصدر السابق،ج2، ص:54.
(2)البلاذري، المصدر السابق، ص: 232-233.
(3)ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ص:231-232.
(4)ابن قتيبة، المصدر السابق، ج2،ص:54
(5)المصر نفسه، الصفحة نفسها.
(6)المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(7)المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(8)ابن خلدون ، العبر ، ج6،ص:106.

وانخرطوا في جيشه طواعية ــ طمعا في الحصول على الغنائم ووافق ذلك هواهم ــ ،إلا أنه على حنكته وحسن تدبيره وقوة شخصيته وبلائه الحسن في نشر رسالة الإسلام وإيصالها إلى شبه جزيرة إيبيريا أفرط في سياسته المنتهجة تجاه البربر ، فقد انصرف منذ الوهلة الأولى إلى الحروب وجمع الغنائم دون أن يقيم للعنصر المحلي وزنا، فراح يغزو في كل الاتجاهات فظفر بغنائم وفيرة وسبي لا يحيط به الحصر، مما أثار حفيظة البربر وولّد في أنفسهم نوعا من الحقد والظغينة للعرب وسوء الظن بهم،وسرعان ما ترجموا هذا الشعور إلى ثورات وحركات تمرد على الواقع الإجتماعي والإقتصادي الذي صاروا يحيونه،ورد فعل مباشر على سياسة الظلم والتعسف التي أفرط ولاة بني أمية في تطبيقها تجاههم.[1]

وقد أراد موسى بن نصير أن يثبت للخليفة أنه أجدر من حسان بن النعمان بولاية مصر ،إلا أنه لو ركز جهوده على إخضاع القبائل الثائرة واستمالة قلوب المسالمين منها لكان أصوب وأمتن لتوطيد العلاقة بين العرب والبربر.[2]

ومهما يكن من أمر فإن الأجناد لما بلغهم نبأ إنتصار موسى الساحق على صنهاجة رغبوا في الزحف إلى الغرب فأذن لهم موسى بذلك ،وأمّر عليهم المغيرة بن أبي بردة والتحقوا بصنهاجة عند واد ملوية، واقتتلوا قتالا شديدا حتى فتح الله على المسلمين فظفروا بهم وحصلوا على غنائم وفيرة.[3]

وقد اختلفت روايات المصادر في تحديد تاريخ حملة موسى بن نصير على صنهاجة ،إذ يذكر صاحب **" الإمامة والسياسة"**[4] أنها وقعت سنة80هـ/699م، في حين يدرجها خليفة[5] بن خياط ضمن أحداث سنة81هـ/700م،وجعلها ابن عساكر[6] سنة82هـ/701م، أما ابن عبد الحليم [7] فيشير إلى أن هذه الحملة تمت بعد سنة89هـ/708م.

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه في مثل هذه المواضع ، لماذا تأخر الفتح الإسلامي لبلاد صنهاجة حتى أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، على الرغم من أن جيوش الفتح وصلت إلى تلمسان والبحر المحيط فيما وراء بلاد صنهاجة قبل هذا التاريخ ؟

في الواقع أن الإجابة على هذا الإشكال تقتضي منا الوقوف على جملة من المعطيات، أبرزها:

---

(1) ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1، ص:52.

(2) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ،ط2، الدار السعودية للطباعة والنشر،جدة، 1985، ص:47

(3) أبو بكر بن العربي ،شواهد الجلة ،تحقيق :محمد يعلى،الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ،مدريد،1996،ص:265،ابن قتيبة ،المصدر السابق، ج2،ص:54

(4)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) تاريخ خليفة بن خياط ، ص:302.

(6) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق:محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة،دار الفكر، دمشق،1989،ج61،ص:211-212.

(7)الأنساب ، ص:96.

ـــ أن صنهاجة لم تكن تشكل قوة تخيف الفاتحين على عكس أوربة مثلا التي أظهرت مقاومة عنيفة وتحالفت مع الروم لمواجهة جيوش الفتح، التي إرتكزت إستراتيجيتها العسكرية على مناجزة القوة العظمى في المنطقة وتصفيتها، ليسهل عليها فيما بعد بسط نفوذها على كامل بلاد المغرب.[1]

ـــ أن الخطوط الأولى للفتح لما إستعصى عليها دخول المنطقة من الساحل نتيجة استماتة أهلها في الدفاع عنها بمساعدة الروم، ركزت جهودها على اختراق البلاد من التخوم الشمالية للصحراء لاسيما في عهد عقبة بن نافع الفهري ليسهل عليها التوغل في الداخل[2]، وفي كلتا الحالتين يصعب الولوج إلى بلاد صنهاجة الضاربة في قلب المغرب الأوسط قبل إخضاع القبائل المغربية المحيطة بها ،زيادة على حصانتها الطبيعية إذ تحتضنها **جبال تيطري** من الجنوب و**جبال زواوة** من الشرق[3] ،ويضاف إلى كل ما تقدم بُعد بلاد صنهاجة عن مركز الخلافة الإسلامية في المشرق وقاعدتها بإفريقية.

ـــ بطء وتيرة الفتوح الإسلامية لبلاد المغرب التي استغرقت ما يربو عن سبعة عقود نتيجة بعدها عن مركز الخلافة والحصانة الطبيعية للمنطقة وصعوبة تضاريسها وشدة مراس أهلها ،إضافة إلى الصراعات الداخلية التي شهدتها الخلافة في المشرق [4]من أجل السيطرة على الحكم بين علي بن أبي طالب ـــ y ـــ ومعاوية بن أبي سفيان ، ثم بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير بن العوام.

ومما سبق نستنتج أن تأخر الفتح الإسلامي لبلاد صنهاجة ليس مردّه إلى قوة شكيمة أهلها وحصانة مواطنها ، بقدر ما هو تأخر تكتيكي ضمن الإستراتيجية العسكرية العامة التي انتهجها قادة الفتح في المنطقة،دون أن نغفل الصعوبات التي واجهوها في تحقيق أهدافهم وتوقف الفتح عدة مرات بسبب الصراع على الخلافة.

ب ـــ صنهاجة وثورات الخوارج:

تفتقر المصادر إلى المادة التاريخية المتعلقة بالدور السياسي والعسكري لصنهاجة الشمال قبل قيام الخلافة الفاطمية ،ولا تعدو كونها مجرد إشارات مبعثرة هنا وهناك ضمن دراسات عامة تفتقد إلى خيط يربط بينها.

---

(1)فتوح مصر والمغرب ، ص:218 ومابعدها.

(2)المصدر نفسه ، ص: 227-228.

(3)حول حصانة بلاد كتامة أنظر: ابن خلد ون ، العبر ،ج6 ، ص:148 ، لقبال،دور كتامة ، ص:98 –99 ،

- Gautier, op-cit,p:338.

(4)حول هذا الموضوع أنظر : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار القاموس، بيروت،د.ت، ج5، ص:236، وج7 ، ص:181.

ويرجح بعض الباحثين المعاصرين أن تدخل صنهاجة في بلاد المغرب تعود جذوره إلى أوائل القرن الثاني الهجري / منتصف الثامن الميلادي بشهادة العثور على اسم **مصال بن حماد** والي ميلة منقوشا على مثقال من زجاج يعود إلى سنة127هـ /745م[1] ،إلا أن اسم مصال الذي كان شائعا بين الصنهاجيين لا يعد مبررا كافيا للاستدلال على أن ولاية ميلة كانت تحت النفوذ الصنهاجي ،كما أن هذا الاسم لا يكتسي صبغة صنهاجية خالصة على غرار **مصالة بن حبوس** المكناسي ، على الرغم من أن إشارة ابن خلدون[2] إلى الثورة التي تزعمها **ثابت بن ورزيدون** في أوائل عهد الخليفة العباسي أبي العباس السفاح(132هـ ــ750م/136هـ ــ754م) إثر انقراض الدولة الأموية تدعم هذا الطرح.

وما من شك في أن البربر اعتبروا دخولهم إلى الإسلام فتحا لعصر جديد من المساواة والإحترام ، وتطلع لظروف عيش أفضل في ظل دين عظيم لا يعير للاعتبارات القبلية وزنا، وليس فيه ما يبيح للعرب أن يعاملوا غيرهم من المسلمين معاملة قوم من طبقة أدنى.

وقد أدت هذه السياسة التي انتهجها ولاة بني أمية إلى إعادة إثارة النزاعات القبلية بين القيسيين والكلبيين مما كانت له انعكاسات وخيمة على الرعية خاصة من البربر[3]، وشكلت سياسة التمييز والتهميش الدافع الرئيس في دعمهم للحركات المذهبية المعارضة التي وفدت عليهم من المشرق من الخوارج والشيعة.

ولما لم يجد البربر آذانا صاغية، وأمام تمادي الولاة في سياستهم التعسفية، رأوا في الحركات الخارجية المناهضة للسلطة المركزية الساعية لتحقيق المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات السبيل الوحيد للخروج من الواقع الإجتماعي والإقتصادي المزري الذي صاروا يعيشونه،والتحرر من ظلم وجور ولاة الخلافة الذين بلغ بهم الحد إلى محاولة تخميس البربر رغم إسلامهم.[4]

ومما زاد من التقارب البربري ــ الخارجي في أثناء الحكم الأموي أن أكبر أنصار الخوارج كانوا من الحجاز واليمن واليمامة يعيشون في مناطق يغلب عليها الطابع البدوي وذلك ما وافق هوى البربر وخلق انسجاما بين الطرفين[5] ، إلا أن ذلك لا يعني أننا ننساق كليا وراء ما طرحه **غوتييه**[6] الذي اعتبر الخوارج

(1) روجي إدريس، المرجع السابق ، ج1،ص:33.
(2) العبر ، ج6، ص:153.
(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1، ص:52.
(4) النويري ، المصدر السابق، ص:212.
(5) حسين مؤنس ، تاريخ المغرب، ج1، ص:137.
(6) Le Passé de l'Afrique du Nord ,p:228-229.

هم بدو زناتة، وتناسى أن هذا القبيل كان له دور بارز في إنشاء حواضر ضخمة كفاس ومراكش ــ ولو بصورة غير مباشرة ـــ وعمر مناطق واسعة على التخوم الشمالية للصحراء.(1)

وعلى ضوء هذا الواقع يستنتج الدارس أن كثيرا من ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي على الرغم من أن أهدافها الظاهرية كانت سياسية مذهبية، إلا أنها كانت تحمل في طياتها أبعادا إجتماعية خطيرة ولو على مستوى القاعدة(الأهالي)، الذين لم يكونوا ليلتفوا حول المعارضين المشارقة لولا وعودهم إياهم بإنصافهم وتحسين أحوالهم ،واسترجاع حقوقهم تجسيدا لمبادئهم السامية التي تصب في هذا النسق.

ولا أدل على سياسة الظلم والجور والتهميش الإجتماعي التي سلكها ولاة بني أمية تجاه البربر من عريضة الشكوى التي رفعها وفد منهم يتألف من إثنين وعشرين فردا يتقدمهم ميسرة المطغري إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يشكون فيها ضيق حالهم، وقلة حيلتهم، وتدهور أوضاعهم، وتضمرهم من سياسة ولاته،ويسألونه الإنصاف والمساواة وإعادة الإعتبار لهم .

وجاء في هذه العريضة :" إن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا غنمنا نفلهم دوننا ويقول : هذا إزدياد في الأجر،وإذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم ويقول :هذا أخلص لجهادكم ومثلنا كفى إخوانهم ،ثم أنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرون في سخالها يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد فاحتملنا ذلك،ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا".(2)

ويتجلى لنا من خلال هذه العريضة مدى معاناة البربر من قساوة السياسة الأموية في بلاد المغرب والتهميش الكبير لأهلها ، الذين عدوا اعتناقهم للإسلام تخلصا من كل العادات والتقاليد الذميمة، ودخولا في عهد جديد يسوده الأمن والسلام والأخوة والمساواة والتعاون والتكافل لخلق مجتمع إسلامي متجانس قوي البنى بإمكانه مواجهة كل التحديات لاسيما أمام التربص المستمر للروم البزنطيين به.

وفي الوقت الذي اندفع البربر جيوشا وأخماسا بفطرتهم وحماسهم من أجل الدوذ عن حياض الدولة الإسلامية قوبلوا بهذه السياسة المجحفة التي تدل بشكل واضح على أنهم علموا على أساس أنهم من غير العرب ومن طبقة أدنى لا يحق لها أن تتمتع بنفس الإمتيازات رغم تنازلاتها المستمرة وصبرها على تسلط الولاة(3) ،فقد فرط أبناؤها في الغنائم وقبلوا أن يضحوا بأنفسهم لاعلاء كلمة الله عزوجل، وتحملوا بقر آلاف الأغنام أمام أعينهم ،وكانت القطرة التي أفاضت الكأس امتداد أيدي الولاة إلى أهالي البربر وحرماتهم وهو ما لم يسكتوا عنه.

---

(1) محمد بن حسن ، المرجع السابق، ص:42.
(2) ابن الأثير، الكامل ، ج3، ص:47.
(3) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

ومن هذا المنطلق اندلعت ثورة البربر سنة 122هـ/740م بزعامة ميسرة المطغري في إقليم طنجة مستغلا فرصة انشغال الوالي الأموي **عبيد الله بن الحبحاب** بغزو صقلية رفقة خيرة جنده،فاستولى الثوار على طنجة وقتلوا عاملها، وساروا إلى بلاد السوس وسيطروا عليها،وما لبث المغرب الأقصى أن خرج من يد الأمويين.

وجرت بين الطرفين معارك طويلة تكبد فيها المسلمون خسائر فادحة في طنجة، وموقعة الأشراف في نفس السنة،وظل النصر حليف البربر حتى بعد انتقال الزعامة إلى **حميد الزناتي** ، ولم تخمد الثورة إلا بعد تضحيات جسام على يد **حنظلة بن صفوان** سنة 125هـ/743م .

وعلى الرغم من أنه تعزونا القرائن الكافية التي تثبت مشاركة صنهاجة من عدمها في هذه الثورة،غير أن اتساع نطاقها الجغرافي ومبالغة الولاة في سياسة الإجحاف،لاسيما أن الصنهاجيين كانوا من كبار ملاك الأنعام منذ الفتح الإسلامي على ما أشار إليه ابن قتيبة[1] يدعم هذا الطرح ولو بصورة نسبية.

ومع أن الخلافة الأموية تكبدت خسائر فادحة خلال هذه الثورة إلا أنها لم تغير من ملامح سياستها في بلاد المغرب، وظلت تحجم عن إعادة الاعتبار للعنصر المحلي، وحتى بعد انتقال مقاليد الحكم إلى العباسيين الذين كانوا أكثر الأطراف نقمة على سياسة الجور والتهميش التي مارسها الأمويون مع غير العرب في مختلف الأمصار[2]، بل أن الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية لم تتغير وصارت أكثر تعقيدا وتنبئ بإمكانية حدوث انزلاقات خطيرة اجتماعية وسياسية،لاسيما أمام لهث الخلافة بكل قواها من أجل القضاء على خطر الخوارج بدلا من القيام بإصلاحات إقتصادية واجتماعية سريعة، تحسن بها من أحوال البربر وترفع مستوى معيشتهم وتعيد ثقتهم بالعرب من جهة،وتستأصل بذلك إحدى أقوى الروابط التي جمعت بين الخوارج والبربر من جهة أخرى.

وتبعا للسياسة العباسية في المنطقة فقد أوكل أبو جعفر المنصور إلى واليه على المغرب عمر بن حفص المهلبي مهمة تقويض ملك الخوارج،فعمد الوالي العباسي إلى بلاد **الزاب**[3] وحصن مدينة **طبنة**[4] لتحول دون وصول الخوارج الصفرية إلى القيروان ،وكي يتخذها قاعدة لتصفية الوجود الخارجي بالمنطقة.[5]

---

(1) الإمامة والسياسة ، ج2، ص : 54

(2) ابن عذاري ، المصدر السابق،ج1، ص:52.

(3) تقع على أطراف الصحراء في سمت بلاد الجريد ،وهي مدن كثيرة وعمائر متصلة قاعدتها مدينة طبنة ،ومن مدنها أيضا: **بادس، تهودة، بسكرة، طولقة** ، حولها أنظر: ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:84، الإستبصار ،ص:171.

(4)أعظم مدن بلاد المغرب ، فتحت على عهد موسى بن نصير ،ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة أكبر منها ، وهي مدينة جليلة محاطة بسور ضخم تتخلله خمسة أبواب ومعظم سكانها من العرب والعجم. لمزيد من التفاصيل أنظر : البكري ، المصدر السابق، ص:50 ، الإستبصار ، ص:172، الحميري ، المصدر السابق، ص:387.

(5) محمود إسماعيل ، الخوارج في المغرب الإسلامي، دار العودة بيروت،مطبعة مدبولي، القاهرة، 1976،ص:79.

وقد إعتبرت الخوارج إقدام **عمر بن حفص المهلبي** على هذه الخطوة إبتزازا لها وعداء صريحا لتوجهاتها، فتحالفت فيما بينها وعزمت على محاصرته في طبنة قبل أن يستفحل أمره .

وقد شارك في حصار طبنة سنة 153هـ / 770م من الإباضية جيش أبي حاتم الملوزي وجيش عبد الرحمن بن رستم والمسور بن هانئ،ومن الصفرية صنهاجة في ألفي فارس يتقدمهم عبد الله بن سكرديد،وجيش مديونة بزعامة جريد بن مسعود، يترأس هؤلاء كلهم أبوقرة في أربعين ألف فارس.[(1)]

وعلى الرغم من مشاركة قوة صغيرة من الصنهاجيين في هذا الحصار ـــ لا يتعدى قوامها ألفي فارس يتقدمهم **عبد الله بن سكرديد** ـــ إذا ما قورنت بجيش الخوراج الصفرية [(2)] ، إلا أن ذلك يقدم لنا دليلا واضحا على إسهام صنهاجي فعلي في ثورات الخوارج ، على الرغم من أن هذا الحصار كان يحمل في طياته بذور الفشل منذ البداية بسبب الخلاف التقليدي بين الخوارج الصفرية والإباضية.[(3)]

كما تنبئ مشاركة صنهاجة في هذا الحصار على أن سياسة الظلم والجور قد طالتها، وصارت هي الأخرى كباقي البربر تعاني التهميش الإجتماعي وتسلط الخلافة ، مما انعكس سلبا على واقعها الإجتماعي فتدني مستوى معيشتها وقلّ قوتها وخشي الناس على أرزاقهم لاسيما أنها لم تظهر على ساحة الأحداث بعد.

ولئن كانت صنهاجة قد أسهمت بشكل فعال ضمن ثورات الخوارج في مناجزة ولاة بني أمية وبني العباس تحت لواء " **الصفرية** " ، فإن الصنهاجيين الموالين للمذهب " الخارجي الإباضي " لا يقلون عنهم شأنا ، فقد أسهموا بقوة في الذود عن حياض الإمارة الرستمية (160هـ /776م ــ 296 هـ /909م)، ويقدم لنا **الدرجيني** [(4)] دليلا عمليا على ذلك من خلال مشاركة صنهاجة في إخماد الثورة التي تزعمها **محمد أبو رباح ومحمد بن حماد** ضد الإمام **أبو حاتم يوسف الرستمي** ، فقد شكلت صنهاجة إحدى الركائز الأساسية لهذه الحملة بتزعمها لفرقة الجيش الرستمي التي حاصرت الثوار من الشرق.

---

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:234، ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:112،محمود إسماعيل ، المرجع السابق، ص:79.

(2) تنتسب هذه الفرقة إلى زياد بن الأصفر،وقيل إلى عبد الله بن صفار ، وحولها أنظر: الأشعري ، المصدر السابق، ،ج1، ص:169 ، الشهرستاني ، المصر السابق، ج2، ص:172، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم، تحقيق: عزت عطار الحسيني ، د.م. 1948، ص:54-55، محمد أحمد أبو زهرة، المذاهب الإسلامية، المطبعة النموذجية ، القاهرة،د.ت، ص:109.

(3)هم أنصار عبد الله بن إباض ،وقيل إباض بن عمرو ، الذين اتخذوا من الكوفة مركزا لهم ، للإستزادة أنظر: أبو الحسن الأشعري ، المصدر السابق، ج1، ص:172، الشهرستاني ، المصدر السابق، ج2، ص:143، البغدادي ، المصدر السابق، ص:61.

(4) طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق : إبراهيم طلاى،مطبعة البعث ، قسنطينة ،1974، ج1، ص:101، قارن: البكري، المصدر السابق، ص:69.

إلا أن ما يميز مشاركة صنهاجة تحت لواء الخوارج الإباضية أنها كانت في إطار نظامي، كما أنها مختلفة من حيث المنطلق خاصة المعطى الإجتماعي،فقد أسهمت في إخماد هذه الثورة وهي تتمتع بثقة الرستميين،وتعيش حياة أفضل بكثير إجتماعيا وإقتصاديا مما كانت عليه في ثورتي 122هـ/740م، و153هـ/770م ،وتتطلع نحو الأحسن في ظل نظام أقل ما يحسب له أنه أعاد الاعتبار لهذا القبيل.

وهكذا وعلى الرغم من المشاركة المحدودة لصنهاجة في ثورات الخوارج في مناجزة الخلافة الإسلامية،إلا أن ذلك يعد تعبيرا صريحا عما آلت إليه أوضاعها الإجتماعية والإقتصادية المزرية،وتطلعا لظروف عيش أفضل بعيدا عن سياسة الجور والتهميش في إطار المبادئ الإسلامية السمحة.

ج ــ تلكاتة تتولى زعامة صنهاجة:

إذا كان الصراع على الحكم والظفر بشرف قيادة صنهاجة ــ حسب ما أورده النويري[1] ــ تفسيرا مقبولا للصراعات والإنقسامات الداخلية التي شهدتها هذه القبيلة، إلا أن لب هذا الصراع كان إجتماعيا ــ إقتصاديا من أجل اعتلاء قمة التنظيم الإجتماعي والسيطرة على المسارح ومصادر المياه،والإستئثار بأكبر قدر من الغنائم والأسلاب، على أن هذا الصراع سرعان ما يتلاشى أمام الأخطار الخارجية.

وقد شكلت تلكاتة ــ كما تمت الإشارة إليه في الفصل الثاني ــ أكبر بطون صنهاجة المغرب الأوسط، وامتدت مواطن جمهورها بجوار كتامة ،وكانت لها الزعامة على سائر صنهاجة الشمال ليس لوفرتها العددية فحسب، بل لإشتمالها على ثلة من القواد الكبار الذين عملوا على لمّ شملها وتوحيد صفوفها،ووضعوا النواة الأولى لجيش صنهاجي سرعان ما تحول إلى قوة عظمى أضفى عليها هيبة كبيرة وامتد سلطانها إلى المناطق المجاورة بشكل لفت أنظار الأمويين والفاطميين المتصارعين من أجل السيطرة على المغرب الأوسط سياسيا ومذهبيا[2] ، فمالت صنهاجة إلى الأخيرين ورجحت الكفة لصالحهم.

وكان أول من دخل من تلكاتة إلى بلاد المغرب ــ على ما يرويه النويري نقلا عن ابن شداد ــ[3] **المثنى بن المسور** ،الذي قدم إليها بعد إستشارته لأحد الكهنة فتنبأ له بأنه سوف يدرك بنيه ملك عظيم بهذه البلاد، فوصى بها المثنى بنيه ومازالوا يتوقعونه حتى ولد مناد بن منقوش.

(1)نهاية الأرب، ص:302.

(2) مفاخر البربر،ص:129.

(3) نهاية الأرب، ص:300-301

ويحدثنا النويري[1] عن نشأة مناد ويضفي عليها طابعا منقبيا مبالغا فيه ،ويصور لنا تصرفاته وكأنها لرجل مقبل على أمر عظيم لم يعهد مثله ، فقد أشار بأنه ولد شديد القوة ، سخي اليد على من يمر به ، يكرم عابري السبيل، واختط لذلك مسجدا لأداء الصلاة ويأوي إليه الغرباء ، فيكرم وفادتهم ويستضيفهم في منزله ويزودهم بما يحتاجونه من زاد، فذاع صيته في المنطقة.

ويستشف من هذه الرواية مدى الرخاء الذي كانت تحياه صنهاجة وسعة رزقها من خلال تهافت سادتها وكبرائها على إكرام الضيف وإيواء عابري السبيل وتزويدهم بما يعينهم على إكمال مسيرتهم[2]، وينطبق هذا الحال على بطن تلكاتة التي شعرت بتفوقها على سائر البطون وارتقت مكانتها الإجتماعية بينهم،وشعر أفرادها أن القائم الذي بشر به الكاهن اليمني سيكون من صلبهم.

ويشير ابن عذاري[3] أنه كانت لمناد رحلة إلى المشرق سنة201هـ/816م،وهي السنة نفسها التي رحل فيها **يونس القائم بأمر برغواطة وبرغوث بن سعيد التراري الصفري** ، لكن أليس لهذه الرحلة علاقة بالدعوة الفاطمية ؟

قبل أن نجيب على هذه الإشكالية نود أن نشير إلى أن التاريخ الذي أورده ابن عذاري بعيد عن مجرى الأحداث، فجل الروايات تجمع على أن ابنه وخليفته زيري بن مناد قد قتل سنة 360 هـ/971م[4]،مما يجعل فارق السن بين الابن وأبيه يربو عن قرن ونصف قرن،وهو ما يضعف هذا الاحتمال، ولعل الأمر إلتبس على ابن عذاري وأنه قصد سنة 301 هـ/911م، لأنها الأقرب إلى الواقع.

أما عن الإشكال الذي آثرناه فتلمح بعض الروايات التي بين أيدينا فعلا إلى وجود اتصال صنهاجي ــ فاطمي في أثناء مرحلة الدعوة ، ومن قرائن ذلك :

ــ إشارة عبيد الله المهدي إلى الكنز الفاطمي الموجود في جبل صنهاجة[5] عندما توجه ركبه إلى القيروان بعد تحرير أبي عبد الله الداعي له من سجن سجلماسة.

ــ أن ظهور تحالف صنهاجي ــ فاطمي طفرة يطرح أكثر من تساؤل، مما يرجح أن تكون هناك اتصالات بين الطرفين في مرحلة الدعوة ،فمن غير المعقول أن يطلب زيري بن مناد من القائم الفاطمي أن يقدم له مساعدة لاختطاط مدينته أن يوافق الخليفة على ذلك دون تردد،ويدعمه بكل إمكاناتهم[6] إلا أن يكون أحد أعوانه ومحل ثقته التي لا تتأتى إلا بمرور الوقت.

---

(1)نهاية الأرب، ص: 303، ابن الأثير الكامل ، ج7، ص:47.

(2)النويري ، المصدر السابق، ص:302.

(3) البيان المغرب، ج1،ص:225.

(4) المقتبس ، ص:37، الكامل ، ج7، ص:47، نهاية الأرب ، ص:309، العبر، ج6، ص:154-155.

(5) سيرة الحاجب جعفر، ص: 131.

(6)النويري ، المصدر السابق، ص:304

ـــ أنه إذا ربطنا هذه الرحلة بأداء مهمة فإن طبيعة هذه المرحلة لا تسمح للفاطميين أن يضعوا ثقتهم إلا في أكبر دعاهم ومقربيهم ،مما يؤكد وجود اتصالات قديمة بين الطرفين، ويتدعم هذا الطرح أكثر عندما نعلم أن التحالف الصنهاجي ـــ الفاطمي لازال لم يخرج إلى النور في هذه الفترة،مما يبعد كل الشبهات عن مناد ابن المنقوش.

ـــ كما يجب أن لا ننسى أن مناد بن منقوش كان متأكدا إلى درجة اليقين أن تحقيق نبوءة الكاهن اليمني بحكم صنهاجة لبلاد المغرب[1] ،لن تتأت دون البحث عن حليف قوي له وزن في المنطقة ، وهو ما طمح إليه من خلال اتصاله بالفاطميين.

ومهما يكن من أمر فإن سكوت الأغالبة عن تنامي قوة صنهاجة قد فتح المجال أمام قادهما التلكاتيين، لتوسيع مضارب قبيلتهم وبسط نفوذهم على القبائل المجاورة ،حتى صاروا يحكمون جزءا من إفريقية والمغرب الأوسط باسم العباسيين راجعين في مختلف شؤونهم إلى الأمراء الأغالبة.[2]

ولاشك في أن هذه الحظوة التي أصبحت تتمتع بها صنهاجة كانت لها أثار عميقة على حياتها الإجتماعية والإقتصادية ، وبدأت تخرج تدرجيا من التقوقع على نفسها والحروب المستمرة مع زناتة إلى حياة التمدن وممارسة السلطة،ولو أن الطريق لازال طويلا ويحتاج إلى تضحيات جسام ومناجزة أكبر القوى في المنطقة كما سنبين ذلك عبر مختلف أطوار هذا الفصل.

ومن مظاهر تنامي قوة صنهاجة وتوسع سلطانها أواخر عهد الأغالبة تشييد مناد بن منقوش للقلعة المنسوبة إليه " **القلعة المنادية** " بالقرب من سجلماسة، ليجعل منها حصنا منيعا له وقاعدة لمحاربة غرمائه التقليديين من زناتة[3] .

وينم إنشاء القلعة المنادية بأراضي المغرب الأقصى على الإنتصارات الكبيرة التي حققها مناد بن منقوش أمام زناتة التي تقهقرت أمامه إلى ما وراء سجلماسة ، ومن ثم سيطرته على مسارحها وكثير من أموالها وتحكمه في المعابر التجارية التي كانت تحت يدها، مما كانت له انعكاسات إيجابية على صنهاجة عامة وتلكاتة على وجه الخصوص، فاتسعت مواطنها وزاد ثراؤها ،واتسعت أرزاقها ، وأمن الناس على قوتهم وأنفسهم، وهو ما يفسر إقدام مناد بن منقوش ومن بعده ابنه زيري على إكرام الضيوف وإيواء عابري السبيل، والجود على الضعفاء والمسلوبين[4].

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:300-301

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:153.

(3)البكري ، المصدر السابق، ص:137.

(4) النويري ، المصدر السابق، ص:301-302.

وعلى الرغم من أننا لا نملك الحقائق الكافية عن عوامل التقارب الأغلبي الصنهاجي اللهم بعض الإشارات التي تقر بأن تلكاتة كانت تحكم جزءا من إفريقية والمغرب الأوسط باسم العباسيين تحت إشراف الأغالبة، إلا أنه ووفقا للظروف السياسية والعسكرية وحتى المذهبية التي أحاطت بهذا التحالف، يمكن حصر عوامله فيما يلي :

ـــ أن التحالفات الإستراتيجية هي التي طبعت العلاقة بين السلطة والقبائل في بلاد المغرب، ومن ثم فقد رأى الأغالبة في صنهاجة بما تمثله من كثرة عددية وسعة الإنتشار وثرائها الإقتصادي حليفا قويا لوضع حد للمد الخارجي في المنطقة[1] ، لاسيما أن صنهاجة كانت على دراية كبيرة بطباع وطبائع الخوارج بإعتبارها حليفا سابقا لهم.

ـــ أن صنهاجة رأت في الأغالبة المدعومين من قبل العباسيين متكأ لتحقيق مآربها السياسية ،وتجسيدا لنبوءة الكاهن اليمني الذي بشرهم بملك بلاد المغرب كلها.[2]

ـــ محاولة بني الأغلب إستغلال عداوة صنهاجة لزناتة في القضاء على خطر الخوارج ،بحكم أن زناتة هي زعيمة الخوارج بالمغرب الإسلامي وعصبها العسكري،إذ ما كادت تنتهي من ثورة حتى تدخل في أخرى.

وهكذا فإن التحالف الأغلبي ـــ الصنهاجي هو تحالف ظرفي ـــ مصلحي أملته جملة من الظروف السياسية والمذهبية، إلا أنه سرعان ما تلاشى مع بروز الشيعة في المنطقة وإنشائهم للخلافة الفاطمية.

ومع أن المصادر التاريخية لم تفصح لنا عن مصير مناد وكيفية انتقال زعامة صنهاجة إلى ابنه زيري،إلا أن ذلك يبدو ـــ حسب رواية النويري ـــ[3] تم بصفة تلقائية على ضوء التنبؤ الذي تكهن به ذلك المغربي لمناد ،ومن غير المستبعد أن يكون قد شغل بعض الوظائف الإدارية في حياة أبيه لاسيما العسكرية منها، خاصة أن مناد كان طاعنا في السن فأوكل إلى ابنه مهمة قيادة الجيش ومحاربة زناتة،وقد بقي هذا التقليد ساريا حتى بعد قيام الدولة الزيرية ، فغالبا ما كان أمراء بني زيري يعهدون إلى أولياء عهدهم بمهام إدارية وعسكرية سامية لتدريبهم على شؤون الحرب والإدارة.[4]

ومؤدى الرواية أن رجلا من أهل المغرب انصرف من مكة بعد أداء مناسك الحج،وفي الطريق سلبت منه متاعه ،ولما بلغ إفريقية سمع الناس يتكلمون عن مناد بن منقوش وكرمه فقصده ليعينه على أمره، فرحب

---

(1) ابن خلدون ،العبر، ص:153، محمود إسماعيل ، المرجع السابق،ص:79.

(2)النويري ، المصدر السابق، ص:301.

(3) المصدر نفسه ، ص:302.

(4)هادي إدريس ، المرجع السابق، ج1، ص:39.

به مناد وأكرم وفادته وذبح شاة وقدمها له ،ولما قضى الرجل منها إربه أخذ يحذق في عظمها ثم ينظر إلى مناد ويبدي تعجبه ، فاستفسر مناد عن تصرفه هذا ،فردّ عليه الرجل قائلا: هل لك إمرأة حامل ؟ قال مناد: نعم ، فقال الرجل : هل لك أبناء منها ؟ فرد مناد: لا، ولكن من غيرها ، فطلب منه الرجل أن يعرضهم عليه ،فأجابه مناد إلى ذلك إلا أنه لم يتوسم فيهم الإمرة التي يبحث عنها ، ثم قال لمناد: إحتفظ بالمرأة الحامل، فوالله لتلدن ولدا يملك المغرب جميعه ، فقال مناد:**"والله مازلنا نتولف زمان هذا القائم منا رواية عندنا عن أسلافنا إلا أننا لم نكن ندري من أي أفخاذنا هو"**[1] .

وتصبح الرواية أكثر منقبية عندما يتناول النويري[2] نشأة الطفل المبشر به الذي سماه والده **"زيري"**،وكان طفلا بهيا يافعا يحسبه المرء ابن العشرين وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره لشدة بهائه،ومن فرط تفوقه على أترابه فقد كانوا يدعونه بـــ" **السلطان**" ،حيث كانوا يركبون العيدان ويتشبهون بالعساكر ، فيأمرهم زيري بالقتال بين يديه ويغري بعضهم بعضا ، ثم يصطحبهم إلى بيته فيصنع لهم طعاما ويقدمه لهم دون أن يتناول منه شيئا.

ونلمح في ثنايا هذه الرواية إشارات إجتماعية قيمة سواء في جانب التنظيم القبلي وطريقة انتقال الحكم بين الصنهاجيين ، أو بعض العادات والتقاليد كالكرم والغزو والفروسية والتسلية، غير أننا آثرنا ترك استثمارها إلى الفصل الرابع لتكون في الإطار المخصص لها، وتنال قسطا كبيرا من العناية وتجنبا للتكرار، و لم نكن لنوردها في هذا الموضع لولا حرصنا على تسلسل الأحداث وفق ما يخدم منهجية الدراسة.

ويبدو أن الصراع المستمر بين زناتة وصنهاجة أثّر في نشأة زيري العسكرية وأسهم بقسط كبير في صقل شخصيته ، فقد تولد لديه منذ صباه حقد كبير على خصوم قبيلته،وماكاد يراهق الحلم حتى ألف جيشا من بني عمه وكل من له نجدة من قبيلته ،وبدأ يشن الغارات على زناتة فيقتل ويسبي ويقسم الغنائم على جنوده دون أن يستأثر لنفسه بشيء ، فتسامع به الناس وذاع صيته حتى هابته القبائل.[3]

ويبدو أن ظهور القائم المنتظر في بطن تلكاتة قد زاد من حدة الصراعات الإجتماعية والإنقسامات الداخلية بين أفخاذ وبطون صنهاجة المغرب الأوسط، التي أضمرت العداء لتلكاتة وتحالفت ضدها، إلا أن زيري على صغر سنه أظهر رزانة فائقة وكفاءة عالية في قيادة الجيوش ،وتمكن بعد حروب طويلة من الظفر بهم والإستيلاء على أموالهم.[4]

(1)النويري ، المصدر السابق، ص:302.

(2)المصدر نفسه،ص:303، ابن الأثير ، الكامل ، ج7،ص:47.

(3) النويري، المصدر السابق، ص:304.

(4)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

و على الرغم من محاولة خصومه تجميع قواهم إلا أن زيري إستطاع أن يبدد شملهم حتى بعد تحالفهم مع غرمائه التقلديين من زناتة ، فدانت له سائر البطون، وأضحت تلكاتة قوة كبيرة لها حضور فاعل في المنطقة.(1)

وهكذا تمكنت تلكاتة من بسط نفوذها على سائر بطون صنهاجة، وفرضت عليها منطقها والإعتراف لها بسلطتها وتفوقها،وبذلك ظهر أول حلف في تاريخ صنهاجة المغرب الأوسط الذي سيكون له تأثير كبير في الواقع الإجتماعي والسياسي للمنطقة في المرحلة الموالية.

ويرجح أن الحركة التي قادها زيري بن مناد ضد زناتة وبعض بطون قبيلته كانت بإيعاز من الخلفاء الفاطميين ، الذين حرصوا على ضرورة توحيد صفوف حليفهم الجديد " **صنهاجة**"، ليكون لهم سندا ودرعا واقيا أمام الزحف الأموي ــ الزناتي إلى الشرق.

ومما تقدم نستنتج أن تلكاتة لم تكن لتفرض سلطتها على سائر بطون صنهاجة الشمال لولا بروز ثلة من القواد العظام الذين أحسنوا توظيف سعتها العددية واتساع مجالاتها وإمكاناتها المادية الضخمة ،زيادة على ثقل موروثها للوصول بقبيلتهم إلى قمة الهرم الإجتماعي.

2ــ واقع المغرب الفاطمي وموضع صنهاجة فيه:

أ ــ السياسة الفاطمية تجاه القبائل المغربية:

يبدو أن الخلفاء الفاطميين كانوا على دراية تامة بتاريخ بلاد المغرب وطباع أهلها ،إذ ما كادت أقدامهم تطأ المنطقة(2) حتى اعتمدوا سياسة " **فرق تسد**"ــ التي صارت تقليدا ينتهجه كل طارئ جديد عليهاــ لتفكيك وحدة المغاربة وتماسكهم وتبديد شملهم ،ومحاولة خلق توازن بين قبائلهم حتى يسهل إخضاعهم.

ولدعم هذه السياسة تبنى الفاطميون أسلوب"**الترغيب والترهيب**" لتحقيق مآربهم السياسية والمذهبية،فقد حرصوا على استمالة القبائل المغربية المنضوية تحت لوائهم وبالغوا في إكرامها ومباركة أعمالها ووسعوا من إمتيازاتها(3) ،إلا أنهم كانوا لا يتوانون عن البطش بزعمائها إذا ما أحسوا منهم تقصيرا أو محاولة عصيان بيد

---

(1)النويري ، المصدر السابق،ص:304.

(2) حول سيطرة الفاطميين على بلاد المغرب راجع: القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، اليماني :سيرة الحاجب جعفر، أحمد بن ابراهيم النيسابوري، استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة في الجزائر لطلبه، نشره : و.ايفانوف ،مجلة كلية الآداب، للجامعة المصرية، مج4،ج2، القاهرة، 1936، لقبال :دور كتامة في تأسيس الخلافة الفاطمية، بوبة مجاني ، النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العهد الفاطمي ــ رسالة دكتوراه ــ إشراف: محمود إسماعيل عبد الرزاق ،جامعة قسنطينة ، قسم التاريخ، 1995.

(3)الداعي إدريس، المصدر السابق، ص:405

عشيرتهم حتى لا يثورون ضدهم ، كما فعل **عبيد الله**[1] **المهدي مع أبي زاكي الأجاني** المتآمر مع أبي عبيد الله الداعي[2] وأخيه أبي العباس عندما أوكل إلى عمه **أبي يوسف ماكنون بن ضبارة** ــ عامله على طرابلس ــ مهمة قتله.[3]

ويتضح من خلال سياسة الفاطميين في بلاد المغرب تجاه القبائل البربرية أنهم إختاروا منها القبائل العريقة التي تملك مورثا حضاريا كبيرا و لم توظف من قبل، بمعنى أنها حاولت إستثمار الطاقات الكامنة لهذه القبائل، واستغلال إمكاناتها المادية وقدراتها البشرية وأنساقها الإجتماعية لخلق عصبية منسجمة، تتمتع بهيبة كبيرة تمكنها من بسط نفوذها على المنطقة[4] .

ومن هنا فقد سلك الفاطميون سياسة متميزة تجاه القبائل البربرية وفقا لما يخدم مصالحهم ،وعملوا على تفادي اصطدام مصالح القبائل الموالية لهم ،فأوكلوا لكل منها مهمة بعيدة عن الأخرى ووازنوا بين إمتيازاتها ،وفي المقابل أقدموا على ضرب أعدائهم بعضهم ببعض أو ببعض حلفائهم كما فعلوا بزناتة عندما ألّبوا عليها صنهاجة لكسر شوكتها ودرء خطرها.[5]

وهكذا فقد إرتكزت السياسة الفاطمية على عصبية متنوعة ،حيث اعتمد الخلفاء في البداية على قبيلة كتامة لتثبيت أقدامهم في المنطقة وترسيخ مبادئ المذهب الإسماعيلي بين أفرادها،كما استندوا إليها في فتح مصر وانطلاقا منها ملكوا بلاد الشام والحجاز وهددوا العراق.

وامتنانا منها للتضحيات الجسام التي بذلتها كتامة في سبيل تحقيق هذه المنجزات واسترضاء لها ــ لبذل المزيد في خدمتهاــ عملت الخلافة على منحها إمتيازات خاصة،حيث قلدت بعض قادتها مناصب عسكرية وإدارية في الدولة وأقطعتهم أراضي واسعة "...وخرجوا من الحلية التي كانوا عليها،واتسعت

---

(1) حول ترجمته انظر : افتتاح الدعوة ، ص:36، سيرة الحاجب جعفر ، ص:111، ملوك بنو عبيد، ص:18 وما بعدها، النجوم الزاهرة ،ج4، ص:75، عيون الأخبار ، ص:143.

(2) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني المحتسب، وقيل أنه لم يكن محتسبا بل كان معلما للصبيان، أنظرسيرته في:افتتاح الدعوة ، ص:30، سيرة الحاجب جعفر ، ص:132، المقفى الكبير، ج4، ص:523، عيون الأخبار ، ص:147، شذرات الذهب ، ج1، ص:341، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، الزهري ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق : حاج صادق، طبعة دمشق، 1968، ص:147.

(3)القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة،ص:315، ابن أبي دينار، المصدر السابق ، ص:165.

(4)محمد الصالح مرمول ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1983، ص:155.

(5)مفاخر البربر ، ص:129

أموالهم ،وكثرت نعمهم لما أصابوا من الأعمال وملكوا من البلدان ،وأجرى عليهم ـــ المهدي ـــ مع ذلك الصلات وأصبغ عليهم العطاء.."[1]

وعلى الرغم من تحسن الأوضاع الإجتماعية للكتاميين وبروز بعض مظاهر الرفه عليهم، كالتأنق في الملبس والتفنن في المسكن بفضل احتكاكهم المستمر بالفاطميين إلا أنهم حرموا من إعتلاء المناصب الحساسة في الدولة عسكرية كانت أم مدنية[2] ،والتي أسندت إلى عناصر من الصقالبة والصقليين الذين لا عصبية لهم ولا ولاء إلا للخلافة أمثال: **الأستاذ جوذر** والقائد **جوهر الصيقلي** ، على عكس كتامة التي أكد بعض بطونها في مناسبات كثيرة ـــ سيأتي ذكرها ـــ أنهم غير مأموني الجانب ،ولا يتورعون عن الإستبداد بالأمر إذا ما أتيحت لهم الفرصة.[3]

وهنا يتجلى من جديد بأن تطور المجتمع وتحسن أحوال أفراده واتساع أموالهم، وأمنهم على قوتهم وأولادهم مقرون بما يحققونه من إنجازات عسكرية وسياسية،وأنه لا مكان بين كبرى قبائل المجتمع المغاربي لمن لا يعرف استثمار إمكاناته المادية والبشرية ، والظروف السياسية والمذهبية المحيطة به لإيجاد مكانة مرموقة في أوساطه.

وحتى بعد إنتقال الفاطميين إلى مصر فقد حرصوا على إبقاء هيبة قوية لكتامة بأن ولوها على طرابلس[4] ورفعوا عنها الضرائب لاسترضائها من جهة ،وكي تكون لهم عينا على الصنهاجيين من جهة أخرى[5] .

والأسلوب عينه إستخدمته الخلافة الفاطمية لاستمالة قبيلة صنهاجة، لاسيما أنها كانت في أمس الحاجة لخدماتها في ظل الظروف العصيبة التي مرت بها في أثناء ثورة " صاحب الحمار"، والهيبة الكبيرة التي صارت تتمتع بها هذه القبيلة ،فوجد فيها الفاطميون بديلا عن كتامة ـــ التي استنزفت الحروب كثيرا من أفرادها زيادة على كونها غير مأمونة الجانب ـــ فحاولوا إستثمار قوتها لبسط نفوذهم على الجهة الغربية لبلاد المغرب وضرب زناتة بهم كما سيأتي توضيحه.

---

(1)القاضي النعمان ، الإفتتاح، ص:302-303.

(2) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

(3) النويري ، المصدر السابق، ص:321-322.

(4)أسندت هذه الولاية إلى عبد الله بن يخلف الكتامي إلى غاية وفاة المعز ثم ألحقها نزار بن المعز بأعمال بلكين بن زيري ،أنظر: المقريزي،الخطط، ج1،ص:354.

(5) ورغم أن شيوخ كتامة أبوا الإمتثال لأمر المعز لدين الله بفرض الخراج عليهم ،إلا أن هذا الرفض أثلج صدر الخليفة الذي لم يكن يهمه ما يحصله من خراج بقدر ما كان يود الاطمئنان على ولاء كتامة،لأنه خشي من اتحادها مع صنهاجة واستقلالهما بالمنطقة.أنظر: المقريزي،الخطط ، ج1،ص:353-354

لكن السؤال المطروح: لماذا اختار الفاطميون صنهاجة لتقف إلى جانب كتامة لتنفيذ سياستهم بالمنطقة ؟

إلى جانب تشيع صنهاجة المبكر لآل البيت[1] والمكانة العسكرية المتنامية لهذا القبيل، يخيل إلي أن المعطى الإجتماعي ــ العرقي له دور بارز في الانسجام الكبير الذي أبداه الحلف الصنهاجي الكتامي في ظل الخلافة الفاطمية، ووقفت وراء ذلك جملة من العوامل أبرزها:

ــ التجانس الطبيعي بين بلاد صنهاجة وبلاد كتامة اللتان لا تفصل بينهما سوى جبال زواوة، مما جعل القبلتين تشتركان في كثير من العادات والتقاليد والخصائص الإجتماعية والإقتصادية.

ــ انحدار القبيلتين من نفس الفرع من البرانس[2]، وتشابه نمط معيشتهما الذي فرضته بيئتهما الجغرافية، والذي يعتمد على الاستقرار في قرى متناثرة بجبال المغرب الأوسط المطلة على مسارح فسيحة، وممارسة بعض الحرف كـــالحدادة والنجارة والصياغة والدباغة والصناعة الحربية ،إلا أنها تبقى في مجملها تقليدية لا ترقى إلى مستوى مناطق الحضر.

ــ العلاقات الودية بين الطرفين، إذ لم تشر المصادر إلى وقوع صدام بين كتامة وصنهاجة، وهو ما شجع الفاطميين على عقد هذا التحالف.

ــ سعي الفاطميين لاستثمار الصراع المستمر بين البرانس (كتامة وصنهاجة) والبتر البدو (زناتة) لتحقيق أغراضهم السياسية والمذهبية بالمنطقة، عن طريق دعم البرانس وتشجيع مناجزتهم لبدو زناتة الذين كثرت تحرشاتهم بمناطق الحضر فأرهبت الناس وسلبت أموالهم وأزهقت أرواحهم[3].

ولئن كان الخلفاء الفاطميون قد سعوا إلى توطيد العلاقة بين كتامة وصنهاجة لتجعل منهما كتلة متراصة تفرض بها سيطرتها على المنطقة،فإنهما سعتا بشتى الوسائل خلا الحربية منها من أجل الظفر برضا الخلافة وتدعيم مركزهما لديها.

ولعل ما ميز صنهاجة عن كتامة في علاقتهما مع الفاطميين أن الأولى لم تقم ولو بحركة تمرد واحدة ضدهم وبدت كتلة منسجمة محكمة البنيان، على عكس كتامة التي كثرت قلاقلها مما عزز مكانة صنهاجة على حسابها[4] ، ولو أن ذلك له ما يفسره إذ أن الأولى كان مركزها في تحسن مستمر ويتدعم بمرور الوقت على حساب كتامة، التي تراجعت مكانتها تدريجيا،وسرعان ما ترجمت تضمرها من هذا الوضع الجديد بالقيام بحركات تمرد.

---

(1) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:153

(2) المصدر نفسه، ج6، ص:148 ، 152.

(3) النويري ، المصدر السابق، ص:305-306.

(4) ابن الأثير ، الكامل ، ج8 ، ص:164.

وعلى الرغم من أن هذه السياسة القديمة ـــ الجديدة في قالبها قد أتت أكلها من خلال نجاح الخلافة في استمالة كتامة وصنهاجة لصفها، إلا أن زناتة ظلت ترفض الخضوع لها لاسيما بعد انضمام أعدائها الصنهاجيين إليها، وبقيت تثير الفوضى والقلاقل داخل البلاد حتى هددت الوجود الفاطمي نفسه في المنطقة مستعينة بأمويي الأندلس.(1)

وعلى العموم فإن طابع العداء الذي اتسمت به العلاقات الفاطمية الزناتية تمتد جذوره إلى مرحلة الدعوة ، عندما أقدمت زناتة على قتل رسل **الداعي إلى الإمام عبيد الله** بسجن سجلماسة(2) إلا أنها سرعان ما استدركت خطأها بأن أعلنت ولاءها للداعي ،ومع ذلك فقد احتالت لقتل عامله على تاهرت التي إرتكز نشاطهم عليها كثيرا(3) .

ولا يمكن أن ندرس العلاقات الزناتية الفاطمية المتوترة بمعزل عن الصراع التقليدي المستمر بين البدو البتر والبرانس الحضر، وفي مقدمته الصراع بين صنهاجة وزناتة لاسيما أمام الزحف المستمر للفاطميين إلى الغرب، وهو ما ضيق من مجالات تحرك زناتة وقطع عليها أرزاقها وألحق بها أضرارا جسيمة ،مما جلعها تحتمي بأمويي الأندلس حفاظا على مصالحها، وضمانا لأقواتها وسلامة أهلها.

و على الرغم من سعي الفاطميين الحثيث لإستمالة زناتة لصفهم ـــ لتيسير بسط نفوذهم على غرب بلاد المغرب والوقوف في وجه المحاولات المتكررة للأمويين من أجل السيطرة عليها ـــ إلا أنهم لم ينجحوا،ولعل ذلك يعزى إلى جملة من العوامل أهمها :

ـــ الإختلاف المذهبي بين الفاطميين الشيعة وزناتة الخارجية ثم السنية ، لاسيما بعد مساندتها لأمويي الأندلس(4).

ـــ تباين نمط المعيشة بين الطرفين ، خاصة بين حلفاء الفاطميين الرئسيين (كتامة وصنهاجة) وبين زناتة.

ـــ تأثر زناتة بالحركة الفاطمية في المغربيين الأدنى والأوسط وجزء كبير من المغرب الأقصى، فقد أنتزعت منها أراض واسعة ، وفقدت سيطرتها على كثير من الطرق التجارية ، وما بقي بحوزتها لا يجود إلا

---

(1) مفاخر البربر ، ص:129، السلاوي، المصدر السابق، ج1، ص:81.

(2)القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص:276 Fournel ,op-cit,p:205

(3)الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص:157، كما أدرك المهدي من جهته منذ البداية أهمية مدينة تاهرت فحاول اتخاذها كمركز للتشيع بالمغرب الأوسط ،وارتكزت سياسته من أجل السيطرة عليها على ضرب قبيلة زناتة الرابضة بها بقبيلة مكناسة حليفة الفاطميين من خلال إسناد أمر إدارة هذه الولاية لأحد رجالاتها المدعو مصالة بن حبوس منذ 299هـ/912م، المصدر نفسه، ص:214.

(4)مفاخر البربر ، ص:129

بالضروري من الأقوات، ولا يكفي لسد حاجات القبيلة وأنعامها[1].

ـــ إيثار زناتة لحياة الحرية والإستقلال بعيدا عن قهر الدول وأيدي السعاة ،وهو ما يفسر مقاومتها المستمرة لكل الوافدين على المنطقة قبل الفتح الإسلامي[2].

واحتدم الصراع بين الطرفين لاسيما بعد إقدام مغراوة على قتل مصالة بن حبوس والي عبيد الله المهدي على تاهرت سنة312هـ/924م، فجرد المهدي ضدهم حملة ضخمة سنة315هـ/927م فهزمهم واسترجع تاهرت ، ثم زحف على إمارة الأدارسة في جراوة ونكور ،وانصرف قافلا إلى المهدية[3] .

وقد بلغ النشاط الزناتي ضد الخلافة الفاطمية أوجه في أثناء ثورة " صاحب الحمار" حيث ألحقوا بها هزائم نكراء واستباحوا رعيتها وحصروا وجودها في المهدية ، وكادوا يستأصلوا شأفتها لولا استماتة المخلصين للمذهب الإسماعيلي من صنهاجة وكتامة ونجدتهم للخليفة المنصور.[4]

ورغم نجاح الفاطميين في القضاء على هذه الثورة إلا أنها كانت لها أثار وخيمة على المجتمع المغربي قاطبة لاسيما المجالات التي كانت مسرحا لكثير من أطوارها،فقد أضحى الناس يعانون الفاقة والضنك ، وزاد من حدتهما سياسة الفاطميين المالية القاسية بدعوى دعم الدولة ،وإكمال مشروع فتح مصر وحكم العالم الإسلامي.[5]

وفي ظل هذا الواقع المزري تفشى الفقر وتدني المستوى المعيشي، وفتحت الأهراء، وكثر قطاع الطرق،وساد الغلاء، وانعدم الغذاء،فقد وصل ثمن عليق الدابة إلى دينار ونصف دينار،كما وصل ثمن قربة الماء في أثناء الثورة في بعض المناطق إلى دينار[6].

ويبدو أن وقوع بعض مجالات تحرك زناتة على نقاط التماس بين الفاطميين والأمويين هي التي فرضت عليها هذا الواقع المأساوي ،إذ ما كادت تنتهي من حرب حتى تدخل في أخرى، وكثيرا ما وجدت نفسها بين مطرقة الفاطميين وسندان الأمويين ،وعلى هذا الأساس فقد انبنت سياستها على موالاة السيف الأقرب منها ،فتارة تنحاز إلى الأمويين وتحتمي بهم وتارة أخرى تعلن ولاءها للفاطميين وتستجير بهم ، تبعا

(1) راجع حول هذا الموضوع ، ص : 92 وما بعدها من هذا الفصل.

(2) حسن أحمد محمود ، المرجع السابقن ص: 70-71.

(3)ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1،ص:218.

(4)ابن حماد ، المصدر السابق، ص:27، المقريزي ، الخطط، ج1، ص:352.

(5) بوبة مجاني ، المرجع السابق، ص:7.

(6) سعد زغلول،تاريخ المغرب، ج3، ص:187.

للتغيرات السياسية والمذهبية والعسكرية على الساحة المغربية.[1]

ويمكن إعتبار فترة حكم المعز لدين الله الفاطمي مرحلة قائمة بذاتها في تاريخ العلاقات الزناتية ــ الفاطمية ،فبالرغم من محاولته إستعادة نفوذه على الجزء الغربي لبلاد المغرب إلا أنه حرص على موادعة زناتة وتطييب خاطرها والتخفيف من وطأة التوتر بينهما ،وكللت سياسة الإعتدال هذه ببعض النجاح النسبي بأن قلّت حركات التمرد الزناتية ضده ،واتصل به زعماؤها واستقروا في حضرته أمثال : **محمد بن الخير الزناتي** سنة342هـ /953م.[2]

ومن مظاهر حسن الجوار وسعي المعز لإستمالة زناتة إلى صفه وإرباك أعدائه الأمويين بإحداث تصدع في معسكرهم ، طلبه من بلكين بن زيري أن يرجع لزناتة ما غنمه من أموالها وأهلها إثر حملته عليها سنة361هـ /972م على الرغم من استطالتهم عليه وإيوائهم لعامله **جعفر بن علي حمدون الأندلسي** ــ صاحب المسيلة ــ وقتلهم لأحد أعظم قواده " **زيري بن مناد الصنهاجي** ".[3]

وصفوة القول أن السياسة الفاطمية تجاه القبائل المغربية اتسمت باللين إزاء القبائل المنضوية تحت لوائها وبالقسوة أحيانا إذا ما رأت منها تقصيرا أو محاولة عصيان ، في حين شددت لهجتها اتجاه القبائل المناوئة لها وضربت بعضها ببعض، كما أنها كرست الصراع الإجتماعي ــ الإقتصادي التقليدي بين البدو البتر والحضر البرانس.

ب ــ صنهاجة والخلافة الفاطمية :

(ب ــ1) ــ عوامل التقارب الصنهاجي ــ الفاطمي:

في الوقت الذي تمكنت فيه الخلافة الفاطمية من بسط نفوذها على مناطق واسعة من بلاد المغرب بدأت قوة صنهاجة تتنامى في المنطقة ،وأضحت تشكل كتلة لها وزن كبير في تفاعل الأحداث ، واستطاعت بفضل تنظيمها المحكم وذيوع صيت إنتصاراتها أن تلفت أنظار الفاطميين إليها لاسيما في ظل صراعهم مع أمويي الأندلس.

وعلى الرغم من إشارتنا في مواطن سابقة بأن جذور التحالف الصنهاجي ــ الفاطمي تمتد إلى مرحلة الدعوة ،إلا أن إحتدام الصراع السني ــ الشيعي في المنطقة عجل بخروج هذا التحالف إلى النور الذي كان

(1)النويري ، المصدر السابق، ص:305. وتتضح هذه السياسة جليا عند اطلاعنا على جواب موسى بن أبي العافية المكناسي وهو يبرر لزيري بن مناد سبب موالاته للأمويين حيث قال :" ...**يا مولاي إنما استعملت نفسي لبني أمية لأرهب بهم على زناتة ،وإن قد أتاني الله بك وجمع بيني وبينك،فأنا عبدك ومنقطع إليك ،وغوثك أنت قريب وسيف قريب مني أمنع من سيف بعيد**.."

(2)مرمول ، المرجع السابق، ص:168.

(3) ابن حيان ، المصدر السابق، ج3، ص:37، النويري، المصدر السابق،ص:308

له دور بارز في حسم التنافس على الجبهة الغربية لبلاد المغرب، وقد ساهمت عدة عوامل في دعم هذا التحالف وإعطائه ديناميكية أكبر،أبرزها:

ـــ الولاية القديمة التي لعلي بن أبي طالب ـــ y ـــ على صنهاجة ، فقد أشار ابن خلدون[1] أن لها تشيعا قديما لآل البيت كما لمغراوة ولاء لعثمان بن عفان y إلا أننا لا نعرف سرّ هذا التشيع ،وإلى جانب ذلك فقد وجدت الحركة العلوية صداها منذ وقت مبكر في بلاد صنهاجة بدليل وجود عدة مراكز وحواضر علوية على أراضيها " **كحائط حمزة**"[2] المنسوبة إلى **حمزة بن الحسن بن سليمان العلوي**،ومدينة " جزائر بني مزغنة " التي تولى أمرها **حمزة بن إبراهيم العلوي** قبل أن يستولي عليها زيري بن مناد.[3]

ـــ وجود عدو مشترك للطرفين ممثلا في " زناتة "، إذ أن الصراع بين الصنهاجيين والزناتيين قديم ويندرج ضمن الصراع التقليدي والمستمر بين البدو والحضر للسيطرة على الطرق التجارية والأراضي الخصبة[4] ، أما الفاطميون فقد توترت علاقاتهم بالزناتيين منذ بداية الدعوة الإسماعيلية[5] وزادت سوءا عندما أعلنت زناتة ولاءها للأمويين في الأندلس[6] ،ومن ثم فقد وجدت صنهاجة في الفاطميين حليفا سياسيا وعسكريا للقضاء على خصومهم من زناتة ،كما رأى فيها الفاطميون درعا واقيا من أي خطر زناتي يحدق بهم من الغرب من جهة ،وحتى تنتقم منهم لتحالفهم مع بني أمية من جهة أخرى، لذلك كثيرا ما كانت تدفع صنهاجة لحرب زناتة.

ـــ سعي صنهاجة للعب دور فاعل في المعترك السياسي والعسكري وحتى الإقتصادي في بلاد المغرب خاصة أنها تحوز على كل الإمكانيات التي تؤهلها للإضطلاع بهذا الدور، من حصانة طبيعية وموقع إستراتيجي وعصبية قبلية وجيش قوي ، فوجدت في مناصرة الحركة الفاطمية متكأ للوصول إلى هذا المبتغى.

ـــ رغبة الخلافة الفاطمية في توسيع حلفها مع كتامة ـــ العصب العسكري للدولة ـــ إلى قبيلة صنهاجة لسببين اثنين:

§ أولهما كثرة التحرشات الزناتية على الحدود الغربية للخلافة وتهديدهم المستمر للطرق التجارية المؤدية لبلاد السودان، ورغبة الفاطميين في تركيز اهتمام كتامة على فتح مصر.

---

(1) العبر ، ج6، ص:153، ولا يستبعد سعد زغلول أن تكون هذه الولاية مصطنعة لتأصيل التحالف الفاطمي ـــ الصنهاجي ، ضد التحالف الزناتي ـــ الأموي ، على الرغم من وجود مراكز علوية ببلاد صنهاجة سبقت هذه الفترة ، أنظر ، تاريخ المغرب ، ج3، ص:231.

(2)ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:85

(3)ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص:215.

(4) Gautier ,op.cit ,p :229.

(5) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة، ص:280

(6)مفاخر البربر ، ص:129.

§ وثانيهما حرص الخلافة على عدم إتاحة الفرصة لكتامة للتمرد عليها ـــ لا سيما بعد فتور العلاقة بينهما إثر مقتل الداعي[1]، وقتل المهدي لألف من الكتاميين في القيروان[2] ـــ بإيجاد حليف يضاهيها مكانة حتى لا يغتر قادتها ويشعرون أنهم أصحاب الفضل وحدهم في صنع منجزاتها من جهة ، وإحكام سيطرتهم على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد السودان التي كثيرا ما تهددها كتامة من جهة أخرى.

ـــ حاجة الفاطميين المستمرة إلى الصنهاجيين بما يمثلونه من ثقل عسكري وإقتصادي لتثبيت أقدامهم في بلاد المغرب وتأمين حدودهم الغربية ،فقد أشارت النصوص التاريخية إلى كثير من المساعدات المادية والإقتصادية التي قدمتها صنهاجة للفاطميين لاسيما خلال " **ثورة صاحب الحمار** "[3] ،والتي كان لها أثر بالغ في فك الحصار الخارجي عن المهدية [4] كما سيأتي تفصيله لاحقا.

ـــ وقد يفسر التقارب الفاطمي الصنهاجي المبكر برغبة الخلافة في إيجاد حليف لها ممن به الوثوق ويحظى بهيبة المغاربة كلهم ويبقي على ولائه لها أطول فترة ممكنة[5] ،وذلك ما لمحوه في صنهاجة دون غيرها،وربما عملت على تهيئتها لأداء هذا الدور على أكمل وجه ،ولو أن هذا الطرح يحتاج إلى نوع من التحفظ ذلك أن صنهاجة أثبتت تاريخيا بأنها تسدي خدماتها وفقا لما يخدم مصالحها بغض النظر عن المذهب الذي تنضوي تحته ،وهذا ما يبرر انتحالها في البداية للمذهب الخارجي[6] ، ثم تبنيها فيما بعد للمذهب السني في ظروف غامضة ،فصارت راعية لمصالح العباسيين تحت إمرة الأغالبة[7] ، وهاهي الآن تتحول تبعا لمعطيات سياسية وعسكرية جديدة إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي[8] ، كل هذا يرجح أن صنهاجة استطاعت بفضل حنكة قادتها وحسن تحينها للفرص وتعاظم قوتها وذيوع صيت إنتصاراتها أن تفرض نفسها على الفاطميين، الذين

(1) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص:316.

(2) المصدر نفسه، ص:322.

(3)هو أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني ، أصله من قسطيلية ،وولد بكوكو إحدى حواضر السودان ، كان والده تاجرا وأمه هوارية ، نشأ وتعلم بتوزر،وأخذ بمذهب النكارية ،وارتحل إلى تاهرت ليتعمق في معرفة أسراره، ثم اشتغل بالتدريس والاحتساب على العامة من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلقي عمله استحسانا من الناس والتفوا حوله، ولما كثر أتباعه واستفحل أمره أعلن الثورة على الخلافة الفاطمية ،أنظر: القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة، ص:332،المالكي ، المصدر السابق، ج1، ص: 242، ابن حماد،المصدر السابق، ص: 19 ، ابن عذاري ، البيان المغرب، ج1 ، ص:223، ابن الأثير، الكامل، ج7،ص:48 ، ابن خلدون ، تاريخ الدول، ج2،ص:17 (ط.دوسلان)،المقريزي ، الاتعاظ، ج1، ص:251-252 ، ابن عميرة ، المرجع السابق، ص:197وما بعدها.

(4)مدينة كبيرة استحدثها عبيد الله المهدي وإليه نسبت ، تبعد عن القيروان بـــ"60 ميلا" ويحيط بها البحر من ثلاث جهات ،ويدخل إليها من الجانب الغربي ،وصارت منذ اتخاذها عاصمة للفاطميين عام308هـــ /920-921م مقصد السفن من المغرب والأندلس وأوروبا ، ويحيط بها سور مبني بالحجارة يتخلله باب من حديد ، أنظر : ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:73 ، البكري، المصدر السابق، ص:29، الإستبصار ، ص:117، الحميري ، المصدر السابق، ص:561.

(5)ابن خلدون ، العبر، ج6،ص:155.

(6)النويري ، المصدر السابق، ص:212.

(7)ابن خلدون، العبر ، ج6، ص:155..

(8)اليماني ، المصدر السابق، ص:131.

اطمأنوا إليها وقربوها ورأوا فيها خير خليفة لهم على المنطقة.[1]

ومما تقدم نخلص إلى أن التحالف الصنهاجي ــ الفاطمي اتسم بطابع عسكري ـــ استراتيجي غذته المصالح المشتركة للطرفين ،وهو ما كان له أثر عميق في تغيير الواقع السياسي والمذهبي المغربي، كما كان لهذا التحالف دور كبير في تبلور الحياة الصنهاجية، فاستقامت أحوال الناس وكثرت أموالهم لما أصابوا من الأعمال وبدت ملامح التحضر عليهم.

(ب ــ2)ــ مكانة صنهاجة لدى الفاطميين:

كما أشرت في بداية هذا الفصل أنه تفاديا للتكرار فقد عمدت في البداية إلى تسليط الضوء على المكانة العسكرية لصنهاجة لدى الفاطميين، التي يفضلها تنامت مكانتها السياسية في كنفهم،وفي عنصر آخر مكمل تطرقت إلى أثر هذه الحظوة العسكرية السياسية على المجتمع الصنهاجي.

- **المكانة العسكرية:**

إهتم الفاطميون كثيرا بالجانب العسكري لدولتهم الفتية لاسيما أنهم كانوا على دراية تامة بأن وجوهم ببلاد المغرب كان بين فكي كماشة ، الخلافة العباسية من الشرق والبربر على كثرة تقلباتهم من الغرب.

ومن ثم فقد حرص الخلفاء على انتقاء العناصر المشكلة لقوتهم العسكرية التي اعتمدت على معايير دقيقة كالقوة العسكرية والبأس وشدة التشيع[2] ، و لم يتيحوا الفرصة للمرتزقة حتى يتعذر على العدو غرس بذور الشقاق بين أفرادها أو ترك أي فرصة للمساومة.

وعلى الرغم من قوة كتامة وشدة ولائها المذهبي والعسكري للفاطميين ،إلا أن ذلك لم يمنع من رقي مكانة صنهاجة في كنفهم التي ما فتئت تنمو وتتطور حتى أضحت جزءا لا يتجزأ من مخططاتهم العسكرية لاسيما في الجبهة الغربية حيث يتركز ألد أعدائهم.(**أنظر الملحق رقم 12**)

وفي ظل غياب دلالات واضحة عن أي تعاون صنهاجي ـــ شيعي على عهد عبيد الله المهدي ، فقد تدعمت مكانة صنهاجة العسكرية في المنطقة بانتصار زيري بن مناد على خصومه من صنهاجة وزناتة وإخضاعهم لسلطته على ما يشير إليه ابن شداد.[3]

(1)ابن حماد ، المصدر السابق، ص:27.

(2)القاضي النعمان ، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام،تحقيق: آصف بن علي وأصغر فيضي، دار المعارف،القاهرة، 1963، ج1، ص:358، ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:155.

(3)النويري ، المصدر السابق،ص:304

ويبدو أن سكوت الفاطميين على تنامي قوة صنهاجة ينم عن رغبة جامحة في الإستعانة بهم لضرب خصومهم من زناتة وبني أمية(1) ،ويتجلى ذلك من خلال مباركة الخليفة الفاطمي الثاني القائم إختطاط زيري بن مناد لمدينة أشير سنة324هـ /953م و لم يتوان عن إمداده بمواد البناء والمهندسين.(2)

ولئن كان بناء مدينة أشير ضربة قوية لقبيلة زناتة وعاملا حاسما في درء خطرها على المغرب الأوسط، فإن الفاطميين رأوا فيها درعا واقيا من تحرشات زناتة وسدا منيعا لوقف المد الأموي نحو الشرق.(3)

ومنذئذ أضحت صنهاجة قوة محركة في الإستراتيجية العسكرية للخلافة الفاطمية ،والقوام الرئيس لطلائع جيوشها نحو بلاد المغرب وربما حتى مصر وصقلية.

وقد كان لشخصية زيري القوية ونظرته الثاقبة دور كبير في تنامي قوة صنهاجة بفضل حسن تحينه للفرص وسياسته في لفت أنظار الفاطميين إليه(4) ، وذلك ما جسده ميدانيا عند اندلاع ثورة صاحب الحمار فسطع نجمه كمنقذ للخلافة من الخطر الخارجي الذي أوشك على استئصال وجودها ببلاد المغرب.

فقد أبلى الصنهاجيون خلال هذه الثورة (5) بلاء حسنا وأسدوا خدمات جليلة للخلافة ،من خلال مشاركتهم الفعلية في فك الحصار الخارجي عن المهدية بدعوة من المنصور الفاطمي ،حيث أمده زيري بن مناد بألف حمل من الحنطة مصحوبة بمائتي فارس وخمسمائة من عبيده.(6)

كما شارك زيري بن مناد على رأس خمسمائة من جنده في مطاردة فلول أبي يزيد النكاري حتى تمكنوا من القبض عليه قرب قلعة كيانة(7) سنة336هـ /947م، فنقل إلى القيروان ونكل به وحشي جسده قشا ثم صلب.(8)

---

(1)ابن الأثير ، الكامل ، ج7، ص:47.

(2)النويري ، المصدر السابق، ص:304.

(3)أدرك الزناتيون منذ الوهلة الأولى خطر بناء أشير ، فجردوا حملة قوية عليها ، قبل أن يستفحل أمرها بزعامة كمات بن مديني الزناتي ،إلا أن الصنهاجيين استماتوا في الدفاع عنها حسب ما نقله إلينا ابن شداد.أنظر: المصدر نفسه، ص:307.

(4)ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج1،ص:202، Fournel,op-cit,p:206

(5)تزعم هذه الثورة أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني سنة 332هـ/943م،وانطلقت من جبال أوراس التي سيطر منها على بلاد الزاب سنة333هـ/944م، ثم زحف على القيروان ودخلها بعد معركة الأربس ،وأغار منها على باجة وتونس ، وبها تحالف مع المالكية لمناجزة الشيعة الإسماعيلية ، ليركز بعدها جهده على المهدية فضرب حولها حصارا شديدا استمر حتى سنة334هت/945م ، فلما اشتد الأمر على الفاطميين طلبوا مساعدة كتامة وصنهاجة فما لبثت الكفة أن مالت لصالحهم،وفكوا الحصار عن عاصمتهم ،وطاردوا فلول أبي يزيد حتى أخمدوا ثورته سنة336هـ/948م لمزيد من التفاصيل أنظر: المالكي ، المصدر السابق، ج1، ص:242-243 ، ابن حماد ، المصدر السابق، ص:27، ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص:86-87، المقريزي ، الخطط، ج1، ص:352، الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص:266، -Charbonneau(M),"Abou-yazid Mokhelled Ibn-Kidad de Tademket",J.A,Nov1852,p:471-511

(6)ابن حماد ، المصدر السابق، ص:27.

(7)اختلفت الروايات في تسمية القلعة التي لجأ إليها "**صاحب الحمار**" ، فقد أوردها القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة، ص:333، باسم قلعة كناية، وعرفت عند ابن حماد ، المصدر السابق، ،ص:30 بـ"**قلعة كيانة**" ، وإلى ذلك ذهب ابن خلدون ، العبر ج2، ص:22 (ط.دوسلان) ،أما ابن الأثير، الكامل ، ج6، ص: 310 فقد ذكرها باسم "**قلعة كتامة**".

(8)الداعي إدريس، المصدر السابق، ص:468.

ويعد الإسهام الفعال لصنهاجة المغرب الأوسط في إخماد فتيل ثورة صاحب الحمار أوج الخدمات التي قدمتها للخلافة الفاطمية حتى صار زعيمها زيري بن مناد مقدما لديها ،وذلك ما نقله لنا ابن حماد[1] في قوله:**".. ونزل إسماعيل في طرف صنهاجة ...ثم توجه إلى حائط حمزة، فنزل هناك وفرق الأرزاق وأجزل العطايا،ووصل إليه زيري بن مناد في عساكر صنهاجة فوصله وفضله وخلع عليه ثيابا كثيرة من لباس وأعطاه من الطيب والطرائف الملوكية ما لا يحيط به الوصف ولا يحيطه الحصر...".**

ويتجلى لنا من خلال هذا النص مدى رضى الخلافة عن خدمات صنهاجة،والتي جعلت المنصور يأبى إلا أن ينزل في أحد مراكزها المعروف بحائط حمزة ويكافئها عن مجهوداتها الجبارة في إخماد ثورة صاحب الحمار ويشجعها على مواصلة نشاطها بإخلاص وتفان.

ومنذئذ أضحى زيري بن مناد مقدما لدى الفاطميين ومن كبار سواعدهم، وظفر منهم بعطايا وثياب وخلع وفيرة قلما حصدها غيره، وتدعم مركز قبيلته وعلا شأنها وصارت محل عناية خاصة من خلال استفادتها المستمرة من هبات وهدايا الخلافة[2].

وقد ترجم المنصور رضاه عن المجهودات الكبيرة التي بذلها زيري في سبيل نصرة المذهب الشيعي الإسماعيلي أن بارك زعامته على صنهاجة وعقد له على قومه وزاد له تاهرت وأعمالها ، وأطلق يده على ما يفتحه من بلاد زناتة.[3]

وعلى أية حال فإن مشاركة الصنهاجيين ضمن الحملات العسكرية للفاطميين لم تتوقف عند هذا الحد ، فقد كان لهم ذكر حسن في إخضاع قبائل بني كملان ومليلة وهوارة بجبل أوراس سنة 342هـ/953م، فسير إليهم زيري ابنه بلكين في جيش عظيم فلقيهم عند باغاية فظفر بهم ثم انصرف إلى أشير.[4]

ويستنتج الدارس للنشاط الصنهاجي أن اتساع نفوذ القبيلة قد اقترن بما تقدمه من خدمات للفاطميين،إلا أن الوضع أضحى ينبئ بإحتدام الصراع بين صنهاجة وزناتة التي تعاظمت قوتها في المنطقة وسيطرت على جزء كبير منها وامتد نفوذها حتى تاهرت.[5]

(1)أخبار ملوك بنوعبيد ، ص:27-29.
(2) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(3)ابن ظافر الأزدي ، المصدر السابق، ج1،ص:33
(4)ابن حماد ، المصدر السابق، ص،33
(5)الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص:507.

وفي ظل هذه الظروف حاول **المعز لدين الله**[1] الفاطمي أن يستثمر القوة العسكرية الضخمة لصنهاجة في إستعادة نفوذه على الجبهة الغربية ، حيث أقدم على تجريد زيري من كل أعماله إلا أشير وأطلق يده على ما يفتحه من بلاد زناتة بغية دفعه لمحاربتها ودحض خطرها وإيقاف زحفها نحو الشرق.[2]

وتجسيدا لهذه الخطة جرد المعز حملة عسكرية ضخمة نحو المغرب سنة347هـ /958م بزعامة **جوهر الصيقلي**[3] ،وأمره أن يصطحب معه زيري بن مناد الذي كان له الفضل في فتح مدينة فاس[4] ، فبعد طول حصار قرر زيري اختراق أسوار المدينة بواسطة السلالم فغشي خصومه ليلا وأثخن فيهم القتل حتى فتحت المدينة،ولما اتصلت أخباره بالمعز سرّه ذلك وعقد له على تاهرت وأعمالها وشجعه على حرب زناتة، وهنا تظهر جليا السياسة الفاطمية تجاه القبائل البربرية المناوئة لها.[5]

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من بطون صنهاجة من ظل على عدائه القديم لتلكاتة وخلفائها الفاطميين وبقوا يغذون الثورات التي تقوم ضدهم ، ومن ذلك مشاركة أحد بطون صنهاجة رفقة عجيسة وزواوة في ثورة اندلعت بجبل أوراس، لكن جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي تمكن من إخمادها وإلقاء القبض على زعيمها.[6]

وفي الأخير نخلص إلى أن مكانة صنهاجة العسكرية كانت تتدعم من معركة لأخرى ، حتى أضحت إحدى ركائز الخطط العسكرية للخلافة الفاطمية التي استثمرت قوتها لبسط نفوذها على مناطق واسعة من بلاد المغرب وضرب خصومها من زناتة وبني أمية.

---

(1)هو أبو تميم معد بن إسماعيل الملقب بالمعز لدين الله، ولد بالمهدية سنة319هـ/ 930م ولي الخلافة بعد وفاة أبيه س341هـ/962م، حول ترجمته أنظر: ابن حماد ، المصدر السابق، ص:40، ابن ثغري ، المصدر السابق، ج4، ص:69، ابن الأثير ، الكامل ، ج7، ص:66، الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص:469، ابن العماد الحنبلي ، المصدر السابق،ج1، ص:262.

(2)السلاوي ، المصدر السابق، ج1 ، ص:200.

(3)هو أبو الحسين جوهر بن عبد الله الصيقلي ، دخل في خدمة الخلافة الفاطمية واشتغل كاتبا ، ثم اختاره المعز قائدا لجيوشه ،وإليه يعزى فتح مصر وبناء القاهرة سنة 358هـ/969م، لمزيد من التفاصيل أنظر: العزيزي الجوذري ، المصدر السابق،ص:40، المقريزي، الخطط ، ج1، ص:350-351، الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص:602.

(4)ذكر صاحب الاستبصار أنها أعظم مدينة من غرب مصر إلى آخر بلاد المغرب ، وقد أسست على ضفة وادي فاس سنة192هـ /808م على عهد إدريس بن إدريس العلوي،وبها اختط جامع القراويين الذائع الصيت ، حولها أنظر: الاستبصار ،ص:180، البكري ، المصدر السابق، ص:115، الحميري ، المصدر السابق، ص:464، الزهري ، المصدر السابق، ص:193.

(5)الداعي إدريس ، المصدر السابق،ص:602.

(6) العزيزي الجودري ، المصدر السابق، ص:101.

المكانة السياسية:

اتسم نظام الحكم عند الفاطميين بالمركزية ،وكانت السلطة المطلقة بيد الخليفة ، فهو الآمر الناهي ومصدر كل القوانين والتشريعات والمرجعية الدينية والدنيوية لكل ما شكل من أمور الرعية.

ولما كان من المتعذر عليه أن ينظر بنفسه في كل المسائل العالقة بمختلف الأقاليم فقد صار لزاما على الخليفة أن يعين أعوانا له في المناطق الخاضعة لنفوذه ،ومن ثم قسمت الرقعة الجغرافية للخلافة إلى ولايات يرأس كل منها وال يساعده قاض وصاحب خراج.(1)

وكان الخليفة يشرف بنفسه على تعيين الولاة ويختار لهذا المنصب أكفأ رجالاته وأقدرهم على تحمل المسؤولية ،وأول من نظّر لهذه السياسة ـــ حسب القاضي النعمان ـــ هو الخليفة الأول عبيد الله المهدي الذي جعل على أقاليم دولته كبار أنصاره والموالين لمذهبه خاصة من كتامة.(2)

وعلى الرغم من أن صدق التشيع والتفاني في خدمة الدولة وإبراز قدرات عالية في الإدارة السياسية والعسكرية(3) وحتى بذل أموال طائلة أحيانا لكسب رضا الخليفة(4) تعد شروطا رئيسة لاعتلاء منصب الولاية، فإن زيري بن مناد استغل الظروف العصيبة التي مرت بها الخلافة وبذل جهودا مظنية في فك الحصار عنها، وكانت النتيجة أن باركت الخلافة ولايته على أشير وما حولها من أعمال.(5)

وعلى خلاف الأقاليم الأخرى حظيت أشير بمكانة سياسية مرموقة لدى الفاطميين وظفرت بإمتيازات لم تمنح لغيرها، فقد أقدم زيري بن مناد بعد اختطاطه لأشير على سك عملة صارت أساسا للمعاملات التجارية بدلا من أسلوب المقايضة، كما أعاد ترتيب الجيش وأجرى عليه الأرزاق.(6)

وبهذا تبلور الكيان الصنهاجي من جماعة منظمة إلى إمارة مستقلة ذاتيا في كنف الخلافة الفاطمية تتمتع بمختلف رموز السيادة ،من: عملة وإقليم واضح المعالم وسلطة وشعب وجيش نظامي وعاصمة،وربما ارتقت في أحيان كثيرة إلى دولة كاملة النمو قادرة على الدفاع عن حدودها وإقامة علاقات خارجية خاصة بهـــا،

---

(1)القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة، ص:303

(2)المصدر نفسه، ص:302.

(3)ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:155

(4) العزيزي الجوذري ، المصدر السابق،ص:40.

(5)ابن خلدون ، العبر ، ج6،ص:155.

(6)النويري ، المصدر السابق، ص:305

وهذا ما جعل بعض المؤرخين والجغرافيين[1] يعتبرون **زيري بن مناد** أول ملوك صنهاجة ببلاد المغرب،وإليه نسبت الدولة التي خلفت الفاطميين على المنطقة على الرغم من أن مؤسسها هو بلكين بن زيري.

والواقع أن المكانة السياسية لصنهاجة في المغرب الفاطمي ارتبطت ارتباطا وثيقا بمكانتها العسكرية ، فكلما حققت إنتصارات ميدانية تدعمت سياسيا باتساع المناطق الخاضعة لسلطتها.

وكثيرا ما كان الخلفاء الفاطميون يترجمون رضاهم عن منجزات صنهاجة العسكرية بتوسيع إمتيازاتها وضم المناطق التي فتحوها لسلطتها ، فاتسع نطاقها وصار يشمل: **أشير ، تاهرت وأعمالها، باغاية وأعمالها، وأجزاء كبيرة من بلاد الزاب.** [2]

ومنذئذ صار لصنهاجة نفوذ كبير في السياسة الفاطمية لاسيما أن الفضل يعود إليها في بسط نفوذها عل مناطق واسعة بالمغربين الأوسط والأقصى، و ردع التحركات المروانية ـــ الزناتية بالمنطقة.

وعلى الرغم من تجريد المعز لزيري بن مناد من الأعمال التي كان يليها عدا أشير ،إلا أن ذلك لا يعد انتقاصا من مكانته بقدر ما هو لفت لأنظار صنهاجة إلى تحركات زناتة واستفحال أمرها، بدليل استدعاء المعز لزيري وتودده إليه بهدايا سنية. [3]

وعلى ضوء هذا الواقع زحف زيري على زناتة وأثخن القتل في أهلها ودوخ بطونها ثم انصرف قافلا إلى قاعدته ، فسرّ المعز بنصره وأعاد له الإعتبار بأن ضم تاهرت إلى أعماله.[4]

وعلى الرغم من أن مقتل زيري بن مناد يعد خسارة كبيرة لصنهاجة إلا أن شخصية ابنه بلكين لا تقل عنه شأنا ، فقد أظهر قدرات عسكرية وسياسية كبيرة واجتمع تحت يده ما لم يتح لوالده ، وعرف سلطان صنهاجة في عهده أقصى توسع له في كنف الخلافة الفاطمية ،وصار يشغل : **تاهرت، أشير ، المسيلة ، بسكرة، طبنة باغاية ،ومجانة.**[5]

وكان دأب الخلفاء الفاطميين في المرحلة المغربية التشدد حيال ولاتهم إلى حد البطش بهم إذا ما أحسوا منهم تقصيرا أو محاولة عصيان ،إلا أن أمراء صنهاجة حرصوا على إرضائهم واستمالة قلوبهم إليهم

(1) ابن خلكان ، المصدر السابق، ج2، ص:91، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص:68.
(2). النويري، المصدر السابق، ص:310.
(3) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:154.
(4) ابن حماد، المصدر السابق، ص: 40.
(5) النويري، المصدر السابق، ص:310.

بالتفاني في خدمة دولتهم حتى اطمأنوا لهم فدنوهم وقربوهم إلى أن تدعم مركزهم لديهم.[1]

ومن مظاهر تنامي قوة صنهاجة سياسيا أن بلكين بن زيري صار مقدما لدى الفاطميين ،وأضحى يشفع في وجوه الناس على غرار شفاعته في ابن نوح الثائر على الخلافة إثر مقتل شيخ الإباضية **أبي القاسم يزيد ابن مخلد الوسياني** سنة358هـ/963م فقبل منه المعز شفاعته وأطلق سراح ابن نوح.[2]

وقصارى القول أن أعظم إنجاز سياسي حققته صنهاجة في ظل الخلافة الفاطمية هو ظفرها بشرف نيابتها على إفريقية والمغرب على حساب قوى لا تقل عنها مكانة على الساحة السياسية المغربية.

انعكاساتها على المجتمع الصنهاجي:

في الواقع أننا نفتقر إلى النصوص التاريخية التي تفيد الجانب الإجتماعي للفاطميين ببلاد المغرب[3]، ويصبح الأمر أكثر تعقيدا إذا ما تعلق بحياة قبيلة داخل دولة مترامية الأطراف ، اللهم بعض الإشارات التي لا تكفي للإحاطة بجميع جوانب الموضوع.

وعلى هذا الأساس ونظرا لطبيعة الوجود الفاطمي ببلاد المغرب فقد كان للقوة العسكرية وسعة العصبية دور بارز في تحديد مدى رفعة المكانة وسمو المنزلة بين القبائل،ومن ثم فرض ذهنيتها وطابعها الإجتماعي على المناطق التي تدين لها.

ومن هنا فإن دراستنا لتبلور المكانة السياسية العسكرية لصنهاجة وآثارها على واقعها الإجتماعي سيتم في إطار نقلتها التدريجية من الحياة القبلية إلى حياة المدنية والتحضر، والتبلور المستمر الذي شهدته بلاد المغرب في نظمها السياسية والإقتصادية وأنساقها الإجتماعية بمرور الوقت.

وتجدر الإشارة إلى أن سياسة الإستثمار الحربي التي انتهجتها صنهاجة المغرب الأوسط قبل أن يطفو تحالفها مع الفاطميين إلى سطح الأحداث قد أتت أكلها ،وأدرت على الصنهاجيين أموالا طائلة واتسعت أملاكهم حتى ضاقت بهم مضاربهم ، مما أدى بزيري إلى اختطاط مدينة أشير[4] .

---

(1) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات ،تحقيق: الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد اليهلاوي ،الجامعة التونسية،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،تونس،1978، ص:232.

(2)تزعم هذه الثورة محمد بن الخير بن محمد بن خزر وأبو نوح سعيد بن زنفيل على إثر قتل المعز لدين الله أحد شيوخ الخوارج الوهبية المدعو : أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني سنة358هـ/969م واجتمع لهما خلق كثير من الاباضية ،وراسلوا الأمويين بالأندلس لإمدادهم بالعتاد والمؤونة، ورغم محاولة المعز استخدام أسلوب الموادعة مع الثوار ،إلا أنهم أبوا إلا الحرب، وهجموا على باغاية وقتلوا عاملها ، فسير المعز جيشا ضخما لملاقاتهم فهزمهم وفرق جموعهم ،ولاذ أبو نوح وابن خزر بالفرار. للاستزادة أنظر: الدرجيني ، المصدر السابق، ج1،ص:160.

(3) قسم القاضي النعمان،الدعائم ،ج1، ص:357،المجتمع الذي كان يحكمه المذهب الإسماعيلي إلى خمس طبقات هي : الجند ، طبقة أهل الخراج، الكتاب والعمال والقضاة، التجار والصناع والحرفيون ، أهل الحاجة والمسكنة ، للإستزادة أنظر :بوبة مجاني ، دراسات إسماعيلية ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2003، ص: 117.

(4)النويري ، المصدر السابق، ص:304.

وهكذا فقد ترجم الصنهاجيون تحسن مستوى معيشتهم وتطلعهم لحياة أرقى مما كانوا يحيونه باختطاط أشير، التي بالرغم من أنها أسست لأغراض عسكرية ، إلا أنها تنم في الوقت نفسه عن رغبة جامحة منهم في الخروج من الحياة القبلية الضيقة الأفق،وتطلع لحياة أفضل وعيش رغد في ظل كيان سياسي قار يسهر على رعاية مصالحهم ويؤمن لهم قوتهم ويحمي ممتلكاتهم [1].

وما لبثت المدينة أن اتسعت واستبحر عمرانها،وقصدها الفقهاء والعلماء،وصارت قبلة للتجار فازدهرت الحرف وراجت السلع،واطمأن الناس على زروعهم ومصادر رزقهم،وعم الرخاء المدينة،فتطاولوا في البنيان ولبسوا فاخر الثياب وأكلوا أطيب أنواع الطعام[2].

و لم تبق أشير صنهاجية خالصة، بل إن إقدام زيري بن مناد على تعميرها من حمزة والمسيلة وطبنة أدى إلى تنوع تركيبتها ولو بشكل نسبي[3]، ودخول عناصر جديدة إلى مجتمعها من هوارة وسدراتة وعجيسة، وحتى من الأندلسيين الذين كانت تعج بهم مدينة المسيلة[4] التي ضمت إلى أعمال بلكين بعد فرار صاحبها جعفر بن علي إلى زناتة.

وعلى الرغم من أن هذه الحركة الإجتماعية قد أفقدت المجتمع الصنهاجي نوعا من الإنسجام في أنساقه الداخلية ولو بقسط يسير ، إلا أنها كانت لها آثار إيجابية على الحياة الإجتماعية من خلال إشراف هؤلاء المهاجرين ـــ بما عهدوه من حياة حضارية راقية ـــ على مختلف الحرف كالنجارة والحدادة والنسيج، والصياغة والدباغة، والصناعة الحربية خاصة السيوف والرماح في إطار الإستعداد المستمر لصنهاجة لمناجزة زناتة.[5]

و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن تركيبة المجتمع الصنهاجي قد عرفت عناصر دخيلة أخرى من خلال نقل بلكين بن زيري لكثير من الزناتيين إلى أشير في حملة سنة361هـ/972م حتى يأمن شرهم ويكونوا تحت رقابته المباشرة.[6]

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:304-305.

(2) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:154.

(3) النويري ، المصدر السابق، ص:304-305.

(4) ابن حوقل، المصدر السابق، ص:85

(5) Golvin ,op-cit,p:26.

(6) النويري، المصدر السابق، ص: 312.

ومن مظاهر المكانة الإجتماعية السامية التي حضي بها أمراء صنهاجة المغرب الأوسط لدى الفاطميين الألبسة الفاخرة والخلع الثمينة والطرائف الملوكية التي كان يغدقها عليهم الخلفاء،والتي كانت في حد ذاتها حكرا على أصحاب المكانة الراقية والوظائف العليا وكبار مستشاري الدولة.(1)

ويتأكد هذا الطرح من خلال الإمتيازات الإجتماعية التي منحتها الخلافة الفاطمية لقبلية صنهاجة دون كثير من القبائل الأخرى المنضوية تحت لوائها،فقد سمحت لها باتخاذ القصور والمساكن الضخمة والحمامات في أشير(2) ، وهي من مظاهر التحضر والحياة الرغدة ورفعة المكانة.

وفي ظل هذا الواقع كان المجتمع الصنهاجي لا زال لم يستكمل نموه الحضاري ـــ على المستوى الداخلي ،ومازال على صلة وثيقة بالنظام القبلي الذي لا يعترف بالطبقية والفوارق الإجتماعية الشاسعة بين أفراده ، على الرغم من بروز بعض ملامح التحضر عليه.(3)

كما لا ننسى أن نشير إلى أن ضم أعمال جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي إلى مجالات صنهاجة زاد من حيويتها،بما تضمه من مراع فسيحة وطرق تجارية هامة، وضيق في الوقت نفسه سبل العيش على زناتة التي انهزمت أمام صنهاجة إلى المغرب الأقصى.(4)

وهكذا وما كاد الفاطميون يشدون رحالهم تجاه مصر حتى صارت صنهاجة على رأس المغرب الأوسط إجتماعيا في ظل إهتمام كتامة بفتح مصر، فدانت لها معظم القبائل وتقهقرت زناتة أمامها نحو الغرب، إلى درجة أن فكر الفاطميون في جعلها نائبة لهم على بلاد المغرب كلها.

وصفوة القول أن غياب صنهاجة عن الحركة الإجتماعية بالمغرب الأوسط قبل العهد الفاطمي ليس مرده إلى ضعفها وافتقارها إلى المؤهلات اللازمة لتحقيق ذلك، بقدر ما هو تحين لفرصة البروز التي جاءت مع قدوم الشيعة الإسماعيلية مدعومة برغبتها الجامحة في إنشاء كيان خاص بها تحمي به مصالحها،وتثري عاداتها وتقاليدها.

(1)ابن حماد، المصدر السابق، ص:27، الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص:405.

(2)ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:154.

(3)سعد زغلول ، المرجع السابق، ج3، ص:295.

(4)ابن خلدون العبر ، ج6، ص:155.

3 ـــ علاقة صنهاجة المغرب الأوسط بـــ:

أ ـــ قبيلة كتامـــة:

لعبت قبيلة كتامة ـــ كما أسلفنا ـــ دورا بارزا في نصرة الحركة الإسماعيلية وترسيخ أفكارها ببلاد المغرب وتجسيد مبادئها ميدانيا،وشكّلت العصب العسكري للدعوة الفاطمية التي خرجت إلى النور بفضل جهودها وتضحياتها الجسام.

وبفضل هذه المنجزات الضخمة تبوأت قبيلة كتامة مكانة مرموقة لدى الفاطميين ،وفي هذه الأثناء ظهرت قبيلة صنهاجة التي ما فتئت تتدعم مكانتها شيئا فشيئا في كنف الفاطميين(1)،وتعزز مركزها بمرور الوقت حتى أضحت تضاهي كتامة رفعة ، لكن ما موقف كتامة من تعاظم مكانة صنهاجة لدى الفاطميين؟

في الواقع أن النصوص التاريخية التي بين أيدينا لا تشير إلى توتر العلاقة بين الكتاميين والصنهاجيين طيلة الوجود الفاطمي ببلاد المغرب إلا في مواطن نادرة ، ولعل ذلك يرجع إلى :

ـــ سياسة الخلافة الفاطمية اتجاه القبيلتين ،إذ أوكلت لكل منهما مهمة منفصلة عن الأخرى أدت إلى استحالة اصطدامهما ، زيادة على أن إنضواءهما تحت لواء المذهب الشيعي الإسماعيلي أسقط كل النعرات القبلية وتحول الولاء فيه من القبيلة إلى المذهب.(2)

ـــ إنشغال كل طرف بأداء المهام المنوطة به، وبتدعيم مركزه لدى الخلافة لينال أكبر قدر من العناية والإمتيازات.

ـــ حسن تحين الفرص من قادة كلا القبيلتين الذين رأوا في الشيعة الإسماعيلية خير وسيلة للخروج من قوقعتهم وإيجاد مكانة مرموقة على الساحة المغربية،خاصة أن الفرصة لم تتح لهم من قبل على الرغم من امتلاكهم لكل المؤهلات التي من شأنها أن تجعل من هذين الفرعين على رأس القبائل المغربية، وهو ما تجسد فعلا إذ أصبحت قبيلة صنهاجة في ظرف وجيز سيدة على بلاد المغرب.(3)

ومن دلائل علاقات الود التي كانت سائدة بين كتامة وصنهاجة محاربة الطرفين جنبا إلى جنب في معارك كثيرة أبديا خلالها انسجاما كبيرا ،ومن ذلك خروج **جوهر الصيقلي** إلى المغرب الأقصى سنة347هـــ/958م على رأس جيش من الكتاميين والصنهاجيين حقق نجاحات باهرة.(4)

---

(1) Golvin,op.cit,p:52.

(2) السلاوي ، المصدر السابق، ج1، ص: 81.

(3) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ،ج1، ص:91.

(4)ابن ظافر الأزدي ، المصدر السابق، ج1،ص:33.

ولعل هذا الإنسجام الكبير الذي ظهر على الحلف الصنهاجي الكتامي مرده إلى التشابه الكبير في نمط المعيشة مما سهل التلاحم بين أفرادهما، ومدى الوعي الذي بلغتاه إذ آثرتا مصالح المذهب على المصالح الشخصية التي ستتأتى بمرور الوقت.

ومما يؤكد العلاقات الطيبة بين القبيلتين عدم احتجاج الكتاميين على المعز لدين الله الفاطمي الذي اختار بلكين بن زيري الصنهاجي وقبيلته ليخلفه على بلاد المغرب بعد رحيله إلى مصر، على الرغم من أنهم أول من ناصر الدعوة الإسماعيلية وعلى كاهلهم قامت دولته ، على عكس **جعفر بن علي بن حمدون** الأندلسي صاحب المسيلة الذي ثارت ثائرته وتحالف مع زناتة للقضاء على غريمه زيري أمير صنهاجة.[1]

ومن هنا يتبين أن المعطى الإجتماعي هو الذي فرض هذا النوع من العلاقة بفعل انحدار القبيلتين من نفس الفرع ووحدة بيئتهما الطبيعية ،ومن ثم التقارب في عاداتهما وتقاليدهما على اعتبار أن الإنسان هو ابن عوائده ومألوفه. [2]

و على الرغم من أن الكتاميين لم يبدوا العداء صراحة للصنهاجيين إلا أنهم حسدوهم على المكانة الرفيعة التي صاروا يحظون بها لاسيما أن ذلك تم على حسابهم وأمام أنظارهم، وكثيرا ما كانوا يعيبون زيري بن مناد لدى المعز ويتكلمون فيه السوء حتى تتزحزح مكانته لديه ويصرف نظره عنه[3] ، بيد أن المعز لم يأبه لكيد الحاسدين وأبدى ثقة مفرطة بزيري وظل يغرقه بفضله ويغدق عليه الهدايا والخلع ، ومازال يدنيه منه حتى اصطفاه وعيّنه نائبا له على كامل بلاد المغرب.[4]

ويبدو أن الطابع الودي الذي طغى على العلاقات الصنهاجية ــ الكتامية في كنف الخلافة الفاطمية مردّه إلى حرص الخلفاء الفاطميين على عدم تصادم مصالحهما ،بأن أوكلوا لكل منهما مهمة منفصلة عن الأخرى، فقد اعتمدوا على كتامة في فتح مصر، في حين ألبوا صنهاجة على زناتة لتأمين حدودهم الغربية.

ولئن امتنع الطرفان عن الدخول في معارك ساخنة إلا أن التنافس بينهما كان على أشده في إسداء خدمات أكبر للخلافة لنيل رضاها والحصول على إمتيازات أعظم،ولتدعيم مركز إحداهما على حساب الأخرى.

والأكيد أن هذا التنافس السلمي سرعان ما ترجم إلى معارك حربية بعد خروج الفاطميين إلى مصر، على غرار التفاف بعض بطون كتامة حول **أبي فهم الخرساني** وإعلانهم الثورة ضد **المنصور الزيري**

---

(1)ابن حيان ، المصدر السابق، ج3 ، ص:36-37 ، المقريزي، الخطط، ج1،ص:351-352.

(2)ابن خلدون ، المقدمة ، ص: 256.

(3) الدرجيني ، المصدر السابق، ج1،ص:116.

(4)الداعي إدريس، المصدر السابق، ص:717.

سنة377هـ/988م[1] ،الذي جرد حملة ضخمة ضدهم ، ففرق جموعهم وألقى القبض على زعيمهم،لتقوم ثورة أخرى بعد عامين بزعامة أبي فرج في خلق كثير من كتامة إلا أن المنصور تمكن من إخمادها والقضاء على قائدها.[2]

وخلاصة القول أن الطابع الودي الذي غلب على العلاقات الصنهاجية الكتامية أثناء الوجود الفاطمي في بلاد المغرب يدخل في إطار سعيهما الحثيث لتدعيم مكانتهما لدى الخلافة ،وقد أبديا إنسجاما واضحا في نشاطاتهما الثنائية.

ب ــ علاقة صنهاجة بقبيلة زناتة:

إتسمت العلاقات الصنهاجية ــ الزناتية طوال فترة الوجود الفاطمي ببلاد المغرب بالعداء والتوتر في إطار سلسلة الصراع التقليدي بين البدو البتر والبرانس الحضر، بحكم الإختلاف في نمط المعيشة وتجاور مجالهما الجغرافي الذي تشغلانه ،وزاد من احتدام الصراع تحالف زناتة مع أمويي الأندلس ضد الفاطميين حلفاء صنهاجة.[3]

وتمتد الجذور الأولى للصراع الصنهاجي ــ الزناتي على عهد الفاطميين إلى المرحلة التي كان فيها زيري بن مناد يجمع قواه وينظم صفوف قبيلته التي رفض بعض بطونها الخضوع لسلطته، وتحالفوا مع زناتة لحربه[4] ، وهو ما اعتبره زيري تدخلا صريحا في الشؤون الداخلية لصنهاجة فعزم على شن حملة شعواء ضد معارضيه.

ومن الواضح أن زناتة كانت أكثر حرصا على بقاء صنهاجة منغمسة في صراعاتها الداخلية التي طبعت العلاقة بين بطونها، بل إنها سعت لإذكاء هذا الصراع من باب تفكيك بنية صنهاجة وزرع الفتنة بين أفرادها، ومن ثم يخلو لها المغرب الأوسط بمسارحه ومياهه وثرواته ولو لبعض الوقت[5]، لاسيما أنها

(1)قدم أبو الفهم إلى إفريقية سنة376هـ/987م داعيا من قبل الخليفة نزار فأنزله يوسف بن عبد الله وأكرمه ، ثم خرج أبو الفهم إلى بلد كتامة لينتهي إلى ما أمره به نزار ولما وصل إلى الموضع الذي يريده دعا الناس فالتفوا حوله وذاع صيته، ولما استفحل أمره اتخذ العساكر وعمل البنود وضرب السكة واستنفر أتباعه ، فقرر المنصور الخروج لملاقاته قبل أن تشتد شوكته ،والتحم الجمعان في مدينة سطيف فدارت الدائرة على الثوار وفرّ أبو الفهم إلى جبل وعر ، بيد أن المنصور أصر على القبض عليه حتى تم له ذلك سنة378هـ فضربه ضربا مبرحا ثم نكل به ،أنظر : النويري، المصدر السابق، ص:321، ابن عذاري ، المصدر السابق،ج1،ص:172.

(2)ندلعت هذه الثورة سنة379هـ/990م بزعامة أبي فرج ،وادعى أنه حفيد القائم الفاطمي فالتف حوله خلق كثير من كتامة ،واتخذ البنود والطبول، فخرج إليه المنصور فهزمه إلا أنه فر منه، ثم عمل عليه غلامان كانا له فسلماه للمنصور فقتله شر قتلة ، لمزيد من التفاصيل أنظر: النويري ، المصدر السابق، ص:322،ابن الأثير ،الكامل ، ج7،ص:140-141.

(3)مفاخر البربر ، ص:129.

(4)النويري ، المصدر السابق،ص: 302، بلهواري فاطمة،الفاطميون وحركات المعارضة في المغرب الإسلامي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي،إشراف: أحمد رمضان أحمد، كلية الآداب، قسم التاريخ،جامعة عين شمس، القاهرة،1991،ص:197.

(5) النويري ، المصدر السابق، ص:303.

كانت تعتمد في معيشتها على ظعن المواشي والإستلاء على ما في أيدي غيرها من أملاك وأموال[1] ، وهو ما يفسر صراعها المستمر مع جارتها صنهاجة المغرب الأوسط.

وتبعا للأسلوب الحربي القائل بأن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، فقد سعى زيري إلى مباغتة زناتة في عقر دارها ومطاردة فلول جيشها في كل مكان ، فاستخلف أخاه ماكسن بن مناد على أشير وسار غربا حتى غشي جراوة التي يلي أمرها **موسى بن أبي العافية** راجعا في أمره إلى أمويي الأندلس ،وتشير المصادر التاريخية ـــ التي تأخذ شكلا مبالغا فيه ـــ أن الأمير الزناتي لما بلغه نبأ زحف زيري على بلاده خرج لاستقباله ،وتودد إليه بالهدايا والجواري وسأله الأمان وأقنعه بأنه أعلن ولاءه للأمويين مكرها بحكم أن سيفهم أقرب إليه من سيف الفاطميين[2] ،وخلع طاعة الأمويين ، فقبل منه زيري اعتذاره وقربه ودناه ، ثم توجه لجهاد برغواطة على ما يرويه النويري[3] .

ويبدو أن زناتة أدركت للوهلة الأولى خطورة بناء أشير وما سينجم عنه من إنعكاسات من شأنها أن تقلص من تحركاتها وتقطع أرزاقها ،من خلال إشراف زيري على حماية القرى والزروع المحيطة بالمدينة[4] ، فعملت على رد الصاع صاعين بأن سيرت حملة ضخمة إلى أشير يتزعمها كمات بن مديني الزناتي ، فخرج زيري لمناجزته وهنا تصبح الرواية أكثر غرابة ، أشار خلالها إلى أن انتصار صنهاجة في هذه المعركة تم بفضل ابن زيري الصغير المدعو **"كباب"**[5] الذي لم يراهق الحلم بعد ، ورغم أن والده منعه من المشاركة في الحرب لصغر سنه إلا أنه خرج متخفيا وتمكن من قتل قائد الحملة ، فدارت الدائرة على جيش زناتة وتكبد خسائر فادحة وأسر عددا كبيرا من أفراده.[6]

و على الرغم من فشل هذه الحملة إلا أن الزناتيين ظلوا يثيرون القلاقل ويسعون جاهدين من أجل توسيع مجالات تحركهم، واستعادة سيطرتهم على المناطق التي إنتزعها منهم أعداؤهم الصنهاجيون لاسيما أن ما بقي تحت أيديهم لا يكفي لسد حاجاتهم.

---

(1) النويري ، المصدر السابق، ص: 304.

(2)ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:82.

(3)نهاية الأرب ، ص:305

(4)المصدر نفسه، ص:305-306.

(5)ينفرد النويري بهذه المعلومات من بين المصادر التي أرخت لصنهاجة لاسيما تلك التي اعتمدت على ابن شداد في نقولاتها ، فابن الأثير مثلا أورد هذه الحادثة فيما يلي :" ثم أن زناتة حاصرت مدينة أشير ، فجمع لهم زيري جموعا كثيرة ،وجرى (كذا) بينهم عدة وقعات ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ثم ظفر بهم واستباحهم.أنظر: الكامل، ج7،ص:47.

(6)النويري ، المصدر السابق،ص:307-308.

وفي هذه الأثناء تعاظمت قوة جرواة بزعامة يعلى بن محمد الموالين لبني أمية وامتد نفوذهم حتى تاهرت ،وبغية تقويض ملكهم وتشتيت صفوفهم عمد المعز لدين الله الفاطمي إلى تجريد زيري بن مناد من كل أعماله عدا أشير كي يلفت أنظاره صوبهم.(1)

وفي ظل هذه الظروف صار الوضع ينبئ بقرب تصادم مصالح القوتين وذلك ما وقع فعلا سنة360هـ/971م،حيث التحم الجمعان في معارك حامية الوطيس أسفرت عن انتصار الصنهاجيين واضطر الزناتيون إلى التراجع، ولما أيقن زعيمهم بالهزيمة مال إلى ناحية وحز نفسه.(2)

و لم يمض وقت طويل حتى أتيحت الفرصة لزناتة كي تثأر لنفسها بعد تحالفها مع عامل الفاطميين على المسيلة جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي كما سيأتي تفصيله.(3)

ويبدو أن من بطون زناتة من كان متحالفا مع الفاطميين،وظلوا محافظين على ولائهم للخلافة حتى في أصعب الفترات التي مرت بها في أثناء حركة صاحب الحمار، فقد حدث أن كتب إسماعيل إلى بعض بطون زناتة :" **يأمرهم بالإغارة على سدراتة والإنتصار له ففعلوا ذلك وقتلوهم وسبوا حريمهم وانتهبوا أموالهم،فتوقف الناس عن المسير إلى أبي يزيد بالأطعمة**" .(4)

ومن الجهة المقابلة فإنه لم يحدث أي تقارب زناتي صنهاجي طيلة القرون الأولى للفتح الإسلامي إلا مرة واحدة حسب ما أوردته المصادر، عندما شاركت صنهاجة إلى جانب الخوارج الصفرية في حصار طبنة سنة 153هـ/770م بقيادة عبد الله بن سكرديد.(5)

وفي الأخير نخلص إلى أنه إذا كان الإختلاف في نمط المعيشة تفسيرا مقبولا للصراع بين صنهاجة وزناتة قبل العهد الفاطمي فإنه يصبح أقل مصداقية خلال المرحلة التي تلته ،حيث صارت تغذيه المصالح السياسية والمذهبية التي عايشتها المنطقة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ،وترجم في كثير من الأحيان إلى حروب دامية كانت سببا في انهيار وتشتت زناتة وتصفية وجودها بالمغرب الأوسط وإنحسار مضاربها إلى المغرب الأقصى ،وفي المقابل تدعم موضع صنهاجة إلى أن صارت سيدة على كامل بلاد المغرب خلفا للفاطميين.

---

(1)ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص: 83.

(2)ابن خلدون ،العبر ، ج6،ص:154.

(3)ابن حيان ، المصدر السابق، ج3،ص:37.

(4) ابن حماد ، المصدر السابق، ص:30.

(5) ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:112، محمود اسماعيل ، المرجع السابق، ص:59.

ج ـ علاقة صنهاجة بصاحب المسيلة:

على الرغم من قضاء الفاطميين على معظم الإمارات الإسلامية التي كانت قائمة نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ببلاد المغرب إلا أن المنطقة لم تصف لهم ، فقد ظلت القبائل البربرية بالجهة الغربية وبخاصة زناتة تثير القلاقل ضدها وترفض الخضوع لسلطتها ،وزاد خطرها بإعلان ولائها للدولة الأموية بالأندلس.[1]

وإزاء هذا الخطر الداهم الذي ما فتئ يهدد الوجود الفاطمي في بلاد المغرب كلها شعر الخلفاء الفاطميون بضرورة إتخاذ قاعدة في قلب المغرب الأوسط ، تكون رباطا لجيوشهم التي كانت تحارب بعيد عن مركز الخلافة وليس من السهل إمدادها بالمؤونة والسلاح.

وزاد إلحاح المهدي على ضرورة إقامة حصن يؤمن حدود دولته الغربية بعد عودة أبي القاسم محمد من حملته على المغرب سنة315هـ/926 م للحد من تحرشات زناتة[2] ،وارتاد لذلك موضع المسيلة المشرف على نهر كثير المياه ، كانت تسكنه من قبل قبائل: **بني برزال وبني كملان من هوارة وزنداج وسدراتة ومزاتة وعجيسة**[3]،وأحاطه بسورين عظيمين[4] .

وقد شكل تأسيس مدينة لمسيلة في هذا الموضع بالذات إحراجا كبيرا للزناتيين لاسيما أن هذه المنطقة تحوز على مراعي واسعة وعيون سائحة مثلت لفترة طويلة إحدى المناطق الإستراتيجية لظعن مواشي زناتة من جهة[5]، وتعتبر همزة وصل بين الصحراء والمناطق التلية الغنية بالكلأ والمسارح الفسيحة والثروات المائية من جهة أخرى.

وازداد الأمر سوءا عندما أقدم زيري بن مناد على اختطاط أشير فصار الطريق الرابط بين المدينتين يشكل سدا منيعا في وجه الزناتيين ، ويتهددهم بفقدان ما تحت أيديهم من مسارح ويضيق عليهم سبل عيشهم،ويعرض كثيرا من أنعامهم للضياع،كما يمنع توغلهم إلى المناطق الداخلية والتلية بحثا عن الماء والكلأ، وضمان أقوات أولادهم خاصة في أوقات الجفاف،فلم يبق أمامهم سوى استخدام أسلوب القوة والغزو للدفاع عن حياضهم واسترجاع هيبتهم والمجالات التي فقدوها.[6]

---

(1)مفاخر البربر ، ص:129.

(2)الداعي إدريس، المصدر السابق، ص:198.

(3) ابن عذاري ، المصدر السابق،ج1،ص: 315 ، الذي يذكر أنها أسست سنة313هـ/924م

(4)الإدريسي، المصدر السابق، ص:157.

(5) الإستبصار ، ص:172.

(6) النويري ، المصدر السابق، ص:304.

وقد أسندت مهمة اختطاط مدينة المسيلة إلى علي بن حمدون المعروف بالأندلسي[1]، وأصله من عرب جذام جاء والده مع الجيوش العربية من الشام ثم استقر به المقام بكورة إلبيرة في الأندلس، ثم انتقل إلى المغرب واتصل بالمهدي الفاطمي وابنه القائم الذي أسند إليه اختطاط هذه المدينة ثم عقد له على الزاب.

وعلى الرغم من أن اختطاط المسيلة قلل من حدة التحرشات الزناتية بالأراضي الفاطمية ، وجعلها قاعدة عسكرية هامة تنطلق منها حملات الفاطميين إلى المغرب، إلا أن المعطى الإقتصادي التجاري كان له دور بارز في إنشائها، فقد سعى الفاطميون من خلالها إلى إيقاف سيولة الحركة التجارية على زناتة، ومن ثم تبعد أيدي غزاتها عن موارد تجارية هامة خاصة القادمة من بلاد السودان.[2]

ومن هنا يمكن القول أن تأسيس المسيلة كان فعلا ضربة موجعة للزناتيين،فلا نستغرب إذا فيما بعد إصرارها رغم هزائمها المتكررة على محاربة صنهاجة رغبة منها في الإنتقام من الفاطميين،وسعيا لإيجاد متنفس تنعش به إقتصادها وتحسن مستوى معيشتها وتنظيم مختلف شؤونها الإجتماعية والإقتصادية،ولعل ذلك ما يفسر فيما بعد تقلص مضاربها بالمغرب الأوسط الذي كان يعرف باسمها.[3]

ومهما يكن من أمر فقد ساعدت خصوبة تربتها على إنتاج كميات كبيرة من القمح والشعير والحنطة ، كما مكن موقعها الاستراتيجي من ازدهار أسواقها وكثرة سلعها، وزاد من حيويتها قدوم كثير من الأندلسيين إليها بما عهدوه من حياة حضارية راقية[4] ، فعم الرخاء بها، وفيها قال ابن هانئ الأندلسي:[5]

تبغدد منه الزاب حتى رأيتــه   يهب نسيم الروض فيه فيستجفي

أرضا وطئت الدر رضراضا بها   والمسك تربا والريــــاض جنابا

(البحر الطويل).

ويقول أيضا:[6]

ديوان ملك لــو رأته فارس   ذعرت وخر لسمكه إيوانــها

(البحر البسيط).

و على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها أمراء بني حمدون في صد غارات زناتة،والقضاء على الثورات التي كانت تقوم بين الحين والآخر ،إلا أنهم لم يتمكنوا من كبح تحركاتها التي ظلت تقلق الفاطميين.

(1) أنظر سيرته في: المقتبس، ص: 35-36، المغرب، ص: 50، نهاية الأرب، ص:308، العبر،ج6، ص:154.
(2) ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:85، 87.
(3) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص: 93.
(4)الاستبصار ، ص:172
(5)ديوان ابن هانئ ، طبعة القاهرة، 1931، القصيدة 36بيت 54، القصيدة 62، البيت2 .
(6)المصدر نفسه، القصيدة 57، بيت4.

وإزاء هذه الظروف الصعبة فكرت الخلافة الفاطمية في إنشاء قاعدة ثانية بالمغرب الأوسط تعتمد على عصبية قوية بإمكانها الوقوف الند للند أمام زناتة ،و لم تلبث أن أتيحت لها الفرصة بعد انضمام صنهاجة لصفوفها[1] ، حيث أوعزت إلى زعيمها زيري بن مناد اختطاط مدينة أشير كما تمت الإشارة إليه سابقا.

ولئن ساعد بناء أشير الفاطميين على تثبيت أقدامهم في مناطق واسعة من المغرب الأوسط، إلا أن تنامي قوة صنهاجة بالموازاة مع المكانة المرموقة التي كانت تحتلها المسيلة لدى الفاطميين ولدّ ضغينة بين صاحب المسيلة جعفر بن علي وأمير صنهاجة زيري بن مناد ،وتنافسا فيما بينهما في إسداء خدمات أكبر للخلافة لاستمالتها وإضعاف مكانة الآخر لديها.[2] فما هي عوامل هذا الصراع يا ترى ؟

إن الإجابة على هذا الإشكال تستوقفنا عند عدة معطيات أبرزها :

ـــ تدخل زيري المستمر في شؤون جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي وإيذاؤه في أعماله.[3]

ـــ التباين التام في سياسة الطرفين ، ففي الوقت الذي اعتمدت فيه صنهاجة على أسلوب القوة في تنفيذ مهامها وتحقيق أغراضها ، فضل صاحب المسيلة أسلوب المداهنة في قضاء مآربه المختلفة ، ولعل ذلك له ما يبرره كون زيري بن مناد له عصبية كبيرة تدعمه على عكس جعفر بن علي الذي كان يفتقد إلى ذلك.

ـــ أن ضم تاهرت إلى أعمال زيري بن مناد كان له وقع كبير على العلاقة بين الطرفين[4]، ذلك أن تاهرت بموقعها الإستراتيجي وثقلها الحضاري دعمت مكانة صنهاجة،ومن شأنها أن تمكن زيري مستقبلا من السيطرة على المغرب الأوسط بما فيها المسيلة وأعمالها.

ـــ ما تفشى بين الناس حول بناء المعز لدين الله الفاطمي لدار الإمارة في القيروان،وأن زيري بن مناد سيلي أمر بلاد المغرب كلها.[5]

وما لبث هذا الصراع بين زيري وابن حمدون أن تحول إلى حرب ساخنة عندما رفض جعفر بن علي أن يلبي دعوة المعز واحتال وفر بماله وأهله إلى زناتة وخلع طاعته للفاطميين، فرحب به الزناتيون وقدموه.[6]

---

(1)مفاخر البربر، ص:129.

(2)المقريزي ، الخطط ، ج1،ص:353-354.

(3) ابن خلكان ، المصدر السابق، ج1، ص: 252.

(4) النويري ، المصدر السابق، ص:307.

(5) ابن خلدون ، العبر،ج6، ص:154.

(6) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج1، ص:91.

ولما بلغه خبر فرار جعفر بن علي واستجارته بزناتة وجدها زيري فرصة سانحة للقضاء على خصومه أجمعين ، بأن يضرب عصفورين بحجر واحد فبانتصاره على جعفر بن علي تخلو له كامل بلاد المغرب الأوسط وتدين لسلطته ،وبمواجهته لزناتة يوسع من الحيز الجغرافي الذي تشغله قبيلته وتتدعم مكانته لدى الفاطميين الذين أباحوا له أن يضم لأعماله كل ما يفتحه من أرض زناتة.

و لم يلبث زيري أن جردّ جيشا ضخما من وجوه صنهاجة وأهل النجدة من رجالها زحف به إلى جعفر بن علي وحلفائه الزناتيين ،والتقى الخميسان عند وادي ملورية في شهر رمضان عام360هـ/970-971م وبعد معركة طاحنة" **بَعُد العهد بمثلها يومئذ**"(1) كبا بزيري فرسه فارتد قتيلا ولحقت الهزيمة بجيشه، وأثخنت زناتة القتل في جنده(2) ،وحزت رأسه وأرسلته إلى الناصر الأموي بالأندلس.(3)

وعلى الرغم من هذا الإنتصار إلا أن زناتة بحكم صراعها المستمر مع صنهاجة كانت تدرك جيدا حجم ما أقدمت عليه، وأن رد فعل قبيلته المدعومة من الفاطميين سوف يكون شديدا ،فأرادت التكفير عن ذنبها بالقبض على جعفر بن علي وإرساله إليها ، لكن جعفر تفطن للمؤامرة (4) فاحتال ودخل إلى الأندلس.(5)

وقد مكننا رد فعل صنهاجة تجاه مقتل أميرها من الإطلاع على إحدى أكبر العادات القبلية في مجال الأخذ بالثأر بغية :

ـــ إشباع رغبة الوحدة القرابية للقتيل في الإنتقام،ومن ثم إسترددادها لهيبتها وكرامتها.(6)

ـــ إعادة التوازن الاجتماعي المفقود بين الوحدتين القرابيتين للقاتل والمقتول، ولا يتحقق ذلك إلا بقتل شخصية مساوية لشخصية المقتول بين أهله.

وتبعا لذلك فما أن علم المعز لدين الله بنبأ مقتل زيري بن مناد حتى عقد لابنه بلكين بن زيري على عمل أبيه وأضاف له أعمال جعفر بن علي وألبه على زناتة لأخذ ثأر أبيه ،وأطلق يده على كل ما يفتحه من أرضها.

---

(1)النويري ، المصدر السابق، ص:306-307.

(2)وقد كان لانكسار صنهاجة أمام مغراوة في هذه المعركة صدى عميق، وعدّها ابن حيان" من أعظم الوقائع ،وأبعدها صيتا وأشنعها ذمرا ،واحتوى بها الزناتيون على عسكر زيري ،وأثخنوا القتل في جموعه وأدركوا ثأرهم ...منه" المقتبس ، ج3،ص:36-37.

(3)المصدر نفسه : ص:.38-37

(4)لما رأى جعفر بن علي أن زناتة قد ندمت على قتلها لزيري وأنها تريد تقديمه كبش فداء لولده بلكين ،أشار على زعمائها بالتحصن في الجبال والأوعار لتفادي بطش بلكين فأجابوه إلى ذلك ، ثم حمل أهله وماله في المراكب وبقي مع الزناتيين ، وأمر عبيده في المراكب أن يحدثوا فتنة ، فقال جعفر: أريد أن أنظر ما سبب هذه الحادثة ، فصعد إلى المركب ،ونجا من كيد زناتة ، لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج7،ص:47.

(5)ابن حيان ، المصدر السابق، ج3، ص:38.

(6) الفوال ، المرجع السابق ، ص:325.

فتحرك بلكين بن زيري نحو المغرب مع مطلع سنة361هـ/972م في جيش ضخم حتى غشي زناتة، فهزمها وقضى على قائدها الخير بن محمد وأعمل السيف في رقاب أهلها، فسر بذلك المعز وأجزل له العطاء وعقد له على البلاد التي فتحها.(1)

وهكذا قضت صنهاجة على أكبر خصومها ودان لها المغرب الأوسط كله، بعد أن سيطرت على أعمال جعفر بن علي بن حمدون، وحسمت بشكل شبه نهائي إحدى حلقات صراعها الإجتماعي ـــ الإقتصادي مع زناتة في ظل الحكم الفاطمي وحصرت وجودها بالمغرب الأقصى.

د ـــ علاقة صنهاجة المغرب الأوسط بصنهاجة الجنوب:

لا ريب في أن جميع فروع صنهاجة ينحدرون من أصل مشترك ،بيد أن إختلاف البيئة الجغرافية والتباين في نمط المعيشة ـــ المرتبط بمدى التأثر بالمؤثرات الخارجيةـــ بدد شملهم وفرق بطونهم إلى عدة فروع، وذلك ما أوضحه ابن خلدون(2) في قوله:**"وكان الملك في صنهاجة في طبقتين: الطبقة الأولى تلكاتة ملوك إفريقية والأندلس وهم أهل مدر في المغرب الأوسط وإفريقية ، والثانية مسوفة ولمتونة وجدالة وشرطة من الملثمين المسمين بالمرابطين وهم أهل وبر".**

ولعل ما يثبت رابطة الأصل المشترك لبطون صنهاجة الشمال وصنهاجة الجنوب ما ذكره الأمير عبد الله بن بلكين التلكاتي آخر ملوك بني زيري بغرناطة في كتاب " **التبيان**"(3) ،بأنه اعتقد أن زحف يوسف بن تاشفين اللمتوني بجحافل جيشه إلى الأندلس كان حمية ونصرة لأقاربه الزيريين من صنهاجة الشمال، ويتدعم هذا الطرح أكثر عندما لم يلحق يوسف بن تاشفين أي أذى بالأمير عبد الله،إذ نقله معه إلى المغرب الأقصى إلى أن وافته المنية هناك.(4)

وفي السياق نفسه نقل لنا المؤرخ جيانجرس نصا غاية في الأهمية ورد في كتاب " الإكتفاء" يدل هو الآخر على صلة القرابة بين فروع صنهاجة، ومؤداه أن والدة عبد الله بن بلكين كثيرا ما تحض ابنها على ضرورة الخروج لملاقاة ابن عمه يوسف بن تاشفين.(5)

(1)مفاخر البربر ، ص:135.
(2)العبر ،ج6، ص:152، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:231
(3)الأمير عبد الله ، المصدر السابق، ص:161
(4)مفاخر البربر، ص: 191.
(5)حسن أحمد محمود ، المرجع السابق، ص:91.

ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن كل بطون صنهاجة كانت ضاربة شمال بلاد المغرب الأوسط،وبفعل الظروف الطبيعية والتقلبات السياسية زحف قسم منهم إلى الغرب ومنه إلى الجنوب،ويعزي حسن أحمد محمود[1] ذلك إلى سببين:

ـــ أولهما: أنه لما تم اكتشاف الجمل أواخر العهد الروماني[2] عمّ استخدامه بين البتر واتخذوه وسيلة لمضايقة البرانس المستقرين وعلى رأسهم صنهاجة ، فرحل بعض بطونها إلى المغرب الأقصى ومنها إلى الصحراء،ومع مرور الوقت احتكوا بالسكان واستخدموا بدورهم الإبل وصاروا يجوبون بها أطراف الصحراء.

ـــ وثانيهما: الفتوح الإسلامية ،إذ أن كثيرا من بطون صنهاجة فروا أمام الفاتحين ـــ لعدم معرفتهم بكنه الدين الإسلامي ، ورغم إسلامهم فيما بعد إلا أنهم ظلت تشوبهم بعض العادات والتقاليد الوثنية حتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ،حيث ظهر بينهم الفقيه عبد الله بن ياسين فعمق الإسلام في نفوسهم وأسهموا بعدها في نشره بالأندلس وبلاد السودان.[3]

وفي إطار هذا الطرح الذي افترضه **حسن أحمد محمود** واستيفاء لكل جوانبه يحيل إلي أن سبب انقسام صنهاجة إلى طبقيتين :أنها انشطرت إلى فئتين أمام الطوارئ والمتغيرات السياسية والجغرافية في المنطقة ، فئة آثرت الصمود ومواجهة الظروف الطبيعية والتقلبات السياسية فبقيت في مواطنها الأصلية ،وبحكم قربها من مراكز السلطة السياسية والحضارية فقد ظلت تحيا حياة الإستقرار وممارسة الزراعة ، في حين فرت الفئة الثانية من هذا الواقع الجديد وفضلت التوحش في المناطق البعيدة في عز ومنعة عن أي طارئ جديد،وبفعل قساوة الظروف الطبيعية في الصحراء فقد فرضت على هذه الفئة حياة البدو والترحال بحثا عن ظروف عيش أفضل.[4]

والواقع أنه تعوزنا النصوص التاريخية التي توضح طبيعة العلاقات الصنهاجية ـــ الصنهاجية جنوبية خلال العهد الفاطمي،وهذا في حد ذاته دليل صريح على العلاقات الودية والحميمية بين الطرفين رغم تجاور مواطنهما في فترة لاحقة.

ومن قرائن حسن الجوار واحترام صلات القرابة بين الفرعين أن المرابطين ألقوا القبض على امرأة في إحدى غزواتهم على تلمسان ،فلما استقصوا أمرها وعلموا أنها أميرة من بني زيري فكوا قيدها.[5]

---

(1) قيام دولة المرابطين ، ص :44.

(2) Julien Guey , Notes sur les limes de Numidie et le Sahara au 5 eme S ,école Française de Rome ,56é année, 1933 ,p:233.

(3)الحلل الموشية ،ص:16 ، 39.

(4)ابن خلدون ، المقدمة، ص:212.

(5) Gautier ,op-cit,p:377.

ويتعزز هذا الطرح أكثر عندما نعلم أن المرابطين لم يتجاوزوا في فتوحهم مدينة الجزائر ، بالرغم من أنه كان بإمكانهم القضاء على الدولة الزيرية بإفريقية والدولة الحمادية بالمغرب الأوسط بدافع رابطة الدم والقرابة التي تجمعهم بهم، على عكس الموحدين الذين لم يتوانوا في القضاء على الإمارات الصنهاجية بمجرد أن أتيحت لهم الفرصة ،لأنهم لا تربطهم بهم أية علاقة.[1]

ونستنتج مما سبق أن العلاقات بين فرعي صنهاجة طغى عليها الطابع الودي بفعل إحساس الفرعين بالأصل المشترك ووحدة اللهجة وأصالة التراث ، لاسيما في ظل وجود عدو مشترك والمتمثل في قبيلة زناتة.

هـــ ـــ علاقة صنهاجة بقبيلتي غمارة وبرغواطة:

لم تشر المصادر التي تيسر لنا الإطلاع عليها إلى وجود علاقات سواء أكانت ودية أم متوترة بين صنهاجة المغرب الأوسط وقبيلتي برغواطة وغمارة بحكم تباعد مواطنهما ،ولم تتحدث الروايات عن توتر العلاقات بينهما إلا بعد أن أظهر فرعا مصمودة الهرطقة ،وشرّعا نحلة جديدة خرجا بها عن الملة الإسلامية.

والواقع أن ظاهرة التنبؤ في المغرب الإسلامي لم تأت صدفة بل نتيجة لإنتشار السحر والشعوذة بين الناس وتفشي الجهل في أوساطهم[2] ، لاسيما أولئك الضاربون في قلب المغرب الأقصى الذين لم يتغلغل نور الإسلام في قلوبهم بشكل كاف نتيجة صعوبة التضاريس، فاستغل البعض هذا الوضع لتحقيق مآربه الشخصية مستمدين معظم تشريعاتهم من الدين الإسلامي ، بل أنهم يثبتون شرعية نبوءتهم من القرآن الكريم[3].

ولئن اعتبر البعض هذه المحاولات ردود فعل من البربر على الفتح الإسلامي وأنهم لم يتقبلوا برمتهم هذا الدين الجديد[4] ، فقد نظر إليها البعض الآخر على أنها محاولة منهم لإقامة كيانات سياسية محلية مستقلة عن أي سلطة مشرقية، لاسيما أنها كانت تمتلك المؤهلات الكافية لتحقيق طموحاتها[5] في ظل وضع تميز باحتدام الصراع المذهبي بين السنة والخوارج من جهة ، ثم بين السنة والشيعة من جهة أخرى.

وبغض النظر عن الطابع المبالغ فيه الذي تأخذه الروايات بهذا الصدد ــ نقلا عن ابن شداد بدون شك ــ تؤكد بعض المصادر التاريخية أن قبيلة صنهاجة كان لها ذكر حسن في مجاهدة أهل البدع والمارقين وأدعياء النبوة ،حرصا منها على إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى وإرضاء لأوليائها الفاطميين.

---

(1)لقبال ، دور كتامة، ص:84.

(2)ابن خلدون ، العبر، ج6، ص:216.

(3)لاستبصار، ص:191-192.

(4)ألفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ــ من الفتح العربي إلى اليوم، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1987،ص:167-168.

(5)المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فقد أشار النويري أن زيري بن مناد لما دخل جراوة دون قتال أدى له عاملها ولاء الطاعة ،ودله على قوم من أهل غمارة[1] ظهر فيهم رجل يعرف بـــ" **حاميم**"[2] ويلقب بالمفتري، ادعى النبوة فأيدوه وناصروه وارتدوا عن الإسلام واستباحوا المناكر والمحرمات ، فتوجه إليهم زيري بن مناد بجحافل جيشه رفقة موسى بن أبي العافية ففرق جموعهم وهزم المفتري وألقى عليه القبض وسار به إلى أشير، فأشار عليه فقهاؤها بقتله ففعل.[3]

ويبدو أن هذه الرواية من نسج مؤرخي البلاط الزيري، ذلك أننا نعلم أن " **حاميم** " ظهر بإقليم مجكاسة بالقرب من الجبل المنسوب إليه سنة310هـ/ 921م،وأن مقتله على أرجح الروايات كان سنة315هـ/926م في إحدى حروبه ضد الجيوش الأموية بالقرب من طنجة ،وعليه فإن هذا الحدث وقع قبل تأسيس أشير بعقد من الزمن، فمن المستبعد إذا أن يكون زيري هو الذي قتل حاميم على ما يرويه النويري[4] وابن الأثير[5] .

ومهما يكن من أمر فإن الصنهاجيين أثبتوا في مواطن كثيرة غيرتهم على دينهم ومقتهم للمارقين والهراطقة والخارجين عن الملة ، فقد عمل بلكين بن زيري بعد استخلافه على بلاد المغرب على جهاد برغواطة[6] التي انتحلت ملة لم يسبقها إليها أحد[7] ، فأثخن القتل فيها حتى ظفر بملكها عيسى بن أبي الأنصار وانصرف قافلا إلى القيروان.

---

(1)تنتسب إلى عفار بن مصمود وقيل بن سطاف بن مليل بن مصمود ،مواطن جمهورها شمال المغرب الأقصى ما بين نكور وسبتة وطنجة على ساحل البحر.لمزيد من التفاصيل أنظر: الإستبصار ، ص:19،ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:216، ابن منصور،المرجع السابق، ج1، ص:325.

(2)هو أبو محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن زروال بن مجكسة ويلقب بالمفتري ،إدعى النبوة سنة310هـ/922م بالقرب من تيطوان بالجبل المنسوب إليه فاجتمع له خلق كثير،وأقر لهم شرائع لم ينزل الله بها من سلطان ،ووضع لهم قرآنا يتلوه عليهم ،وفرض عليهم صلاتين واحدة عند الشروق والأخرى عند الغروب، كما ألزمهم بصوم الإثنين والخميس وعشرة أيام من رمضان ،وحرم عليهم أكل بيض أي طائر،ورؤوس الحيوانات والحوت إلا بعد ذكاة ،وأقر لهم زكاة العشر في كل شيء وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء.أنظر : البكري ، المصدر السابق، ص:100-101 ، مفاخر البربر ، ص:225، ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص:47. الاستبصار ، ص:190، النويري ، المصدر السابق، ص:310، ابن خلدون، العبر، ج6، ص:216.

(3)لنويري ، المصدر السابق، ص:310

(4)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5)لكامل ، ج7، ص:47.

(6)ذكر ابن خلدون أن برغواطة شعب من شعوب المصامدة إلا أن ابن منصور أنكر عليه ذلك ،واقترح بعد استقرائه لكل آراء المؤرخين والنسابة المعاصرين لها أن اسم برغواطة اسم " نحلة "، وأصل الكلمة مشتق من منضر هذه الديانة صالح بن طريف البرغواطي،وحرفته العرب إلى برغواط ،وزادت له هاء الجماعة فصار اسمها " برغواطه ".وقد نشأت هذه الديانة في أحضان إقليم الشاوية بالقرب من " تامسنا " بالمغرب الأقصى في أواسط القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي،واستطاع أتباع هذه الديانة أن يؤسسوا إمارة ضمت اثنتي عشرة قبيلة ،واستثمرت في غياهب جهلها حتى القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي ، حيث استأصل شأفتها الفقيه عبد الله بن ياسين وأتباعه.لمزيد من التفاصيل أنظر: البكري ، المصدر السابق،ص: 134-136، الاستبصار، المصدر السابق، ص:197، ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1،ص: 269 ، ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:207، ابن منصور ، المرجع السابق، ج1،ص:324.

[7]أقر صالح بن طريف البرغواطي شريعة لأتباعه لا تعدو أنها شرك وخروج عن الملة ، رغم أن تعاليمها اقتبسها من الشريعة الإسلامية مع بعض التحريف ، فقد وضع لهم قرآنا يضم 80 سورة ،وفرض عليهم صوم رجب بدلا من رمضان ،وشرع لهم خمس صلوات في الليل ومثلها =

4 ـــ صنهاجة تحكم بلاد المغرب :

في الواقع إن الوجهة الحقيقية للخلافة الفاطمية منذ بداية الدعوة الإسماعيلية كانت إلى مصر، و لم تتخذ من بلاد المغرب سوى قاعدة لفتحها وحكم العالم الإسلامي منها ،وزاد من رغبتها الجامحة في الانتقال إليها ما عهدته من كثرة تقلبات البربر،والمعارضة الشديدة التي قوبلت بها سياستها المذهبية.(1)

فقد سعى الخلفاء الفاطميون منذ عهد عبيد الله المهدي سنة301هـ/912م إلى فتح مصر،وتلتها حملة ثانية سنة306هـ/917م لكنهما فشلتا،وعلى الرغم من أن هذه الحملات عرفت فتورا كبيرا خلال ثورة صاحب الحمار، إلا أنها ما انفكت تزداد بعد إخمادها.(2)

وقد وجد المعز لدين الله الفاطمي في وفاة كافور الإخشيدي والي مصر وانشغال العباسيين بمناجزة الديلم فرصة سانحة للانقضاض على مصر وافتكاكها من أيدي العباسيين،فأرسل قائده جوهر الصيقلي لفتحها و لم تلبث أن دانت له(3) ،وصار يرغب مولاه في الرحيل إليها ،ومن ثم بدأ عهد جديد في تاريخ الخلافة الفاطمية.

وهنا أجال المعز لدين الله فكره فيمن يوليه خليفة له على بلاد المغرب "..ممن له الغناء والاضطلاع، وبه الوثوق من صدق التشيع ورسوخ القدم في دراية الدولة."(4)

وعلى الرغم من أن النصوص التاريخية تأخذ في معظمها ـــ بهذا الصدد ـــ طابعا مبالغا فيه ،إلا أنه لا مناص من التعريج عليها للاحاطة بالظروف العامة التي تولت فيها صنهاجة زعامة إفريقية والمغرب، فهذا ابن بسام الشنتريني(5) وعنه نقل التيجاني(6) وابن عذاري(7) ـــ يذكر أنه لما قرب اكتمال فتح مصر وعزم المعز على الرحيل إليها، دعا زيري بن مناد وكان له عشرة من الأولاد ،وطلب منه أن يحضرهم إليه، وكان

في النهار،وأضاف إلى الوضوء المتعارف عليه غسل السرة والخاصرتين ،وحرم عليهم الزواج ببنت العم ، وعقوبة السارق عنده القتل.كما منعهم من أكل رؤوس الحيوانات ،وحرم عليهم أكل الديك ،والدجاج مكروه ،والزاني عقابه الرجم.أنظر : البكري ، المصدر السابق، ص:134-136 ، الاستبصار، ص:197، ابن خلدون، العبر، ج6،ص:207.

(1)المالكي، المصدر السابق،ج1،ص:242.

(2)الداعي إدريس ، المصدر السابق،ص:176، 188، 189.

(3)شرع المعز لدين الله الفاطمي في تمهيد الطريق لفتح مصر سنة355هـ/966م،حيث أمر جنده بحفر الآبار وإنشاء محطات الاستراحة على طول الطريق بين مصر والمغرب، وبعد وفاة كافور الإخشيدي صار الوضع ملائما للانقضاض عليها،وما لبث المعز أن جرد حملة ضخمة على مصر سنة 358هـ/969م بقيادة جوهر الصيقلي ، كما دعم القوات البرية بحملة بحرية كبيرة متجهة نحو الإسكندرية ، فاجتاحت القوات الغازية لجيزة وعبرت منها إلى الطرف الآخر من النيل، وارتادت موقعا حصينا اختطت به القاهرة ،ولم يمض وقت طويل حتى فرض الفاطميون سيطرتهم على مصر ووجهوا طلائع جيشهم نحو الشام والحجاز.أنظر:المقريزي، الخطط، ج1،ص:352 ، ابن الثغري، المصدر السابق،ج3 ، ص:184، 196 ، الداعي إدريس، المصدر السابق،ص:678، Fournel,op-cit,p:210.

(4)ابن خلدون، العبر ، ج6،ص:155.

(5)الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: عبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام، القاهرة، 1979، ج2، ص:613.

(6) الرحلة ، ص:12-13.

(7)البيان المغرب، ج1، ص:296.

للمعز أمارة يعرف بها نائبه على المغرب ، فلم يلمحها في أبناء زيري وقال له: " **هل غادرت من بنيك أحدا فلست أرى لمن هاهنا أيدا ولا يدا**" فأجابه زيري بـــ:" **لا**" ، إلا غلام وطفق يصغر من شأنه ، فأبى المعز إلا أن يحضره ، فلما رآه عرفه فاصطفاه وقربه واختاره لخلافته على المنطقة.

وفي رواية مكملة تصور لنا موقف بلكين بن زيري من اختياره نائبا للفاطميين على المغرب، يذكر المقريزي [1] أنه لما استقر رأي المعز على اختيار بلكين نائبا له على المغرب استدعاه وقال له:" تأهب لخلاقة المغرب"[2] ،فاستعظم بلكين هذه الأمانة التي حملها،وقال :" **يا مولانا أنت وأباؤك الأئمة من ولد رسول الله ρ ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري ، قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح**"[3]

وما زال المعز يلح على بلكين لتولي منصب الولاية حتى أجابه إلى ذلك ، شريطة أن يتولى المعز بنفسه تعيين من يلي القضاء والخراج وأن يرجع لهما بلكين في كل أموره.[4]

ولئن كان تعيين المعز لبلكين بن زيري ـــ ومن ورائه صنهاجة ـــ أميرا على بلاد المغرب منطقيا ولا يختلف عليه اثنان، نظير الخدمات الجليلة التي قدمتها صنهاجة للخلافة الفاطمية ،زيادة على درايته الكبيرة بشؤون الدولة وإخلاصه للمذهب الإسماعيلي ،وتفانيه في ردع خصومه،إلا أن ذلك لا يمنع المعز من عقد ولاية إفريقية والمغرب لشخصيات أخرى بارزة في صفوف الدولة ، لا تقل شأنا عن بلكين الحديث العهد بخدمة الفاطميين ،وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال غالبا ما طرحه الدارسون والباحثون في أثناء تناولهم لهذا الموضوع ، **لماذا لم يعهد المعز بولاية المغرب لأحد مستشاريه الصيقليين أو الصقالبة على غرار الأستاذ جوذر؟** أو لأحد زعماء كتامة الذين قامت على كاهلهم الخلافة الفاطمية ؟ أو لأحد أبنائه حتى يضمن له ولاء أطول لبلاد المغرب؟ أو حتى لأخيه من الرضاعة جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ، بحكم قرابته وحنكته السياسية وتمرنه الطويل على ترويض البربر؟

في الحقيقة إن اختيار المعز لبلكين لتولي شؤون الدولة في بلاد المغرب بعده لم يكن عفويا ، بل أنه كان مدروسا وينم عن ذكاء واسع وبعد بصيرة،وظفها المعز في اختيار الشخصية التي بها الوثوق وتضمن له ولاء أطول لسلطته ،وتكون له يد قوية على أعدائه.

---

(1)المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج1،ص:99.

(2)غير أن بعض الدارسين شككوا في صحة هذه الرواية التي ترمي إلى الرفع من قيمة بليكن بن زيري أمام غريمه جعفر بن علي ،أنظر : روجي إدريس ، المرجع السابق، ج1،ص:81، ويتضح من رواية المقريزي ، الخطط، ج1،ص:353. أن بلكين أظهر زهده في الولاية عمدا ،وحاول أن يستقيد من الخطأ الذي ارتكبه جعفر بن علي في الحصول على إستقلال ذاتي لإمارته،فكان هدفه الآني الحصول على الإمارة ،أما الانفصال عن الخلافة فسيأتي بطول المدة باعتراف المعز نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص:354.

(4) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

فأما كتامة فبالرغم من الخدمات الكبيرة التي أسدتها للخلافة وتفانيها في الذود عن المذهب الشيعي الإسماعيلي حتى أضحت العصب العسكري للدولة ،إلا أن المعز رأى بأن الخلافة لازالت في أمس الحاجة إليها لتثبت أقدامها في مصر ،وتنفيذ المشاريع السياسية والعسكرية المستقبلية لها، زيادة على أنها أظهرت في مناسبات كثيرة أنها غير مأمونة الجانب لثوراتها المستمرة ضد الخلافة،[1]،ومع ذلك فقد حاول المعز استرضاءها بأن جعل ولاية طرابلس لأحد رجالاتها وهو عبد الله بن يخلف الكتامي.[2]

أما بالنسبة للأستاذ جوذر الذي أبدى كفاءة عالية وبصيرة نافذة وضعها في خدمة الخلفاء الفاطميين،وتفانى في إسداء النصح لهم حتى صار الرجل الثاني في الدولة وأمين سرها ،إلا أن ذلك لم يشفع له لدى المعز بسبب كبر سنه ،وأن البربر لن ينقادوا له ،ولا يقبلوا بحكمه كونه غريبا عنهم ،ويفتقد إلى عصبية تدعمه ،زيادة على أن الخلافة لا تزال في حاجة إلى خدماته في مصر، وقد بين المعز أسباب عدم توليته للأستاذ جوذر على إفريقية في قوله " **إنك لا تجد من يصفو لك على ما تريد من فساد طباع الناس وطبائعهم.** [3]

أما فيما يتعلق بأحد أبناء المعز فإن الفكرة طرحت عليه لكنه رفضها بحجة أن المغرب لم يخضع له في حضوره فكيف يخضع له في غيابه[4]،ويمكن أن نستشف من خلال وصيته لبلكين بن زيري عند رحيله إلى مصر بعدم تولية أحد إخوته أو بني عمه ،أن المعز خشي من أنه إذا ولّى أحدا من أبنائه أو أقاربه على المغرب أن يستقل بها ويهدد وجوده بالمنطقة ولو بطول المدة.[5]

وبالنسبة لجعفر بن علي بن حمدون فقد فكر المعز فعلا في توليته على إفريقية والمغرب ـــ وشاع ذلك بين الناس ـــ قبل أن يستنجد ببلكين بن زيري[6] ، إذ تذكر المصادر أن المعز لما عزم على توليته استدعاه وعرض عليه الأمر ، فقال له جعفر: تترك معي أحد أولادك أو إخوانك يجلس في القصر وأنا أدبر ،كما طلب منه أن يكون مستقلا في إدارة شؤونه السياسية والإدارية دون أن يرجع إليه في أمره لبعد ما بين مصر والمغرب ،وأبى أن يراقبه على أموال الدولة لأن ما يجبيه يكون بإزاء ما ينفقه كما ألح على أن يكون تقليد القضاء والخراج بيده[7] ،عندئذ غضب المعز وقال له:" عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي فيه

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:321-322.
(2) الداعي إدريس ، المصدر السابق،ص:717.
(3) المصدر نفسه،ص:718.
(4)عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص:243-244.
(5)المقريزي ، الخطط، ج1،ص:353.
(6)المقريزي ، اتعاظ الحنفا، ص:99.
(7)المقريزي، الخطط، ج1،ص:352-353

شريكا في أمري،واستبددت بالأموال والأعمال دوني ، قم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشدك"[1] ، فصرف النظر عنه.

ومهما يكن من أمر فقد استقر رأي المعز على أن يجعل بلكين بن زيري على ولاية المغرب ، على الرغم من اعتراض أحد أعمامه وتشكيكه فيما قاله بلكين،إلا أن المعز أجابه بحكمة تنم عن دراية تامة بخبايا السياسة،وعن خبرة كبيرة بطباع أهل المغرب وكفاءة تامة في تدبير شؤون دولته ،حيث قال له: **"يا عم كم بين يوسف وقول جعفر ، فاعلم ياعم إن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداءا هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف،وإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أجود وأحسن عند ذوي الرأي وهو نهاية ما يفعله."**[2]

وهكذا فقد عيّن المعز لدين الله بلكين بن زيري واليا على المغرب وإفريقية ــ وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة ــ[3] إلا أنه أبقى طرابلس منفصلة عنه وجعل عليها عبد الله بن يخلف الكتامي كما ثبت أبا القاسم علي بن الحسن الكلبي على صيقلية.[4]

ولما همّ بالرحيل وأتم جميع ترتيباته وتجهيزاته صحبه بلكين بن زيري حتى قابس وبها أمره المعز بالعودة ،وأوصاه بوصايا كثيرة ،كان آخرها " **يا يوسف إن نسيت ما أوصيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء،لا ترفع الجباية عن أهل البادية ،ولا ترفع السيف عن البربر ،ولا تولي أحدا من إخوتك فإنهم يرون أنهم أحق بالأمر منك**"ويضيف البعض وصية رابعة **"واستوصي بالحضر خيرا".**[5]

ينفرد أبو زكرياء[6] بذكر هذه الوصايا برواية مختلفة تماما عن ما ورد في المصادر الأخرى السنية والشيعية ،ومؤداها أن المعز لما همّ بالرحيل إلى مصر قال لبلكين :**"...اشفني في أولاد المجوس زناتة ومزاتة ..وإني تركت لك في إفريقية مائة ألف منزل ، فاجعل في كل منزل فارسا تكتفي به لمحاربتها.."**

ويبدو من خلال هذه الوصايا أن المعز كانت له دراية واسعة بشؤون المنطقة ومعرفة مستفيضة بطباع الناس وطبائعهم ،ولا جرم أنها كانت تتوارث بين الخلفاء الفاطميين ،كونها تمثل الأصول العامة لنظام الحكم.

وتبعا لهذه الوصايا فقد رسم المعز الخطوط العريضة التي ينبغي أن تنبني عليها سياسته تجاه البربر ، فقد أوصاه بعدم رفع الجباية عن أهل البادية لأن استمرار ولائهم له يعبر عنه استجابتهم لأمر السعاة

(1)المقريزي، الخطط، ج1،ص:352-353.
(2)المصدر نفسه ، ج1،ص:353.
(3)النويري ، المصدر السابق، ص:311.
(4)الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص:717.،أبو حفص زين الدين عمر بن الوردي ،تتمة المختصر في أخبار البشر، المطبعة الوهبية، د.م، 1854،ص:41.
(5) الزياني ، المصدر السابق،ص:71
(6)سير الأئمة، ص:230.

والجباة،كما نصحه بعدم رفع السيف عن البربر ،لأن من طباعهم البطش وكثرة التقلب والميل إلى سفك الدماء ، فلا يدينون له إلا إذا أعمل السيف في رقابهم " **فالحديد بالحديد يفلح**" ،وهي السياسة نفسها التي أوصى بها عبد المؤمن بن علي الكومي ولده يوسف العسكري لما عقد له ولاية العهد، فقال له :" **عقوبة العرب المال،وعقوبة البربر القتل،فإياك أن ترفع السيف عن البربر والمال عن العرب ، فلا يستقيموا إلا على هذا المنوال**"(1) ،كما إستوصاه خيرا بأهل الحاضرة كونهم الشريان الإقتصادي الرئيس للدولة من خلال مواظبتهم على دفع الضرائب والمكوس من جهة ، زيادة على كونهم مأموني الجانب من جهة أخرى، فقد أثبتت الأحداث التاريخية أن الخطر الذي يهدد الدول آنذاك يبدأ دائما من خارج مراكز السلطة السياسية وهو ما حدث مع الخلافة الفاطمية نفسها في ثورة صاحب الحمار التي اندلعت من جبل أوراس.

أما إلحاحه عليه بعدم تولية أحد إخوته فقد بيّن المعز سببه لاسيما أن إخوة بلكين كانوا يعتقدون أنهم أعظم شأنا منه ،وأقدم منه في خدمة الخلافة باعتراف والده زيري بن مناد نفسه، عندما طلب المعز منه أن يحضره إليه.(2)

ويذهب بعض الدارسين والباحثين المحدثين(3) إلى القول بأن هذه الوصايا تنم بوضوح عن الصعوبات التي واجهها الفاطميون في سبيل نشر أيديولوجيتهم المذهبية ،وأن ورودها بهذا الشكل هو انتقام مباشر للمعز من قبائل البربر التي عارضت وجودهم وأكثرت القلاقل واستعانت بالأعداء، وربما قصد زناتة بصفة خاصة ،ويصبح هذا الطرح أكثر مصداقية عندما نطلع على وصية المعز لبلكين بالصيغة التي أوردها أبو زكريا(4) " **اشفني في أولاد المجوس من زناتة ومزاتة ...أني تركت لك في إفريقية مائة ألف متزل ، فاجعل على كل متزل فارسا تكتفي به لمحاربتها**"، لاسيما أنه استثني صنهاجة التي جعلها حامية له على المنطقة، وكتامة التي أعفاها من دفع الضرائب(5) ، على الرغم من محاولته تطييب خاطر زناتة بأن أرجع لها الغنائم التي حصلها منها بلكين في حملته عليها سنة361هـ/972م(6).

(1) الزياني ، االمصدر السابق، ص:161.

(2)عدّ ابن أبي الضياف هذه الوصية مقبولة من حيث المبدأ ،وأنها الأصلح لإدارة شؤون البربر وإخضاعهم لسلطة أية دولة، وعلق عليها قائلا:"وهذه الوصية معقولة المعنى لأن أهل البوادي لولا الجباية لما عمروا أرضا ولا سعوا في تكسب لما في طباعهم من الشدة ،وأرزاقهم في ظل رماحهم ،وهو إنما أوصاه بعدم المسامحة في الجباية ، وأما البربر فإن سيوفهم لم تزل بادية للبغي والقتل لكثرة قبائلهم والشديد يدفع بمثله إذا أعياك غيره، وأما وصايته بالمدن فلتكثر في الوجود...إتحاف أهل الزمان ، ج1،ص:132.

(3) Marçais(G), La Berbèrie Musulmane et l'Orient au moyen âge ,édition montagne, Paris ,1946,p:182

(4)سير الأئمة، ص:230

(5)المقريزي، الخطط، ،ج1، ص:352-353.

(6)النويري ، المصدر السابق، ص:311.

وتختلف المصادر اختلافا طفيفا في تاريخ تولية المعز لدين الله الفاطمي لبلكين بن زيري واليا على إفريقية والمغرب، وتنحصر جل الروايات ما بين 21 شوال 361هـ / 5أوت 972م و11 ربيع الأول 362هـ/ 20ديسمبر 972م.(1)

وهكذا رحل المعز إلى مصر بعد أن عيّن زيادة الله بن القديم على جباية الأموال، وعبد الجبار الخرساني وحسين بن يخلف الموصدي على الخراج ،وأوصاهم بالسمع والطاعة لبلكين ، ثم انصرف ابن زيري قافلا إلى القيروان فرحب به أهلها وهنوه بالإمارة ، فعقد الولايات للعمال ،وأخرج السعاة إلى سائر الأعمال(2) ، ثم خرج لتأديب المعارضين لسلطته ،وبذلك صارت صنهاجة سيدة على بلاد المغرب كلها.

!!!

(1)مفاخر البربر ، ص:142، ابن خلكان ، المصدر السابق، ج1،ص:257، ابن الأثير ، الكامل، ج7،ص:72، النويري، المصدر السابق، ص312، التيجاني ، المصدر السابق، ص17، ابن الخطيب ، الأعمال ، ص65، ابن خلدون العبر ، ج6، ص:155، المقريزي ، الخطط، ج1، ص:353-354. الداعي إدريس ، المصدر السابق، ص: 717 .وينفرد ابن ظافر الأزدي بتحديد سنة 366هـ/977-978 كتاريخ لرحيل المعز لدين الله إلى مصر ، أخبار الدول المتقطعة ، ج1،ص:34

(2)النويري ، المصدر السابق، ص:311

الفصل الرابع

ϑ المجتمع الصنهاجي ϑ

1ـــ التنظيم القبلي

2 ـــ الأسرة الصنهاجية

3 ـــ تركيبة المجتمع الصنهاجي " أشير نموذجا "

4 ـــ اقتصاد القبيلة

5 ـــ عادات وتقاليد صنهاجية:

(المسكن ، اللباس، المأكل ، الكرم، الثأر ، التحالف ، شدة الولاء ، اقتسام الغنائم ، النظافة ، الإيمان بالطوالع والتنجيم، علم الأكتاف ، التسلية)

1ــ التنظيم القبلي :

شكلت الظاهرة القبلية محورا أساسيا في اهتمامات المؤرخين وعلماء الإجتماع والأنتربولوجيا لتحديد الملامح العامة للمجتمع المغربي في العصر الوسيط ، باعتبارها ظاهرة إجتماعية وإقتصادية تعكس بوضوح البناء السياسي والإجتماعي المغربي وإمكانياته المادية والبشرية ،وتميط اللثام عن كثير من قيمه وعاداته وتقاليده.

ولئن مثلت البداوة جانبا هاما من حياة المغاربة آنذاك ، فقد قسمها بعض الباحثين والمؤرخين من حيث نمط معيشتها إلى قسمين متمايزين : قسم استقر بالسهول الخصبة والمناطق الجبلية ،سكن البيوت ومارس الزراعة ،وامتهن بعض الحرف ،وانتظم في شكل قرى صغيرة وهم سكان الأرياف " **أهل المدر**" كما يسميهم ابن خلدون.[1]

وقسم آخر اختار مناطق السهوب والصحراء منتجعا له ،واشتغل بالرعي وتربية الحيوانات ،وجعل من خيام الصوف والوبر ــ التي يسهل عليه نقلها عند ترحاله ــ وكرا يأوي إليه يحميه قرّ الشتاء وحر الصيف ،وهم سكان البوادي " **أهل الوبر** " على رأي العلامة ابن خلدون.[2]

وانطلاقا من هذا الواقع فقد شكلت صنهاجة المغرب الأوسط بما تمثله من وفرة عددية وسعة انتشار إحدى ركائز المجتمع الريفي بالمغرب الأوسط آنذاك[3]،على الرغم من النقلة النوعية التي خطتها نحو حياة التمدن والتحضر منذ اختطاط مدينة أشير واحتكاكها بكبريات المراكز الحضارية ببلاد المغرب، من خلال الدور البارز الذي صارت تضطلع به في المنطقة.[4]

ولا ريب بأن الوحدات الإجتماعية التي كان يتألف منها المجتمع الصنهاجي لا تخرج عن الحيز العام للتنظيم القبلي في بلاد المغرب عموما ،والذي جعل من الأسرة خلية أساسية له كما سيأتي توضيحه.

ولما توسعت الأسر والعائلات تشابكت أنسابها فتشكلت الأفخاذ والعشائر ،وباتحادها ظهر ما يعرف بالبطون والقبائل،وهي أكبر الوحدات الإجتماعية ورودا في المصادر التاريخية ،وأشهرها بالمغرب الأوسط: **تلكاتة ، مزغنة ، لمدونة ، مليانة.**[5]

(1) المقدمة، ص:212.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) ابن خلدون، العبر، ج6، ص:152.

(4) النويري ، المصدر السابق، ص:303-304.

(5)ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص:153

ونفتقر إلى المعلومات الكافية التي توضح الطريقة التي إنتهجها الصنهاجيون بالمغرب الأوسط في تسيير شؤونهم السياسية والإجتماعية وحتى الإقتصادية ،وعلى ما يبدو فإنها لا تختلف كثيرا عن غيرها من القبائل المغربية بحكم الاحتكاك ووحدة البيئة الجغرافية وتشابه أنماط المعيشة.

فقد كانت كل قرية تنتدب شخصا من أفرادها يدير شؤونها[1] ويمثلها في المجلس العام للقبيلة ، الذي يختار من بين أعضائه رئيسا له يعرف باللهجة البربرية " **آمغار**" ويكون بيده حق اتخاذ القرارات المصيرية كإعلان الحرب أو السلم أو عقد التحالفات ،وقد عرف هذا النظام أوجّه عندما وحد زيري بن مناد بطونهم في الحلف الصنهاجي الكبير (اتحاد قبلي)[2].

ويتضح من خلال الإشارات التاريخية والكتابات المنقبية التي خصت زعماء بطن تلكاتة ،أن شيخ القبيلة يجب أن تتوفر فيه جملة من الشروط تؤهله لاعتلاء سلطة أعلى جهاز سياسي وإجتماعي فيها، وتكمن في: **الشجاعة وسخا ء اليد والحكمة وحسن التدبير وقوة العصبة** ، وقد لا يكون كبير السن مطلوبا في بعض الحالات إذا ما توفرت هذه الشروط كما حدث مع زيري بن مناد وابنه بلكين.[3]

وإلى جانب مهامه الخارجية التي سبقت الإشارة إليها يطلع شيخ القبيلة بمهام أخرى داخلية لا تقل أهمية من خلال سهره على تطبيق القوانين والأعراف والإشراف على حماية القوافل التي تعبر أراضي القبيلة واستخلاص الضرائب المفروضة عليها.[4]

كما يعمل شيخ القبيلة بمساعدة مجلسه الإستشاري على ضمان التوازن الداخلي بين الأسر والعشائر ويحول دون نشوب الصراعات بينهم، وحل النزاعات في حالة وقوعها،وتنشيط التعاون من أجل المصلحة المشتركة.[5]

ويستشف من خلال الاسم الذي يطلق على إحدى المواضع الأثرية لأشير المعروف بـــ" **مزه بنت السلطان** "[6] أن زعيم صنهاجة كان يتمتع بلقب " **السلطان**"،وهو الاسم الذي اعتاد الأطفال إطلاقه على زيري خلال طفولته في ألعابهم[7] ، لاسيما أن أشير كانت تتوفر على جميع مقاييس الدولة أو الإمارة منذ عهد زيري بن مناد من عملة وعاصمة وجيش نظامي، وإقليم واضح المعالم ،وجهاز سياسي قار.

---

(1) مفاخر البربر ، ص:255

(2)النويري ، المصدر السابق،ص:303

(3) ابن الأثير ، الكامل ، ج7،ص:47.

(4) ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:97.

(5) بونشيش ، مباحث في التاريخ الإجتماعي ، ص:237.

(6) Rodet,op-cit,p:87

(7)النويري ، المصدر السابق، ص:303.

كما يتجلى من خلال الطريقة التي تعاقب بها زعماء تلكاتة على رئاسة صنهاجة المغرب الأوسط أن رئاسة القبيلة كانت وراثية في أسرة مناد بن منقوش الذي خلفه ابنه زيري بن مناد، ولما وفاه أجله انتقلت الزعامة إلى ابنه بلكين بن زيري[1] ،وحتى بعد ارتقاء صنهاجة إلى مصاف الملك فقد ظلت الرئاسة فيها وراثية تنتقل من الأب إلى الابن سواء لدى الزيريين في إفريقية أو الحماديين بالمغرب الأوسط، وحتى ملوك بني زيري بغرناطة.

وعلى غرار ما كانت تعيشه معظم القبائل المغربية ، فإن قبائل وبطون صنهاجة كانت تتحارب حينا وتتصالح أحيانا أخرى، واحتدم الصراع أكثر بينها منذ ظهور القائم الذي كانوا ينتظرونه ،وإليه يؤول ملك المغرب كله.[2]

فما أن علمت بطون صنهاجة بأن زيري بن مناد هو الذي ظهرت فيه نبوءة الكاهن اليمني وفراسة الرجل المغربي حتى أدمروا له العداء وحسدوا قبيلة تلكاتة ، فتحالفوا ضدها قبل أن يستفحل أمرها مما أدى إلى اتساع الانقسامات الداخلية وسط صنهاجة[3] ، بيد أن زيري استطاع أن يهزمهم ،ويفرق جموعهم حتى بعد أن تحالفوا مع غرمائه التقليديين من زناتة ،ولا يستبعد أن يكون ذلك تم بإيعاز من الخلافة الفاطمية لتوحيد صفوف صنهاجة لتضرب بها قبيلة زناتة التي كثرت قلاقلها من جهة، وحتى تثبت أقدامها بالمنطقة من جهة أخرى.[4] .

وهكذا تمكن زيري من دحض كل خصومه، وشكّل حلف صنهاجة الكبير الذي ضم جل قبائل صنهاجة المغرب الأوسط[5] والقبائل التي خشيت سطوتها وانضوت تحت لوائها كمغراوة وبني يفرن.[6]

ومن هنا فقد اتخذ المجتمع الصنهاجي لأول مرة في تاريخه لاسيما بعد بناء أشير شكل جماعة منظمة لها جهاز سياسي محكم،وعاصمة قارة ، وجيش نظامي ، وعملة خاصة ،وهو ما ينم بوضوح عن بروز الملامح الأولى لانتقال صنهاجة المغرب الأوسط إلى حياة التحضر[7] ،وينبئ بأنها ستصبح إحدى أقطاب الإشعاع العلمي والحضاري في المنطقة خاصة مع تنامي مكانتها السياسية والعسكرية.

---

(1)ابن خلدون، العبر ، ج6،ص:158.

(2)النويري ، المصدر السابق، ص:301

(3) Golvin,op-cit,p:26

(4)النويري ، المصدر السابق، ص:304.

(5)ابن الأثير ، الكامل ، ج7،ص:47.

(6)ابن سعيد، المصدر السابق، ص:141.

(7)سعد زغلول ، المرجع السابق، ج3،ص:297.

وقد آثرت إغفال بعض الجوانب المتعلقة بالنظام القبلي لدى الصنهاجيين كمكانة المرأة وعادات الأكل واللباس والخصائص العامة لهذه القبيلة لتفادي التكرار ،والتي خصصت لها حيز أكبر في مجال عادات وتقاليد القبيلة.

ومهما يكن من أمر و على الرغم من أن نمو المجتمع الصنهاجي لم يكتمل إلا بعد عودة الفاطميين إلى مصر سنة362هـ/973م حيث بقي على صلة وثيقة بالنظام القبلي ، إلا أن بوادر ظهور فوارق إجتماعية بين الفئات المشكلة له بدأت تطفو إلى السطح منذ وقت مبكر كما سيأتي توضيحه.

وقد شهد هذا المجتمع توسعا كبيرا وتنوعا في تركيبته بمرور الوقت ،حيث عمل زيري بن مناد على نقل وجوه الناس من طبنة والمسيلة إلى أشير(1)، بالإضافة إلى خلق كثير من زناتة تلمسان الذين رحلهم بلكين بن زيري إلى أحواز أشير بعد أن ائتمروا عليه.(2)

وقصارى القول أن التنظيم القبلي الصنهاجي لم يختلف عنه لدى القبائل المغربية الأخرى ، من حيث تراتب الوحدات الإجتماعية ،واتخاذ مجلس القبيلة الذي تتناول فيه كل القضايا المتعلقة بالحياة السياسية والإجتماعية والإقتصادية والعلاقات مع القبائل المجاورة ،إلا أنه ـــ أي التنظيم القبلي ـــ كان أكثر نضجا منها ـــ أي نظم القبائل الأخرى ـــ وأظهر أفراده تلاحما وانسجاما سرعان ما بدت آثاره على ساحة الأحداث.

2 ـــ الأسرة الصنهاجية:

كما تمت الإشارة إليه سابقا فقد شكلت الأسرة أصغر وحدة في التنظيم الإجتماعي الصنهاجي ،إلا أنها أكثرها عصبة وأشدها تلاحما وتماسكا.

ولئن جعل بعض علماء الإجتماع والأنتروبولوجيا من الأسرة نظاما إجتماعيا وإقتصاديا قائما بحد ذاته ، تشد وثاقه صلات قانونية وأخلاقية ،ويتمتع أفراده ببعض الحقوق والواجبات(3)، فقد شكلت العمود الفقري للمجتمع الصنهاجي والركيزة الأساسية لبنيانه.

وعادة ما تتألف الأسرة الصنهاجية من الأب والزوجة (أو عدة زوجات) والأبناء المتزوجين والعزاب، وتضرب لنا المصادر التاريخية مثلا عن الأسرة الصنهاجية بأسرة " **زيري بن مناد**" المكونة من الأب " زيري " وعدة زوجات ،ومائة من الأبناء الذكور منهم " **بليكن ، ماكسن،كباب، أبو البهار ، مغنين ، حبوس ، زاوي، جلالة ،**

(1) النويري ، المصدر السابق، ص:305.
(2)ابن عذاري، المصدر السابق، ج1،ص:363.
(3) الفوال ، المرجع السابق، ص:202.

حماد، عزم[1] بالإضافة إلى إخوته بعائلاتهم ،ومن مجموع الأسر تشكلت أسرة " بني مناد الموسعة " التي ضمت مجموعة كبيرة من الأفراد كاد زيري أن يكتفي بهم في بعض حروبه.[2]

و على الرغم من غياب إشارات واضحة في كتب التاريخ والفقه والنوازل والسير وحتى كتب الرحلات التي بين أيدينا حول وظائف الأسرة في المجتمع ومكانة أفرادها في البناء الإجتماعي ،إلا أننا سنحاول تفكيك بعض التلميحات التي وردت متناثرة هنا وهناك لرفع اللبس ولو بقسط يسير عن هذا الجانب.

أ ــ الرجـــل:

تمتع الرجل بمكانة مرموقة في المجتمع الصنهاجي فهو رب الأسرة والمدير الأول لشؤونها ،وعلى عاتقه تقع مسؤولية الدفاع عنها وإعالتها والإنفاق عليها.[3]

وزيادة على الواجبات التي فرضها الدين الإسلامي والأعراف القبلية من عيادة المريض وصلة الرحم والبر بالأيتام والإحسان إلى الجار، فإن للرجال مسؤولية كبيرة في الحفاظ على أمن واستقرار العشيرة أو القبيلة التي ينتمي إليها.

وللرجال الحق وحدهم ــ عن طريق ممثليهم في مجلس القبيلة ــ في اتخاذ القرارات المصيرية للذوذ عن حياض القبيلة والحفاظ على مصالحها الاقتصادية ومنجزاتها العسكرية وتنظيم شؤونها السياسية.

ب ــ المرأة :

ظلت الدراسات المتعقلة بالمسألة النسوية والدور المنوط بالمرأة في المجتمع من المواضيع الحساسة التي أثارت جدلا كبيرا بين الباحثين على مختلف مناهلهم ،إلا أنها لم تحظ بالعناية الكافية في العصر الوسيط ،إذ لم تتم الإشارة إليها إلا بصورة عابرة أو في ظل دراسة عامة لا تسمح بالوقوف على الدور الحقيقي الذي اضطلعت به المرأة في المجتمع الإسلامي آنذاك.

ولئن أعطى الإسلام المرأة كامل حقوقها وحررها من الوأد والإستعباد وشتى عادات الجاهلية ، التي تستصغرها وتهين كرامتها، إلا أن مكانتها ارتبطت ــ نتيجة للتطور السياسي والإجتماعي الذي عرفته الدولة الإسلامية ــ بالمذهب الذي تنتمي إليه ونظرته إلى المرأة والدور المخول إياها.[4]

وعلى كل فإن طبيعة الخدمات التي كانت تسديها صنهاجة المغرب الأوسط للفاطميين والصراع المستمر مع زناتة ،جعلت المصادر تهمل دور المرأة فيه ولا توليها بالا،رغم أن النقائش الزيرية فيما بعد

(1)النويري ، المصدر السابق، ص:301، 303، 304، 307.

(2)المصدر نفسه، ص:306.

(3)الفوال ، المرجع السابق، ص:192.

(4)المرجع نفسه، ص:192-193.

تطلعنا على أسماء وألقاب لنساء صنهاجيات تنم على أنهن كن يحظين بمكانة مرموقة، مثل: **سيدة الجميع، ست السيد، ست الأهل ، ست الدار ،زين الدار.**[1]

وإذا كانت الوثائق التاريخية أهملت دور المرأة في المعترك السياسي والعسكري الصنهاجي ، فإن دورها في بيت الزوجية يشهد لها بالخدمات الكبيرة التي كانت تؤديها لزوجها وأولادها حتى جعلت منها عماد الأسرة الصنهاجية.

ولاريب في أنها كانت تقوم بنفس الأعمال التي مازالت حفيداتها تمارسنها إلى يومنا هذا ،من طبخ وعجن وفرش وحمل الماء والإحتطاب[2] ، زيادة على رعاية أبنائها وتلبية طلبات زوجها.

كما شاركت المرأة الصنهاجية في العملية الإنتاجية من خلال القيام بأعمال يدوية كالغزل والنسيج[3] على إطارات عمودية لصناعة الأغطية والملابس ، التي أشار ابن قتيبة إلى أنها كانت متوفرة بكثرة في أثناء الفتح الإسلامي لبلاد صنهاجة[4] ، إضافة إلى تفننها في صناعة الأواني الفخارية والطينية المزخرفة[5] التي مازالت إحدى الخصائص المميزة لقبائل المغرب الأوسط إلى يومنا هذا.

وقد أدى انشغال الرجل بالإستعداد الدائم للحرب والبحث عن لقمة العيش لأهل بيته إلى إلقاء أعباء جديدة على كاهل المرأة كصنع الخيام ونقلها ونصبها.

و على الرغم من سكوت المصادر عن عادات وتقاليد صنهاجة في جانب الزواج ،إلا أنه يرجح أنها لم تخرج عن الإطار العام للأعراف القبلية والشريعة الإسلامية في كامل بلاد المغرب.

ولا مراء أن الصنهاجيين بالمغرب الأوسط راعوا الشروط التي وضعوها في أنكحتهم ،من حضور الولي وشاهدين عدلين والصداق أو المهر.[6]

ولئن كان صداق المرأة غير محدد[7] كما أشار إلى ذلك الشارع الحكيم ويرتبط بقدرة الزوج ورضا الطرفين، فإنه جرى العرف في كامل بلاد المغرب أن يقسم إلى جزئين يعرفان بالنقد والمهر[8] ،وتستلم

---

(1)روجي إدريس ، المرجع السابق، ج2،ص:425.

(2)البرزلي ، المصدر السابق، ج2،ص:54ظ.

(3)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4)ابن قتيبة ، المصدر السابق، ج2،ص:54.

(5) Golvin, op.cit,p:26

(6)سيد سابق، فقه السنة، ط2،دار المؤيد للنشر والتوزيع، الرياض، 2001، ج2،ص:152.

(7) أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني ، سير مشائخ المغرب،تحقيق:اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985،ص:25.

(8)الونشريسي، المصدر السابق، ج3،ص:209.

الخطيبة الشطر الأول قبل الزواج وتنفقه في شراء الشورا ودفع نفقات العرس، من: الحناء والصباغ واستئجار الحلي والملابس حسب ما أفتى به اللخمي(ت 478هــ/1085م)[1] .

ومن المرجح أن الصداق لدى الصنهاجيين ــ على الأقل قبل سك زيري بن مناد للعملة ــ كان يقدم عينا بسبب عدم وفرة النقود ،ولا ريب أنه كان يراعى في ذلك أن يقدم في شكل لوازم التي تحتاج إليها الخطيبة في تجهيز نفسها كالصوف والكتان والحليّ.[2]

وبعد استكمال الإستعداد للزواج تقام وليمة العرس لإعلان القران، ويدعى فيها أهل العروسين ، وتنحر على شرفهما الذبائح من الأغنام والأبقار ــ التي تتوفر بكثرة في بلاد صنهاجة ــ وغالبا ما يتحمل العريس نفقات العرس.[3]

وتجدر الإشارة إلى أن عادة تعدد الزوجات كانت منتشرة بكثرة في المجتمع الصنهاجي ،وهذا ما يفسر الوفرة العددية الكبيرة التي تتسم بها صنهاجة[4] ، إذ تشير المصادر إلى أن مناد بن منقوش كان متزوجا بأكثر من زوجة،وكذلك الشأن بالنسبة لبلكين الذي كانت في ذمته أربع زوجات وأربعمائة حظية،حتى أن البشائر جاءته بسبعة عشر مولودا في يوم واحد[5] .

وهكذا فقد حرص الصنهاجيون ــ على الأقل القادة منهم ــ على تعدد الزوجات واتخاذ الجواري، لكي يعنهن على الأشغال المنزلية ،ويقضون منهن مآربهم المختلفة.

ويبدو أن شيوع تعدد الزوجات بين الصنهاجيين كان هدفه الإكثار من النسل لاسيما الذكور، لتغطية النقص العددي الكبير الذي استترفته حروبهم المستمرة ضد زناتة.

وأمام غياب دلائل واضحة ترفع اللبس عن الذهنية الصنهاجية بالمغرب الأوسط في التعامل مع المرأة حيث نجهل إن كانت تورث أم لا ، إذ نجد أنفسنا أمام جملة من المتناقضات:

ــ أن العرف لدى بعض القبائل المغربية اقتضى منع المرأة من حقها في الإرث[6] تبعا للعادات والتقاليد واختلاف نظرة المذاهب للمرأة، على الرغم من أن الإسلام أباح لها ذلك ، تبعا لقوله تعالى **"وللذكر مثل حظ الأنثيين"**[7] .

---

(1)الونشريسي، فتوى ابن رشد،ج3، ص:122.
(2)المالكي ، المصدر السابق، ج2،ص:251.
(3)المصدر نفسه ، ج2، ص:168.
(4)النويري، المصدر السابق، ص:302-303.
(5)ابن العماد، المصدر السابق، ج3،ص:80.
(6)الونشريسي، المصدر السابق، ج9،ص:153
(7)سورة النساء ،الآية [11]

ـــ أن المرأة في المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي تبنته صنهاجة المغرب الأوسط احتلت مكانة مرموقة ، بل أنها كانت المحور الرئيس الذي اعتمد عليه الشيعة في إضفاء الشرعية على حقهم في الخلافة ، وأن البنت أحق بالإرث من العم.[1]

ـــ أن المرأة الصنهاجية في الجنوب احتلت مكانة إجتماعية مرموقة ، فزيادة على قيامها بأعمالها المترلية شاركت الرجال في اتخاذ القرارات ،وسعت لطلب العلم ،وتدخلت في شؤون السياسة على غرار السيدة زينب زوجة يوسف بن تاشفين التي كان زوجها يستشيرها في شؤون الدولة ويسترشد بنصائحها، وعلت مكانتها حتى صارت تشفع في وجوه القوم، كل هذا يرجح بأنها كانت تورث.[2]

جـــ ـــ تربية الأولاد:

لا ريب في أن المجتمع الصنهاجي قد أولى اهتماما بالغا بأولاده وأحاطهم بعناية كبيرة، وحرص على تنشئتهم تنشئة صالحة وفقا لما تقتضيه الشريعة الإسلامية والأعراف القبلية ،لأنهم كانوا يرون فيهم استمرارا لوجودهم ووسيلة لحفظ تراثهم وعاداتهم وتقاليدهم ، بيد أنهم فضلوا البنين على البنات.

(جـــ ـــ 1) الذكور :

كانت الأسرة الصنهاجية أشد ما تكون مسرورة إذا ما رزقت مولودا ذكرا ، فتحيطه بالرعاية والعطف ،ولا تبرحه أمه حتى في أثناء قيامها بأشغالها حاملة إياه على ظهرها.

وعندما يشب الطفل يسهر أبوه على تربيته وفق تقاليد القبيلة التي اقتضت أن يتفرغ الآباء لتدريب أبنائهم على الفروسية والقتال ومختلف الفنون الحربية لمواجهة أعدائهم من زناتة، وذلك ما كان يترجمه الأطفال في ألعابهم[3] ، فكثيرا ما كانوا يتشبهون بالعساكر وينقسمون إلى مجموعتين تغزو إحداهما الأخرى ومع ذلك فإنهم لا يشتركون في الحروب إلا عند بلوغهم سن الرشد كما حدث لكباب[4] بن زيري عندما منعه والده من المشاركة في صد هجوم زناتة على أشير ،وعندما يبلغ مبلغ الرجال يحمّل مسؤولية الدفاع عن القبيلة.

وحرصا منهم على تأمين مصالحهم الإقتصادية والعسكرية للقبيلة واستتباب الأمن داخلها كثيرا ما كان يعمد الصنهاجيون إلى التناسل والإكثار من الأولاد ، بغية الاستعانة بهم على أعدائهم وتوفير طاقة بشرية متجددة لترجيح كفتهم.

---

(1)الشهرستاني ، المصدر السابق، ج2،ص:132.

(2) أحمد بن محمد بن محمد بن العافية بن القاضي، جذوة الإقتباس ، الطبعة الحجرية ،فاس،1888،ص:106.

(3)النويري، المصدر السابق،ص:303

(4)المصدر نفسه، ص:307.

(جــ 2)الإناث:

على عكس الذكور حظيت البنات بعناية أقل من قبل المجتمعات القبلية عموما، وكانوا ينظرون إليها على أنها لا تجلب لهم سوى الخزي والعار وتحط من قيمتهم بين المجتمعات الأخرى، وقد حرص بعضهم على وأد بناتهم وهن أحياء قبل أن يلحق بهم الذل والعار، كما كان متعاملا به في شبه الجزيرة العربية[1]،وصوره قوله تعالى :**"وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت"**[2] .

ولئن كان المجتمع الصنهاجي قد ترفع عن هذه العادة الذميمة بفضل انشراح صدره للإسلام ،إلا أنه لم يول البنت العناية الكافية وركز اهتمامه على الذكر ،ومرد هذا التمييز في معاملة الأبناء أن الابن الذكرــ كما أسلفناــ سيوظف في الدفاع عن القبيلة من جهة ،وأنه يمثل امتدادا لنسل الأسرة واستمرارا لوجودها من جهة أخرى، على عكس البنت التي كانت عالة عليها حتى تصل سن الزواج ،وعند اقترانها برجل آخر يتحول ولاؤها من أسرتها إلى بيت الزوجية.[3]

وعلى هذا الأساس فإن البنت عندما تبلغ مرحلة الشباب توكل إليها بعض الأعمال الخفيفة في المترل، كمساعدة أمها في رعاية الأطفال ، وتعمل والدتها على تلقينها مختلف الأشغال والعادات النسوية المعمول بها داخل القبيلة لتهيئتها لبناء عش الزوجية.[4]

والخلاصة أن تربية الأولاد في المجتمع الصنهاجي اختلفت بين الذكور والإناث وفق ما تمليه مصلحة القبيلة ،طبعا دون الخروج على ما نصت عليه الشريعة الإسلامية والأعراف القبلية.

3 ــ تركيبة المجتمع الصنهاجي " أشير نموذجا":

ويقوم النظام القبلي في المجتمعات الريفية عموما على أساس المساواة بين أفراده في الحقوق والواجبات ، من حيث الإسهام في صنع القرارات السياسية والذود عن حياض القبيلة ،أو من خلال المشاركة في الاستفادة من الغنائم ، واستغلال المنتجعات والعيون والآبار المشاعة.[5]

---

(1)فيليب حتي، تاريخ العرب مطول، ترجمة: محمد مبروك ، دار العالم العربي، القاهرة، 1949، ج1، ص:32

(2)سورة الانفطار، الآية [8-9].

(3)الفوال ، المرجع السابق، ص:93.

(4) Golvin,op.cit,p:26-27

(5)ابن خلدون، المقدمة ، ص:198.

ومن هنا فالمجتمع الريفي لا يقيم وزنا للفوارق الإجتماعية بين الفئات المشكلة له إلا على نطاق ضيق،حتى أن شيخ القبيلة على رأي الجابري[1] " **معهم وفوقهم في آن واحد ، هو معهم من حيث العصبة ككل التي تقوم على المساواة في الحقوق والواجبات ،وفوقهم لأنه يحظى بتقديرهم واحترامهم**".

وعلى الرغم من أن صنهاجة تمكنت من توظيف عناصر محيطها لتلبية حاجاتها ضمن نظام إجتماعي صارم يمنع من الثراء الفاحش والفقر المدقع،إلا أن مواضبتها على غزو ومحاربة زناتة فتح المجال لفئة الجند لإبراز شجاعتهم ، فحصلوا على إمتيازات خاصة مكافأة لهم على بسالتهم[2] ، وتجمعت لديهم ثروة طائلة مع توالي إنتصارات صنهاجة مما أكسبهم مكانة خاصة في المجتمع ، وهو ربما ما يفسر الثروة الضخمة التي كانت تحوزها أسرة " **بني مناد**" منذ عهد جدهم مناد بن منقوش.[3]

ومن هذا المنطلق سنأخذ المجتمع الصنهاجي في أشير كعينة لدراسة تركيبته الإجتماعية والذي ظهرت فيه فئات متميزة بعض الشيء، على الرغم من أنها لا ترقى إلى مستوى الطبقة بالمفهوم المتعارف عليه الآن[4]وحتى بمنظور العصور الوسطى،إلا أنها شكلت النواة الأولى لظهور الطبقات الاجتماعية فيما بعد.

وعلى الرغم من النقص الفادح الذي يعتري المصادر حول المجتمع الصنهاجي ومختلف إنتماءاته العرقية والقبلية والدينية والمذهبية والاجتماعية ، إلا أن ما بين أيدينا من روايات تؤكد بأن المجتمع الأشيري كان يتألف من غالبية ساحقة من البربر الصنهاجيين، إلى جانب بربر أهل المسيلة من قبائل بني برزال وبني زنداج وهوارة ومزاتة وعجيسة[5] ، الذين نقلهم زيري بن مناد إلى أشير،وبعض بطون زناتة من مغراوة وبني توجين، زيادة على الذين جلبهم بلكين بن زيري من تلمسان بعد حملته عليها سنة 361هـ/972م[6] وتسكت المصادر تماما عن أهل الذمة من اليهود والنصارى.

وعلى ضوء هذه التركيبة فقد تعددت مذاهب المجتمع الأشيري خلال العهد الفاطمي،ولو أن الأغلبية المطلقة كانت من الشيعة الإسماعيلية التي تبنى الصنهاجيون مبادئها، إلى جانب الخوارج من زناتة وهوارة[7]، وأقلية سنية من الأندلسيين الذين جلبوا من مدينة المسيلة.[8]

---

(1)العصبية والدولة، ص:254

(2)ابن حماد ، المصدر السابق، ص:27

(3)النويري، المصدر السابق، ص:300.

(4)كثيرة هي الدراسات التي عنيت بدراسة الطبقية بمفهومها الحديث والوسيط، أنظر: كارل ماركس وفريديريك أنجلز، الأيدولوجيا الألمانية ، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق ، سوريا ، د.ت، ومحمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، دار الثقافة ، الشركة الجديدة، الدار البيضاء، 1960، ج1، عبد الله العروي ، العرب والفكر التاريخي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب ، بيروت، 1986.

(5) ابن حوقل ، المصدر السابق، ص: 97.

(6) النويري ، المصدر السابق، ص: 312.

(7) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

(8) ابن خلدون ، العبر ،ج6، ص:155.

وسأحاول من خلال الإشارات القليلة التي أوردتها المصادر أن أسلط الضوء على الفئات الإجتماعية التي كانت يتألف منها المجتمع الأشيري، دون اعتماد طابع " التراتب الطبقي لجهلنا بمعايير تصنيفها لدى الصنهاجيين ، على الرغم من أن الجاه والسلطان وقوة العصبية لها ثقلها في مثل هذه المواطن، زيادة على عدم وجود فوارق إجتماعية واضحة بين هذه الفئات.

أ ــ القادة وكبار الجند :

تتألف هذه الفئة من قادة الجناحين السياسي والعسكري للقبيلة بمعنى "أعضاء مجلس القبيلة" الذين كانوا يحظون باحترام وتقدير الناس، إضافة إلى قادة الجند الذين لم يتقاعسوا عن الدفاع على القبيلة،وإليهم يرجع الفضل الأول في صنع أمجادها[1] ،ولا شك أن معظمهم كانوا من التلكاتيين،وبخاصة فرع بني مناد.

ب ــ الفقهاء والعلماء :

تشير المصادر التاريخية والجغرافية إلى أن مدينة أشير صارت بعد اختطاطها قبلة للعلماء والفقهاء[2] وعلى الرغم من أنها لم تبرز مكانة هذه الفئة ودورها في المجتمع ،إلا أنها ــ على عادة المجتمعات الإسلامية الوسيطة ــ كانت تسهر على الأرجح على التدريس وتفقيه الناس وتعليمهم أمور دينهم.

وكان زعيم القبيلة لا يتوانى في استشارة الفقهاء والعلماء فيما شكل من أمور رعيته الدينية والدنيوية،كما فعل زيري بن مناد عند قبضه على حاميم المفترى ــ على ما يرويه النويري ــ فأفتى له الفقهاء بحلة دمه ، فنفذ فيه حكمهم.[3]

جــ ــ التجار والحرفيون والفلاحون:

يذكر ابن خلدون[4] أنه بعد تشييد أشير استبحر عمرانها وقصدها التجار من القاصية،وامتهن أهلها بعض الحرف كالحدادة والنجارة والنسيج والصياغة والدباغة وصناعة الأسلحة[5] ولا شك في أنها عرفت رواجا كبيرا بين الصنهاجيين ، لاسيما أن منهم من له باع طويل في هذا المجال خاصة أهل طبنة والمسيلة وحمزة وتلمسان الذين رحلوا إلى أشير[6] ، والذين تمرسوا على حياة التحضر في مواطنهم الأصلية ،مما أضفى حركية كبيرة على المدينة وأدر أموالا طائلة على أهلها لاسيما التجار والصناع منهم، إضافة إلى

---

(1)مفاخر البربر، ص:255.

(2) العبر، ج6، ص:154.

(3)النويري ، المصدر السابق، ص:306.

(4)ابن خلدون ، العبر المصدر السابق، ج6،ص:154.

(5) Golvin,op-cit,p:29

(6)النويري ، المصدر السابق،ص:305.

الفلاحين الذين اشتهروا بكثرة إنتاجهم خصوصا بعد أن أشرف زيري بن مناد على حماية زروعهم وتأمينها من غارات زناتة.[1]

د ـــ فئة العوام :تشكل هذه الفئة أغلبية السكان ، وأفرادها متساوون في أوضاعهم الإقتصادية والإجتماعية.

هـــ فئة العبيد وأسرى الحرب:هي الفئة الوحيدة في المجتمع الأشيري التي نلمح فرقا شاسعا بينها وبين الفئات الأخرى،وعلى الرغم من أننا لا نعرف مصدرهم إلا أنه لا يستبعد أن تكون أغلبيتهم من سبي زناتة التي كثيرا ما ظفر بها الصنهاجيون.[2]

وقد تميزت فترة دراستنا بنشاط تجارة الرقيق على ما تشير إليه كتب الحسبة التي تزخر بإشارات كثيرة إلى أسواق النخاسة والعبيد الذين جلبوا من شتى الأصقاع[3] ، خاصة السود الذين يرجح أنهم كانوا منتشرين في المجتمع الصنهاجي بكثرة بحكم الثراء الفاحش لبعض أفراده خاصة من تلكاتة[4] ، ووقوع كثير من مراكزها في ملتقى طرق تجارة الصحراء.

ومن قرائن كثرة أفراد هذه الفئة في المجتمع الصنهاجي أن زيري بن مناد أرسل خمسمائة من عبيده إلى القائم الفاطمي في أثناء محاصرة أبي يزيد الخارجي للمهدية[5] ، وتذكر بعض المصادر أن بلكين بن زيري كانت له أربعمائة حظية [6] وعلى عكس المكانة المرموقة التي حظي بها بعض عبيد الفاطميين لاسيما الصقالبة منهم والصقليين[7] ، فقد ظل عبيد صنهاجة يخدمون البيوت والمزارع وقصور القادة.

ومما سبق نستنتج أن المجتمع الصنهاجي في أشير كان يتألف من فئات متنوعة إلا أن حدة الفوارق الإجتماعية بينها لا ترقى لأن تكون طبقات مستقلة بذاتها ،كما أن ميزات الحياة القبلية الريفية لا زالت عالقة بها، لاسيما قبل أن يأذن لها المنصور الفاطمي باتخاذ القصور والحمامات والمنازل.

4 ـــ إقتصاد القبيلة:

اقترن تبلور الكيان الصنهاجي بالحركة الدؤوبة التي خلقتها صنهاجة ببلاد المغرب ـــ والتي تمخض عنها ميلاد مدينة أشير ، إلا أن هذا النشاط سرعان ما دبّ في كامل بلاد صنهاجة وزاد من فاعليته الإمكانات المادية والبشرية التي تزخر بها .

(1) النويري ، المصدر السابق،ص:305.

(2)ابن الأثير، الكامل ، ج7، ص:47.

(3) حول ذلك راجع : أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالكي،آداب الحسبة،المطبعة الدولية ،باريس،1931.

(4) النويري ، المصدر السابق،ص:300-301

(5)المصدر نفسه : ص:306.

(6)المصدر نفسه: ص305.

(7)العزيزي الجوذري ، المصدر السابق ، ص:75.

وبحكم توفرها على الأراضي الخصبة،وملاءمة مناخها وكثرة مياهها ،وسيطرتها على منتجعات فسيحة، فقد غلب الطابع **الفلاحي** على نشاطاتها الإقتصادية.

وعلى ضوء ما تناقلته كتب الجغرافيا والرحلة يتبين أن الصنهاجيين اعتنوا كثيرا بزراعة الحبوب من قمح وشعير وحنطة،والتي شكلت غذاءهم الرئيس[1] ،كما اتسمت بلاد صنهاجة بكثرة بساتينها المروية خاصة من نهر شلف ،ومن أشجارها :التين والزيتون والتفاح والسفرجل والعنب...[2] ،ويرجح أنها كانت تنتج بكميات كبيرة بفعل وفرة المياه وخصوبة التربة لاسيما بسهل متيجة الذي يعدّ اليوم أكبر أقاليم الجزائر إنتاجا للخضر والفواكه.

كما اشتهر الصنهاجيون **بتربية الحيوانات** من إبل وأغنام وخيول وأبقار وشكلت أكثر أموالهم وهو ما حقق لها اكتفاء ذاتيا من اللحوم والألبان والصوف ، كما اعتنوا **بتربية النحل** وأنتجوا كميات كبيرة من العسل والسمن، صدر الفائض منهما إلى القيروان وجهات أخرى من بلاد المغرب.[3]

وعلى الرغم من الطابع الفلاحي الذي طغى على الاقتصاد الصنهاجي إلا أن هذا لا يعني أن أهله أهملوا **القطاع الصناعي** نهائيا ، فقد اعتنوا ببعض الحرف التقليدية **كالصياغة والدباغة والنسيج والحدادة والنجارة**،[4] وعلى الرغم من أنها لم ترق إلى جودة صناعة الحواضر الكبرى ـــ زيادة على قلة إنتاجها ـــ ،إلا أنها تنم بوضوح عن وجود تقاليد صنهاجية ـــ ولو بسيطة ـــ في هذا المجال ،خاصة في ظل توفر **المواد الأولية** كالخشب[5] والصوف والجلود[6] ومواد البناء...**واليد العاملة المحترفة** لاسيما من أهل طبنة والمسيلة وحمزة.[7]

وقد تمخض عن وفرة الإنتاج الزراعي والحيواني وتنوعه أن عرفت **الحركة التجارية** انتعاشا كبيرا ، لاسيما بعد سك زيري بن مناد **للدنانير والدراهم** الصنهاجية كأساس للمعاملات التجارية بدلا من أسلوب المقايضة[8] ، علاوة على وفرة الأسواق الداخلية **كسوق حمزة**[9]،**وسوق أشير**[10] ، **وسوق بني مزغنة**[11] ، وكانت هذه الأسواق أسبوعية"**...تباع فيها كل طريفة ،وتجلب إليها كل لطيفة...**"[12] .

(1)ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:77 ، الحميري ، المصدر السابق، ص:163.

(2)الإستبصار، ص:170-171

(3)ابن حوقل ، المصدر السابق، ص:77، الإدريسي ، المصدر السابق، ص:159.

(4) Golvin ,op-cit,p:26

(5)الاستبصار، ص:171.

(6)الإدريسي ، المصدر السابق، ص:159.

(7)النويري ، المصدر السابق، ص:304-305.

(8)المصدر نفسه، ص:304.

(9)ابن حوقل، المصدر السابق، ص:76

(10)البكري ، المصدر السابق، ص:60.

(11)الإدريسي ، المصدر السابق، ص:159.

(12)المصدر نفسه، ص:155.

وضمت بلاد صنهاجة محطات تجارية متعددة سواء على سيف البحر ما بين مرسى الدجاج ومرسى بني مزغنة ،أو في الداخل عند أشير وحمزة ومليانة لاسيما على الطريق بين القيروان وتاهرت[1] ، وقد استغلها الصنهاجيون في تسويق منتجاتهم وتغطية حاجاتهم من مختلف السلع والبضائع.

وعلى الرغم من وفرة الإنتاج الزراعي والحيواني لصنهاجة إلا أن أكبر المداخيل التي كانت تثري خزينتها ترد عن طريق الغزو ،والغنائم الضخمة التي يظفر بها جنودها ،ومن ثم فقد أسهمت الإنتصارات المتتالية على زناتة في إثرائها ورفع المستوى المعيشي لسكانها.[2]

ومن مظاهر قوة الإقتصاد الصنهاجي المتنامي المساعدة الإقتصادية الكبيرة ــ ممثلة في ألف حمل من الحنطة ــ التي قدمها زيري بن مناد للفاطميين ، عندما اشتد حصار صاحب الحمار على عاصمتهم المهدية.[3]

وصفوة القول أن اقتصاد قبيلة صنهاجة أخذ طابعا فلاحيا خالصا عماده ممارسة الزراعة واستئناس الحيوان ،وعلى الرغم من أن سياسة " **الإستثمار الحربي** " قد أذرت عليهم أموالا طائلة إلا أن الصنهاجيين سعوا إلى تنويع نشاطاتهم الإقتصادية ، لأن غنائم الحروب ثروة زائلة وغير مضمونة.

5 ــ عادات وتقاليد صنهاجية :

قبل تناول عادات وتقاليد صنهاجة الأكثر ذيوعا وانتشارا بين أهلها ، تجدر الإشارة إلى أننا أغفلنا بعضا منها لأننا عرجنا عليها في مواطن سابقة من هذا الفصل ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر عادات الزواج وتقاليد إقامة الولائم التي تطرقنا إليها في عنصر المرأة الصنهاجية لارتباطها الوثيق بها.

أ ــ المسكــن :

شهدت بلاد المغرب منذ القديم حركة عمرانية نشيطة تنوعت منشآتها ما بين الحصون والقلاع والقرى والمدن ،وعمت جل أصقاع المنطقة حتى أضحت من أكثر أهل الأرض عمرانا عند الفتح الإسلامي،فقد أشار ابن عذاري [4] إلى "**...أن إفريقية كانت ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة،وقرى متصلة ومدائن منتظمة ،حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ،ولا أوصل بركات ،ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب...**"

غير أن مساكن أهل الريف والمناطق الجبلية تختلف عنها تماما بالنسبة لسكان الصحاري والأقاليم السهبية ، فقد اقتضت الظروف الطبيعية المتباينة بين الإقليمين المتسمة بالبرودة الشديدة خاصة المناطق

---

(1)البكري ، المصدر السابق، ص:66
(2)النويري ، المصدر السابق، ص:303-304.
(3)المصدر نفسه، ص:306.
(4)البيان المغرب، ج1،ص:7.

المرتفعة وقمم الجبال والحرارة المحرقة في الفيافي والقفار، إضافة إلى إختلاف نمط المعيشة الذي اتسم بالإستقرار وممارسة الزراعة بالنسبة لسكان الأرياف والقرى[1] ، في حين اعتمد سكان الجنوب على الترحال والتنقل المستمر بحثا عن الماء والكلأ.

ولما كانت صنهاجة المغرب الأوسط من سكان الإقليم الأول " أهل المدر"[2] فقد فرض عليها طبيعة نشاطها الفلاحي حياة الإستقرار واتخاذ مساكن قارة لحماية مزروعاتها من غارات البدو.[3]

وقد كانت مساكن صنهاجة المغرب الأوسط ــ على غرار عامة أرياف بلاد المغرب ــ بسيطة في هندستها ،مبنية بالطين[4] أو الحجارة[5] ، يعلوها سقف بيضوي الشكل مصنوع من الطين حتى يسهل إنصراف المطر والثلج عنها ، على عكس أسقف المنازل السهبية التي غطيت بخوص الأشجار والأخشاب،وكانت في معظمها هشة الأساس لم تصمد طويلا أمام تقادم الزمن.[6]

وقد انتظم الصنهاجيون في دشرات وقرى صغيرة[7] متناثرة في أرياف وجبال المغرب الأوسط لاسيما على سفح جبل تيطري[8] ، ولا شك أنهم كانوا يرتادون المواضع الغنية بالمياه والمشرفة على منتجعات واسعة لظعن مواشيهم بعيدا عن غارات زناتة.

وعرفت الهندسة المعمارية الصنهاجية تطورا ملحوظا خاصة بعد بناء أشير التي جلب لها زيري بن مناد أشهر البنائين من طبنة وحمزة والمسيلة، يشرف عليهم أحذق مهندسي إفريقية كلها.[9]

كما أتيحت الفرصة مرة ثانية للصنهاجيين من أجل تطوير منشآتهم العمرانية بعد أن سمح لهم المنصور الفاطمي باتخاذ القصور والمنازل الفخمة والحمامات بأشير ، فاستبحر عمران المدينة[10] ، وذاعت شهرتها،وصارت قبلة لأهل المغرب الأوسط قاطبة.

(1)ابن خلدون ، المقدمة ،ص:212.

(2)المصدر نفسه، ص:212-213.

(3)على غرار ما فعل زيري عند إقدامه على اختطاط أشير لحماية زروع قبيلته. النويري ، المصدر السابق، ص:305.

(4)المقدسي ، المصدر السابق، ص:188-189.

(5)ابن خلدون،العبر،ج6،ص:89،دفاتر أشير، ص:16

(6)ابن منصور ، المرجع السابق، ج1،ص:283.

(7)هي تجمعات سكانية صغيرة في المناطق الجبلية ، تضم مجموعة من الأفراد جمعت بينهم المصلحة المشتركة بالإنضواء داخل إقليم واحد زيادة على رابطة القرابة ،وقد اتخذوا لأنفسهم بيوتا من الطين والحجارة ،ومن مجموع المداشر تشكلت القرى.

(8) Golvin,op-cit,p:27.

(9)ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج1، ص:202، دفاتر أشير ، ص:16.

(10)ابن خلدون، العبر ، ج6،ص:151

وقد عثر لوسيان غولفن "Golvin"[1] في أثناء تنقيبه في خرائب أشير على بقايا قصر زيري بن مناد الذي أخذ شكلا مستطيلا مساحته 2880م ،وطوله 72م ،أما عرضه فلا يتجاوز40م ،مزود بسور عظيم تعلوه أبراج مربعة على زواياه الأربع وأخرى مستطيلة على أضلاع المستطيل ، ويتخلل هذا الحصن باب عرضه 9م وسمكه 3م، أما تفصيل القصر من الداخل فيتضمن خمسة صحون تربطها بقاعات مختلفة الشكل مزينة بألوان جصية منقوشة ،أما جدرانها فزخرفت بأقواس مشبكة.**(أنظر الملاحق رقم:5، 6، 7)**

ورجح رشيد بورويبة [2] أن يكون القصر الذي عثر عليه غولفن في أشير هو نفسه البنيان العظيم الذي أشار إليه صاحب " روض المعطار "[3] وسماه " محراب سليمان " ، وقال عنه: **"...لم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم ، فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف...".**

كما اهتم الصنهاجيون ببناء المساجد ، أشهرها المسجد الذي عثر جورج مارسييه " George Marçais" على بقاياه سنة 1922م وما زالت آثاره إلى يومنا هذا ،ويبدو المنظر الخارجي للمسجد على هيئة مستطيل مبني بحجارة مربعة الشكل ، يضم مصلاه ستة صفوف من السواري في كل صف أربع سوار ،أما المنارة فلم يتعرف على موقعها بعد، وإلى جانب المحراب بنيت مقصورة الأمير.[4]

ويستشف الدارس من خلال وصف الرحالة والحفريات التي قام بها علماء الآثار في موضع أشير أن عناصر الهندسة المعمارية الصنهاجية بالمغرب الأوسط تنوعت ما بين: " الأعمدة والأقواس والعقود والتيجان المزخرفة بأوراق مزركشة" ،إضافة إلى نقش الجدران بالأشكال الهندسية والآيات القرآنية ،كما زينت الأعمدة بالرخام المتعدد الألوان.

وخلاصة القول أن الصنهاجيين اتخذوا بيوتا بسيطة تتوافق وطبيعة نشاطهم ونمط معيشتهم إلا أنها سرعان ما تطورت بمرور الوقت ،وعلى الرغم من تعرض أشير للتخريب على يد يوسف بن حماد وعدم صمود بناياتها أمام تقادم الزمن ، بيد أن القليل الذي وصلنا ينم على تنوع منشآتها العمرانية وتجانس عناصر طرازها المعماري.

---

(1) Le Maghreb Central,p:169

(2)أشير ، ص:119

(3)الحميري ، المصدر السابق، ص:60.

(4) بورويبة ، أشير ، ص: 16-17.

ب ــ المأكـــل:

ظلت الدراسات التي تهتم بالطبيخ المغربي وأصناف المأكولات في العصر الوسيط الإسلامي تشتكي ندرة المصادر وقلة مادتها ،إذ أن أقدم مؤلف وصلنا في هذا المجال يعود إلى العصر الموحدي،وهو " **كتاب الطبيخ**" لمؤلف مجهول .(1)

وعلى الرغم من محاولة بعض المؤرخين والباحثين تغطية هذا النقص باللجوء إلى ما توفره كتب السير والطبقات والنوازل الفقهية في هذا الجانب ، غير أنها تبقى غير كافية لرسم تصور شامل مستوفي لكل جوانب الموضوع.

ويصبح الأمر أكثر تعقيدا إذا ما اقترن بالمغرب الأوسط عموما وبقبيلة صنهاجة على وجه الخصوص لندرة المصادر الفقهية والتاريخية وحتى المنقبية التي تطرق الموضوع ولو بصورة عابرة من جهة ،وضياع الكثير منها من جهة أخرى ،إلا أن ذلك لا يمنع من إعطاء تصور مبدئي حول تقاليد الأكل والشرب الصنهاجية(**راجع أيضا عنصر الكرم**) بالإعتماد على العادات التي سادت بلاد المغرب عموما،وبعض التقاليد التي مازالت متفشية ببلاد صنهاجة إلى يومنا هذا.

ولاريب بأن المأكولات التي كان يتعاطاها الصنهاجيون كانت تستمد عادة من المنتجات الحيوانية والغلات الزراعية التي تجود بها أرضهم ،وتحضر بطرق وكيفيات مختلفة،ويبدو من خلال وفرة الإنتاج الزراعي وكثرة الأرحية ببلاد صنهاجة لاسيما بالمدية ومليانة وجزائر بني مزغنة أن أغلب طعامهم كان يحضر من نتاج هذه الأرحية(2) ، فقد كان يصنع منها " **الدشيش**" أو " **الفريك**" المطحون طحنا خشنا وغالبا ما يطهى باللحم(3) ،وهي أكلة ما زالت منتشرة بين سكان المنطقة إلى الآن ،وأكثر ما تكون مطلوبة في الولائم وفي أثناء شهر الصيام.

كما استعمل الصنهاجيون تلك الأرحية في صنع " **الطعام** " **أو الكسكس**" الذائع الصيت في بلاد المغرب كلها، وعادة ما يحضر من الدقيق أو الشعير المطحون على شكل بلورات صغيرة، ويمزج عند طهيه بالخضر واللحم(4) ، ومازال هو الآخر من أبرز سمات القبائل المغربية إلى يومنا هذا.

---

(1) نشر كتاب " الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين ، من قبل أمبروزيوا ويثي ميراندا ، في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ج9، عام 1961، غير أننا لم نتمكن من الحصول على نسخة منه ،وحتى النسخة الوحيدة التي كانت موجودة على مستوى مكتبة فرانز فانون بالجزائر العاصمة وضعت ضمن المصادر المفقودة.

(2)الاستبصار ، ص:171-172.

(3)أبو الفضل بن موسى عياض القاضي ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ،ودار مكتبة الفكر، بيروت، د.ت، ج3، ص:72.

(4) حول كيفية إعداد الكسكس أنظر:

- Beaussier (M), Dictionnaire pratique Arabe –Français, 2em édition,Alger,1931,p:251.

وقد ساعد توفر القمح والحنطة والسمن أو العسل بكثرة ببلاد صنهاجة على تحضير أطباق متنوعة من هذه المحاصيل والمنتجات، " **كالعصيدة** "[1] التي تصنع بالحنطة وتمزج بالزيت وبعد طهيها يضاف إليها العسل، و"**الإسفنج**"[2] المصنوع من القمح المطحون ويدهن بعد طهيه بالعسل والزيت.

واشتهر الصنهاجيون على عادة أهل إفريقية بصنع " **الثريد**"[3] الذي كان دون شك من الأطعمة الرئيسة لسكان المنطقة ،ويحضر بطريقة بسيطة تعتمد على تفتيت الخبز إلى قطع صغيرة في حساء مطهي باللحم.

ومن غير المستبعد أن تكون قبائل صنهاجة المغرب الأوسط قد اقتدت ببني عمومتها الضاربين بنول المغرب الأقصى في صنع الأكلة المعروفة محليا بـــ" **آسلو** "[4] ،لاسيما أن كل المواد المصنوعة منها متوفرة بكثرة في بلاد صنهاجة ،ويتم تحضيرها بقلي قليل من الحنطة على نار هادئة ثم تمزج بالعسل والسمن،وبعد خلط المزيج يوضع على النار حتى يصبح طازجا ،وتتناول باللبن.

وأمام وفرة وتنوع ثروات الصنهاجيين الحيوانية من أبقار وأغنام وإبل فقد أضحت اللحوم مادة أساسية في مأكولاتهم ، لإكسابها لذة إضافية ،زيادة على شوائها بالجمر لاسيما في المناسبات أو لإكرام الضيف.[5]

كما انتشرت بينهم ـــ دون شك ـــ عادة تخزين اللحم عن طريق إضافة الملح وتجفيفها لتصبح تسمى " **القديد**" وتستخدم خاصة مع المرق ،ويطلق على هذه الأكلة اسم " **مرق القديد**"[6] .

ويضاف إلى هذه الأطعمة [7] مختلف أنواع المأكولات التي لا تحتاج إلى طهي ،والتي تشتهر بها صنهاجة كاللبن والحليب والزيتون وبعض الخضر ،أما **فاكهتهم** فتمثلت في التين والعنب والتمر والعسل والسفرجل[8] ، أما **شرابهم** فقد كانوا يستخلصونه من الفواكه التي تكثر ببلادهم كالعنب والمشمش

---

(1)المالكي ، المصدر السابق، ج2،ص:312.

(2) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، وأتمه وعلق عليه:أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، تحقيق : محمد ماضور،تونس،د.ت، ج3، ص:104-105.

(3)المالكي ، المصدر السابق،ج2،ص:210.

(4)ليون الإفريقي ، المصدر السابق، ج1، ص:332.

(5)النويري ، المصدر السابق، ص:302-303.

(6)المعيار ، ج3، ص: 307

(7)بالإضافة إلى الأطعمة التي تمت الإشارة إليها وردت في ترتيب المدارك ورياض النفوس ومعالم الإيمان في صفحات مختلفة أسماء متنوعة لا يستبعد أن تكون قد انتشرت بين صنهاجيي المغرب الأوسط، على اعتبار أن المواد التي تحضر منها متوفرة بكثرة في بلاد صنهاجة ومنها ، **الحريرة ، البسيار ، الحساء، النيسبورية ، الهريسة.**

(8)ابن حوقل، المصدر السابق، ص:77، الاستبصار ،ص:171، الحميري ، المصدر السابق، ص:160،60.

والسفرجل ، بالإضافة إلى بعض الأشربة التي تحضر من جذور النباتات الطبيعية كزريعة الكرافس وزريعة الورد[1] ،ولا يستبعد أن يكون قد انتشر بينهم شرب النبيذ الذي ذاع استعماله بين أهل إفريقية.

وخلاصة القول أن طعام قبائل صنهاجة المغرب الأوسط كان يستخلص من المنتجات الحيوانية والنباتية التي ينتجونها ،وأكثر أكلهم من الحبوب ومشتقاتها ممزوجة باللحم.

جـــ ـــ الملبـــس:

تختلف ملابس سكان المغرب الأوسط باختلاف البيئة الجغرافية ، فسكان المناطق الجبلية والأرياف الباردة يحتاجون إلى ملابس صوفية تقيهم قرّ الشتاء ،أما سكان الصحراء وتخومها الشمالية حيث الحرارة والشمس المحرقة فيكتفون بلباس خفيف يستر عوراتهم.

كما يلعب تفاوت المستوى المعيشي بين السكان دورا كبيرا في نوع اللباس الذي ترتديه كل فئة ، فأهل المدر المستقرون غالبا ما يلبسون ثيابا أنيقة وفاخرة، على عكس أهل الوبر البدو والذين يميلون إلى لبس ثياب خشنة وبسيطة.[2]

ولا شك أن لباس صنهاجة كان من الأكسية الفاخرة والجميلة بحكم ثرائها ، لاسيما الصوفية منها كي تقيها برد الشتاء لاسيما في قمم الجبال، فقد ارتدوا على غرار غيرهم من الجبالة المغاربة : البرانس والجلابات واعتموا بعمائم كتانية أو قطنية وانتعلوا الأحذية الجلدية.[3]

فقد كان التلكاتيون ببجاية في العصر الحمادي يعتمون بعمائم مصنوعة من كتان رقيق مطرزة بالذهب تلف حول الرأس ، وينتعلون أقراقا نعلها مصنوع من الفلين مشدودة بسيور مذهبة،وهو ما أنكره عليهم المهدي بن تومرت عند عودته من رحلته العلمية إلى المشرق،وحاول تغييره بالقوة.

كما شابت صنهاجيي بجاية في نفس الفترة ـــ لاسيما الرجال منهم ـــ على ما يذكره البيذق [4] بعض العادات الغريبة في اللباس ، كارتداء جلابيب تشبه لباس النساء تعرف بالفتوحات إضافة إلى التزين بزينة النساء.

وكان الصنهاجيون يصنعون ألبستهم من صوف وشعر أنعامهم،فبعد تنقيتها وغسلها يقومون بغزلها[5]، ثم تنسج على إطارات عمودية[6] ، وتصنع منها مختلف الأكسية بكميات هائلة غنم منها المسلمون الشيء الكثير عند فتحهم لبلاد صنهاجة.[7]

---

(1)حسن حسني عبد الوهاب ،ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ، مكتبة المنار ، تونس ، 1965، ج2، ص:182.

(2)الاستبصار ، ص:117.

(3) المقدسي، المصدر السابق، ص:189.

(4)أخبار المهدي ، ص: 52 (5) البرزلي ، المصدر السابق، ج2،و 54ظ

(6) Golvin,op-cit,p:270-271

(7)ابن قتيبة ، المصدر السابق، ج2،ص:54

وبحكم طبيعة البيئة الجغرافية لبلاد صنهاجة فقد اعتاد عامة أهلها على لبس " الكساء"[1] في فصل الصيف ،ويدعمونه بالبرنس في فصل الشتاء ـــ عندما يبرد الطقس ـــ الذي غالبا ما يتخذ من الصوف أو الوبر وعادة ما ينتهي بغطاء للرأس على شكل مخروطي.[2]

وتجدر الإشارة إلى أن زعماء صنهاجة وكبار قادتها كانوا يحظون بألبسة خاصة كامتياز من الخلافة الفاطمية نظير الخدمات الجليلة التي قدموها للدولة ،فكثيرا ما أهداهم الخلفاء ألبسة وخلعا ثمينة كانوا يرتدونها هم أنفسهم ،كــ: **العمائم المطرزة بالذهب والمناديل والعباءات المذهبة والأقمشة والجبب القطنية والألبسة المبطنة.**[3] .

أما لباس المرأة الصنهاجية فلم ترد في المصادر التي بين أيدينا إشارة إلى لباسها أو زينتها ، لكن المتتبع لمكانتها فيما بعد، داخل المجتمع الزيري يلحظ أنها كانت ترتدي ألبسة فاخرة ومتنوعة تشبه كثيرا في أسمائها الألبسة الرجالية.

وتمدنا كتب النوازل الفقهية ببعض الملابس التي ارتدتها المرأة المغربية عموما ،والتي لا شك أنها تنطبق على المرأة الصنهاجية بالمغرب الأوسط بحكم الاحتكاك بين القبائل وتشابه بيئاتها الجغرافية ، فقد كانت النساء تفضلن ارتداء : **الغفارة**[4] ، **القميص ، السرويلات ، الرداء ، العباءة ، العمامة.**[5]

كما يستشف من كثرة استيراد الصنهاجيين للحرير[6] أنهم كانوا يستخدمونه لصناعة الألبسة الفاخرة خاصة النسوية منها ،كما يعبر في الوقت نفسه على رفعة ذوقهم وتحسن مستواهم المعيشي.

وكانت المرأة تتزين بشتى أنواع الحلي من الذهب والفضة لاسيما في الأفراح والمناسبات ، وشملت **العقود والأساور والأقراط والتيجان والخلاخل**[8] ،وكانت من بين نفقات الرجل على زوجته.

وخلاصة القول أن الصنهاجيين ارتدوا ثيابا صوفية دافئة بما يتوافق وطبيعة بلادهم الباردة وبخاصة في فصل الشتاء، إلا أنها لم تخرج في معظمها عن ما كان سائدا في سائر بلاد المغرب ،غير أن قادتهم استأثروا بلبس فاخر الأكسية امتيازا من الفاطميين وتوطيدا للعلاقات الودية بينهما.

---

(1)الونشريسي ، المصدر السابق، ج5،ص:167.
(2)المقدسي ، المصدر السابق،ص:167.
(3)ابن حماد ، المصدر السابق، ص:27-29.
(4)فتوى ابن رشد ، المعيار، ج3،ص:122.
(5)المصدر نفسه، ج3،ص:116.
(6)فتوى اللخمي ، البرزلي ، المصدر السابق، ج2،ص:54ظ.
(8)فتوى الشيخ عمران بن موسى ، المعيار، ج6،ص:330.

د ــ الكـــرم:

لقد تمخض عن الحياة القاسية التي كانت تعيشها المجتمعات البدوية والريفية في قمم الجبال وأعماق الصحراء بروز أعراف قبلية وقيم إنسانية تنسجم وشموخ وأنفة أهلها، وفي مقدمتها الكرم الذي أضحى من شيم البواسل الشجعان.

وقد عمت هذه الظاهرة كامل بلاد المغرب سهوله وجباله ،حاضرته وريفه، بتره وبرانسه، حتى قيل أن أكثر أهل البربر من سجلماسة إلى سوس وأغمات وفاس إلى نواحي بونة وقسنطينة وكتامة وسطيف ومسيلة يضيفون المارة ويطعمون الطعام.(1)

ولئن كانت قدرة المغربي المحدودة في حفظ مؤونته في أثناء سفره جعلته في أمس الحاجة إلى المعونة أمام طول الطريق وقلة أمنه ، فإن الوازع الديني والقيم القبلية السامية دفعت السكان إلى إغاثة الملهوف ونجدة المسلوب وإكرام عابر السبيل.(2)

وعلى الرغم من البعد الإنساني والإجتماعي الذي اتخذته هذه الصفة الحميدة إلا أن البعض أكساها طابعا سياسيا خالصا بغية استثمارها لتحقيق آماله وطموحاته، على غرار ما صبا إليه مناد بن منقوش الذي لا شك أنه علم من العرافين أن زمن القائم الصنهاجي قد قرب ، فسعى إلى الإكثار من فعل الخير وإكرام الضيف عسى أن يكون القائم من صلبه ، فذاع صيته بين الناس ،وتحدثوا عن فضله وكرمه حتى إلتقى بأحد المغاربة العارفين بعلم الأكتاف فبشره أن القائم سيكون من ولده ، فأحسن إليه مناد وأكرمه،ووصله بما يحتاج إليه من زاد.(3)

ومن مظاهر الكرم وحسن الضيافة الذي اشتهرت به صنهاجة المغرب الأوسط ما كان يفعله زيري ابن مناد منذ أن كان شابا صغيرا ، فبعد أن ينتهي من اللعب مع أترابه يصطحبهم معه إلى بيته ويضيفهم ويقدم لهم مختلف ألوان الطعام ويثني عليهم دون أن يتناول معهم شيئا(4) ، ومن فرط حرصهم على هذه الخصلة اختطوا مسجدا للعبادة سرعان ما صار مأوى للمحتاجين وعابري السبيل.(5)

---

(1)ابن حوقل، المصدر السابق،ص:91

(2)النويري، المصدر السابق، ص:301.

(3)المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

(4)المصدر نفسه ، ص:303

(5)المصدر نفسه، ص:301

وقد اقتضى العرف القبلي الصنهاجي أن يقدم الرجل منهم لضيفه أجود أنواع الطعام[1] ، ومن فرط توقيره له كان يذبح على شرفه شاة من خيار كسبه[2] ويقدمها له دون أن يتناول شيئا معه ،حتى إذا فرغ منه رفع ما تبقى إلى أهله[3] ، وكذلك كان دأب مناد بن منقوش وابنه زيري.

وهكذا فقد احتل الكرم مكانة مرموقة بين الصفات الحميدة التي تحلت بها صنهاجة المغرب الأوسط، حتى صار يضرب بها المثل في إفريقية والمغرب كله، وأضحت ملجأ كل ضال أو مسلوب.

هـــ الثـــأر:

تؤكد الدراسات القانونية والأنتروبولوجية أن ظاهرة الثأر قديمة قد تمتد جذورها إلى مجتمع الإلتقاط ، الذي لم ير سبيلا آخرا لاسترجاع هيبته وكرامته سوى الإنتقام لمقتوله من قاتله.[4]

ولئن اقتنعت المجتمعات القبلية بأن " **الدم لا يغسله إلا الدم** " فإن مسؤولية طلب الثأر غالبا ما تلقى على أهل المقتول الأقرب [5]، فإن لم يوجد انتقلت إلى الفخذ والعشيرة ،وقد تصبح القبيلة معنية به كلها و إلا صارت مدعاة للسخرية والعار ،وقد يرجأ ذلك إلى حين ولو طالت المدة. [6]

وعلى الرغم من أن الإسلام حاول أن يضع حدا لهذه الظاهرة من خلال تنظيمه لأحكامها تبعا لقوله تعالى :" **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصّدقوا**"[7] وسعيه لتحويل العصبية القبلية إلى رابطة دينية ، إلا أن الطبيعة القبلية لبلاد المغرب شكلت تربة خصبة لنمو هذه الظاهرة ،وعدّ أهلها أن التخلي عن طلب الثأر خزي وعار وإهدار لدم القبيلة كلها، ومنذئذ صار الثأر إحدى العوامل الرئيسية التي تغذي العداء بين القبائل وتتسبب في نشوب الحرب بينها.

ومن الشواهد التاريخية على شيوع الثأر بين المغاربة لاسيما لدى الصنهاجيين بالمغرب الأوسط ـــ موضوع دراستنا ـــ أن بلكين بن زيري ما إن سمع بمصرع أبيه حتى استنفر له بتحفيز من المعز لدين الله الذي كتب إليه :" **أن أطلبه ـــ أي جعفر بن علي ـــ حيث تعلم مستقره...**"[8] ، فلم يتوقف بلكين إلا على أرض زناتة فأثخن القتل في أهلها ، وسبى نساءها وذريتها ،وبعث برؤوس قادتها إلى القيروان. [9]

---

(1) النويري ، المصدر السابق، ص302

(2)المصدر نفسه، الصفحة نفسها

(3)المصدر نفسه،ص:305.

(4)الفوال ، المرجع السابق،ص:315.

(5)ابن الأثير ، الكامل، ج7،ص:48.

(6)الفوال ، المرجع السابق،ص:730

(7)سورة النساءّ، الآية [92].

(8)الداعي إدريس، المصدر السابق،ص:730

(9)النويري، المصدر السابق، ص:309

ويصبح الثأر أكثر من مطلوب إذا اقترن برفعة مكانة المقتول بين قومه وطبيعة العلاقة مع قاتيله، ولن يكفر عن ذنبهم إلا شخصية تضاهيه مكانة ،وهذا ما يفسر إقدام زناتة على الغدر بجعفر بن علي وتسليمه لصنهاجة كي تأمن ثأرها وتطلب ودها.[1]

ومن هنا نلمح أن ظاهرة الثأر بالرغم من آثارها السلبية كونها مدعاة إلى إثارة الحروب بين القبائل،إلا أنها تشكل أبرز الحالات التي تستدعي إلتحام أفراد القبيلة ،وتنسيق العمل بين بطونها لطلب الثأر.

وـــ الغزو:

يرى فليب حتي[2] أن الغزو نوع من اللصوصية والغزو المنظم إلا أن طبيعة الحياة القاسية في المجتمعات الريفية والبدوية أكسبتها صبغة شرعية ،وجعلتها إحدى ركائز نظامها القومي.

وقد وجد البدو في الغزو خير وسيلة لإرضاء نزواتهم الحربية وإبراز مهاراتهم وقدراتهم القتالية ، إلا أنه سرعان ما اتخذ طابعا منظما كونه المصدر الرئيسي لمعيشتهم لاسيما أن أرزاقهم ظلت معلقة بظل رماحهم[3]، وهو أحد عوامل الحرب المستمرة بين صنهاجة وزناتة.

وإذا سلطنا الضوء على الصراع الصنهاجي ــ الزناتي كإحدى حلقات الحروب البدوية ــ الحضرية نرى أن الغزو المتبادل بين الطرفين مردّه إلى إستطالة زناتة على زروع صنهاجة بالمغرب الأوسط[4] ، والتنافس المستمر بينهما على المراعي الفسيحة والطرق التجارية.[5]

ومع أن هذا التناحر أخذ في معظم فتراته طابعا إقتصاديا خالصا جوهره الإختلاف في نمط المعيشة،إلا أنه كثيرا ما غذته الصراعات المذهبية والسياسية بدعم من الفاطميين والأمويين لتحقيق مآربهم في المنطقة ، مثلما فعل الفاطميون مع صنهاجة عندما باركوا اختطاطها لأشير وألبوها على زناتة وأطلقوا يدها على ما تفتحه من بلادها.[6]

بل إن الغزو ذاته كان القوام الأساسي الذي قامت عليه النواة الأولى للكيان الصنهاجي مع مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، من خلال تشكيل زيري بن مناد لجيش من بني عمه وفرسان قبيلته وغزا بهم زناتة مرة بعد مرة حتى ذاع صيته في المنطقة فهابته القبائل والدول.[7]

(1)ابن الأثير ، الكامل، ج7،ص:48.
(2)تاريخ العرب ، ج1،ص:34
(3)ابن خلدون ، العبر ،ج6،ص:99
(4)النويري، المصدر السابق، ص:304
(5) Gautier,op-cit,p:229
(6)ا النويري، المصدر السابق،ص:305.
(7)المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

وقد يطال الغزو بطون القبيلة الواحدة ــ ولو اختلفت أسبابه وأهدافه عن الغزو الخارجي ـــ، فقد حدث أن غزا زيري بن مناد بعض بطون قبيلته الذين رفضوا إمرته وتحالفوا مع جموع زناتة ضده فناجزهم حتى هزمهم وأخضعهم وغزا بهم زناتة.[1]

وبفضل الإنتصارات المتعددة التي أحرزها زيري بن مناد ضد زناتة إستطاع أن يتبوأ لقومه مكانة مرموقة في المنطقة، فدانت له القبائل المجاورة وطلبت ودّه.

زـــ التحالف :

أرغمت أوضاع الساحة السياسية والمذهبية المغربية مع مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي التي اتسمت باحتدام الصراع الأموي ـــ الفاطمي من أجل السيطرة على مناطق النفوذ، كل طرف على استمالة أكبر عدد من المغاربة إلى صفه.

وإزاء هذا الواقع المتأزم لم تجد القبائل المغربية قويتها وضعيفتها بدا من الإنحياز إلى أحد المعسكرين ، لاسيما أن إلتزام الحياد قد يجعلها ضحية للطرفين خاصة تلك التي كانت مجالاتها مسرحا لهذا الصراع.

ولئن كانت قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط تملك من الإمكانات المادية والبشرية ما تذود به عن نفسها ـــ لاسيما بعد أن تمكن زيري بن مناد من توحيدها وصهر معظم بطونها في " حلف صنهاجة الكبير"ـــ إلا أن وقوعها على خطوط التماس بين المتصارعين أجبرها على التحالف مع إحدى القوتين لدرء الخطر عنها والحفاظ على مصالحها ، فاختارت كما تمت الإشارة إليه في الفصل الثالث الإنضمام إلى الحلف الكتامي ـــ الفاطمي[2] في مواجهة الحلف الزناتي ـــ الأموي.[3]

وقد تمخض عن التحالف الصنهاجي ـــ الشيعي الإسماعيلي أن تعاظمت قوة صنهاجة بالمغرب الأوسط، فألحقت بزناتة هزائم منكرة حتى إضطرتها للتقهقر إلى المغرب الأقصى ، فاتسع سلطانها وقويت شوكتها.

حـــ ـــ شدة الولاء:

يعد الولاء من أبرز خصائص الشخصية البدوية والريفية سواء أكان للقبيلة أم للحلف،إذ لا يتوانى المرء فيها عن بذل أقصى ما في وسعه للذود عن شرفه والدفاع عن مقوماته والمحافظة على ولائه.

---

(1)ابن الاثير ، الكامل، ج7،ص: 47.

(2)ابن خلدون، العبر ، ج6،ص:15

(3)مفاخر البربر،ص:129

وإذا كان ولاء الصنهاجيين لقبيلتهم لا يختلف فيه اثنان من خلال الإنسجام الذي أظهروه ــ لاسيما بعد بناء أشير ــ ،إذ أضحوا يشكلون كتلة واحدة متراصة البنيان حققت إنجازات ضخمة في ظرف قياسي في وضع تميز باشتداد الصراع المذهبي والسياسي ، فإن ولاءهم للفاطميين تتفق عليه جلّ المصادر التاريخية إذ لم يحدث أن تمرد الصنهاجيون على الخلافة الفاطمية ولو مرة واحدة ، بل أنهم حرصوا على تقويتها ومد نفوذها إلى المغرب الأقصى ،وأبدوا استماتة كبيرة في مواجهة أعدائهم حتى استمالوا خلفاءها الذين ارتاحوا لولائهم فأغدقوا عليهم الهدايا وأطلقوا يدهم على أعمال الدولة في الغرب.[1]

طــ ــ اقتسام الغنائم:

إذا كان طلب الثأر وتردي الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية ،وإبراز الشجاعة والإفتخار بالبطولات عوامل حتمية في إضرام فتيل الحرب بين القبائل المغربية،فإن البعض اتخذها صنعة لجمع الثروة ــ بدافع غريزة حب التملك ــ والحصول على أسلاب وغنائم وفيرة تثلج صدره.[2]

وقد اقتضى العرف وتقاليد الحروب القبلية أن يتم اقتسام الغنائم بين المنتصرين بالتساوي بعد إنتهاء الحرب، ولما جاء الإسلام أقرّ هذا المبدأ في قوله تعالى :[3]" **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأَنَّ لله خُمُسَهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...**" على أن قائد الجيش غالبا ما يظفر بحصة الأسد وإليه يؤول ما تبقى من الغنيمة.[4]

والعرف عينه جرى بين الصنهاجيين بالمغرب الأوسط ، إذ يذكر ابن شداد أن زيري بن مناد رزق النصر على زناتة في غزواته الأولى ،وكان يوزع الغنائم على جنوده بالتساوي دون أن يستأثر لنفسه بشيء.[5]

وإلى جانب هذه الغنائم الحربية غالبا ما حصل الصنهاجيون على غنائم عسكرية وسياسية وحتى مادية من الخلافة الفاطمية ، نظير بلائهم الحسن في نصرة المذهب الشيعي الإسماعيلي خاصة الهدايا الثمينة والملابس الفاخرة التي أغدقها الخلفاء على زعماء صنهاجة، وقد نقل لنا ابن حماد[6] مشهدا منها في قوله: "**وخلع عليه ــ يعني المنصور ــ كثيرا من لباس وأعطاه من الطيب والطرائف الملوكية ما لا يحيط به الوصف ، وحمله وحمل إخوته**

(1)ابن خلدون، العبر ، ج6،ص:155، الداعي إدريس، المصدر السابق،ص:730-731.

(2)ابن خلدون ، المقدمة ،ص:514.

(3)سورة الأنفال الآية [41

(4)الفوال ، المرجع السابق،ص:308.

(5)النويري، المصدر السابق، ص:303.

(6)أخبار الملوك بنوعبيد ، ص:27، قارن: الداعي إدريس، المصدر السابق،ص:405.

وأولاده وبني عمه ووجوه أصحابه على الخيل العتاق بالسروج واللجم المحلاة بالذهب والفضة، وأفاض عليهم وعلى كافة صنهاجة الواصلين معه الأموال.."

بيد أن أعظم غنيمة سياسية حصلت عليها قبيلة صنهاجة من الخلافة الفاطمية هو ظفرها بشرف إدارة إفريقية والمغرب نيابة عنها بعد رحيل خلفائها إلى المشرق.[1]

ي ــ النظافـــة:

نصت الشريعة الإسلامية على ضرورة حرص المسلم على نظافة جسمه وبدنه بأن فرضت عليه أن يكون على طهر دائم، وأقرت أن يتوضأ ولو مرة في اليوم لاستقبال ربه.

ومما يدل على تفشي هذه الخصلة الحميدة بين مسلمي صنهاجة بالمغرب الأوسط انتشار الحمامات بمواطنها ، خاصة في أشير التي شيدت بأمر من القائم الفاطمي[2] ،كما أشار القزويني[3] إلى الحمامات المعدنية بمليانة وقد بنيت على عين حارة عذبة كانت قبلة لكل أهل المنطقة ، إضافة إلى الحمام الذي اشتهرت به بطون ملوانة من صنهاجة على بعد45كلم من بني مزغنة.[4]

ولا ريب بأن الصنهاجيين كانوا يتجهون دوريا إلى هذه الحمامات حرصا على نظافة أجسادهم والتطهر وإزالة النجاسات ،كما ينم كثرة الحمامات المعدنية ببلادهم على أنها كانت تستخدم للتطبيب والعلاج من بعض الأمراض الجلدية والعظمية.

ك ـــ الإيمان بالطوالع والتنجيم:

اهتم المغاربة بالتنجيم واعتقدوا أن للمنجمين قدرة خارقة على معرفة ما يصير إليه حال المرء خيره وشره ، إلى حد أن بعض الأمراء والملوك بنوا سياساتهم على قراءة الطالع والتنجيم.[5]

فقدوم صنهاجة إلى المغرب ـــ حسب ما يرويه النويري[6] ـــ بعد أن تغلب الأحباش على اليمن كان بإيعاز من أحد الكهنة العارفين بالطوالع، الذي أخبرهم بأنه سوف يدرك ولدهم بتلك البلاد ملك عظيم لم يتح لهم من قبل.

وهذا الأمير عبد الله بن بلكين التلكاتي[7] آخر ملوك غرناطة بالأندلس كان يؤمن إيمانا راسخا بالطالع،ويعده مصدرا للشؤم أو التفاؤل ،وقد صرح بعد أن تعرف على طالعه " **الحوت**" وما سيصير إليه

(1)مفاخر البربر،ص:142
(2)ابن خلدون، العبر ،ج6،ص:154
(3)آثار البلاد، ص:311.
(4)ابن منصور، المرجع السابق، ج1، ص:333
(5)مجهول ، الحلل الموشية،ص:40
(6)نهاية الأرب ،ص:300-301.
(7)التبيان ، ص:180-181.

أمره بقوله:" **كل هذا علمناه من أنفسنا كأنه حاضر منا ومطلع علينا ، فلم نشك في صحته بإذن الله ، فسبحان مسيّر الأيام ومجري الأفلاك".**

وهكذا فقد لعب التنجيم وقراءة الطالع دورا كبيرا في الحياة السياسية والإجتماعية المغربية، فقد تقاعس زيادة الله الثالث الأغلبي عن محاربة الشيعة الإسماعيلية عندما علم من المنجمين أن نهاية ملكه تكون على أيديهم[1] ، كما كان للفاطميين كتاب يعرف " **بالجفر**" يعني بعلم الحدثان وما يصير إليه أمرهم كله.

ل ــ علم الأكتاف:

عرف حاجي خليفة [2] هذا العلم بأنه :" **...علم باحث عن الخطوط والأشكال التي ترى في أكتاف الظأن والمعز إذا قوبلت بشعاع الشمس ،من حيث دلالتها على أحوال العالم الأكبر من الحروب والخصب والجذب وقلما يستدل بها على الأحوال الجزئية لإنسان معين، ويؤخذ لوح الكتف قبل طبخ لحمه ويلقى على الأرض أولا ثم ينظر فيه...".**

وقد برع من أهل المغرب بهذا العلم الزناتيون ، فقد أشار الإدريسي[3] أن:" **لهم معرفة وحذقا وكياسة ويد جيدة في علم الكتف ،ولا يدرى أحد من الأمم أعلم من زناتة بعلم الكتف".**

ويبدو أن ذلك المغربي الذي سلبت متاعه عند عودته من الحج واستضافه مناد بن منقوش في بيته هو من أهل زناتة ،إذ أنه أبدى تضلعا كبيرا في علم الأكتاف ، فقد أبصر بحذاقته ّوفطنته في كتف الشاة التي نحرها مناد بن منقوش على شرفه أن لمستضيفه إمرأة حامل ستلد ذكرا يملك بلاد المغرب كلها ــ على ما يرويه النويري ــ[4] ،وهو ما تجسد ميدانيا بميلاد زيري بن مناد الصنهاجي ومسيرته البطولية في بناء الصرح السياسي الصنهاجي.

م ــ التسلية:

دأب الصنهاجيون في أوقات السلم على قضاء أوقات فراغهم ــ خاصة الرجال منهم ــ خارج البيت، للترويح عن أنفسهم بألعاب وملاهي يخففون بها من آلام الحياة الجبلية القاسية.

وعلى الرغم من أن المصادر أهملت هذا الجانب تماما بالنسبة لصنهاجة المغرب الأوسط ،إلا أنهم اعتادوا دون شك في الترويح عن أنفسهم على مختلف أنواع التسلية والترفيه التي ألفها سكان بلاد المغرب عموما ، لاسيما الفروسية بحكم نشأتهم العسكرية واستعدادهم الدائم لحرب زناتة[5].

---

(1)القاضي النعمان، افتتاح الدعوة ، ص:82

(2)كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون،دار العلوم الحديثة، بيروت، د.ت، ج1 ،ص:141.

(3)نزهة المشتاق ، ص:88.

(4)نهاية الأرب ، ص:301.

(5) المصدر نفسه، ص:303

كما مارسوا صيد الحيوانات التي تزخر بها بلادهم كالأرانب والطيور، وتجمهروا في مجموعات صغيرة لتبادل أطراف الحديث ،أو الاستماع إلى قاص أو شاعر[1] ،إضافة إلى كثير من وسائل الترفيه التي ما زالت منتشرة بين أحفادهم إلى يومنا هذا.

أما الأطفال فقد طغى بدورهم على ألعابهم الطابع العسكري تأثرا بآبائهم وبالجو السائد في القبيلة،حيث كانوا يركبون عيدانا تشبها بالعساكر وينقسمون إلى فرقتين ويغزو بعضهم بعضا على صورة الحرب بين قومهم وزناتة.[2]

وتسكت النصوص التاريخية تماما عن ألوان التسلية التي لقيت رواجا كبيرا بين الصنهاجيات ،إلا أنها على ما يبدو لا تختلف كثيرا عما هي عليه اليوم في بلاد صنهاجة ، إذ كن يجدن لذتهن في تناول أطراف الحديث عند النسيج أو صنع الأواني الفخارية ،أو التجمهر في العيون والوديان لجلب الماء أو غسل الملابس للتآنس وتبادل الآلام والأفراح.[3]

كما يستشف من الاسم الذي يطلق اليوم على إحدى مواضع أشير الأثرية " **متزه بنت السلطان**"[4] ،أن نساء القادة وزعماء القبيلة كانت لهن منتزهات خاصة يروحن فيها عن أنفسهن ،ويتمتعن بجمالها ونقاوة هوائها.

وإلى جانب كل هذه العادات والتقاليد والأعراف التي اتسمت بها قبيلة صنهاجة بالمغرب الأوسط، تشير بعض المصادر السنية والإباضية أن الصنهاجيين امتازوا ببعض الخصال الذميمة جعلت الناس يتورعون عن التعامل معهم، إذ أنهم تعسفوا في استخدام القوة التي ذاع صيتهم بها في كامل بلاد المغرب ، وصاروا لا يتوانون ـــ لاسيما بعد إرتقائهم إلى مصاف الملك ـــ عن مصادرة الأملاك ونهب الأموال عن حق أو باطل مسلما كان صاحبها أو ذميا، حتى خشي الناس بأسهم وتجنبوا معاملتهم على ما أشار إليه الدرجيني[5]،ومن ذلك ما فعله الشيخ الإباضي أبو الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي وزجون المزاتي الذي اشترى خرفانا من إفريقية ، فلما علم أن صاحبها صنهاجي تصدق بها خشية أن تكون مسروقة أو أخذت عن غير حق.

وحتى المفتين والقضاة صاروا يتهربون من مقاضاة الصنهاجيين تقية لا مداهنة ، في الوقت الذي استغل البعض هذه السطوة التي صارت تشتهر بها صنهاجة ببلاد المغرب للإستجارة بها والإنتصار على

(1) Golvin,op-cit,p:26

(2)النويري ، المصدر السابق، ص:304.

(3)الوسياني ، المصدر السابق، ص:21.

(4) Rodet,op-cit,p:25.

(5)طبقات المشايخ، ج2، ص:354.

أعدائهم ولو كانوا على باطل ، كما حدث لقوم على عهد المفتي السيوري (460هـ/1067م) حيث عمدوا إلى مصاهرة صنهاجة للتغلب على أعدائهم ، ففعل خصومهم مثل فعلهم خشية بطش الصنهاجيين.[1]

بيد أن الدارس لا ينبغي له أن ينساق وراء هذه الإشارات كلية لاسيما أنها جاءت من مصادر سنية وإباضية ظلت تحقد على الشيعة ومن ولاهم من كتامة وصنهاجة ،لأنهم هم الذين قضوا على إماراتهم من جهة ،والأشد من ذلك والأمّر بثهم لمبادئ وأفكار وقيم بين الناس لم يعهد البربر من قبلها مثيلا ، فعدوها خروجا عن الملة وانحرافا عن أهل السنة والجماعة من جهة أخرى.[2]

كما اشتهرت بين الصنهاجيين على ما يذكر الشاعر الزيري ابن رشيق القيرواني[3] عادة إطالة الشوارب خاصة القادة منهم ، ويبدو أن أهل إفريقية وحتى الفقهاء منهم كانوا يعبرون عن موالاتهم للزيريين بصفة غير مباشرة من خلال التمادي في إطالة الشوارب تشبها برجالات الدولة ومنهم :**أبو الحسن محمد بن أحمد الصرائري.**

ويبدو من خلال ما أورده صاحبا" طبقات المشايخ بالمغرب "[4] و"سير مشائخ المغرب"[5] أن صنهاجة كانت لها لهجة خاصة بها، ومن كلماتها "أرا" بمعنى " **هات** "،وهذه الكلمة مازالت متداولة في بلاد صنهاجة إلى يومنا هذا خاصة ببني مزغنة وتؤدي نفس المعنى.

وخلاصة القول أن التراث الصنهاجي غني بالعادات والتقاليد المتنوعة ،والتي أسهمت بقسط كبير في صقل الذهنية الصنهاجية وصنع شخصيتها التي فرضت وجودها ونسقها في الحياة ببلاد المغرب منذ مطلع القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي.

!!!

---

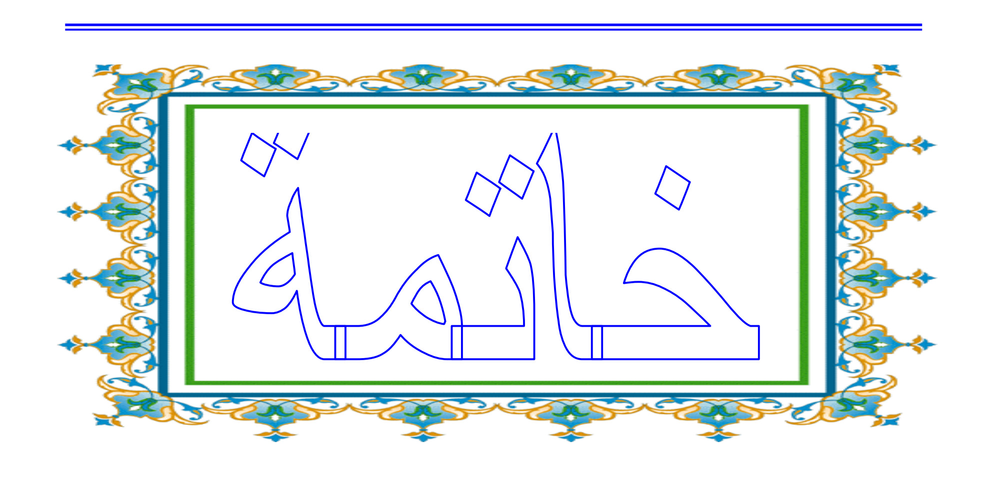
(1)البرزلي، المصدر السابق،،ج2،ص:68 ظ.

(2)المالكي ، المصدر السابق، ج2، ص:342.

(3)أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق : محمد العروسي وبشير بكوش ، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1986،ص:154.

(4)الدرجيني ، المصدر السابق، ج2، ص:64

(5) الوسياني ، المصدر السابق، ص :25.



الخاتمـــة

قبل عرض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، يجدر بي التذكير بالهاجس الكبير الذي ظل يراودني طوال فترة البحث، والمتمثل في قلة المصادر التي أرخت لفرع صنهاجة المغرب الأوسط وضياع كثير منها ، زيادة على ندرة الإشارات الإجتماعية بها، و على الرغم من سعينا إلى التنويع في أدوات المنهج المتبع ما بين التحليل والوصف ،وحتى الإستقراء والمقارنة بين النصوص والوثائق قد أسهم في سد بعض الثغرات ، إلا أن ما خلصت إليه من نتائج يظل لا يرقى إلى مستوى المكانة الإجتماعية والدور الكبير الذي لعبته قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط بالمغرب الإسلامي لاسيما مند القرن الرابع الهجري /العاشر ميلادي،لاسيما أمام توقف الحفريات التي باشرها المتحف الوطني للأثار القديمة والفنون الإسلامية قبل تحقيق النتائج المرجوة،والتي تبقى أملنا الأكبر في كشف النقاب عن كثير من عادات وتقاليد هذا القبيل.

ومهما يكن من أمر وبعد اطلاعنا على ما تيسر من المصادر التي اهتمت بقبيلة صنهاجة لاسيما بالمغرب الأوسط، خلصنا إلى جملة من النتائج ،نوجزها فيما يلي:

ـــ أن فرعي قبيلة صنهاجة البرنسية ينحدران من أصل مشترك، وشكّلت المنطقة الممتدة ما بين جبال زواوة شرقا إلى جبل زكار غربا مضاربها الأصلية، و لم تفصل بينهما سوى التغيرات الجغرافية والتقلبات السياسية التي طرأت على المنطقة واختلاف نظرتهما إليها، ففي الوقت الذي اختار فيه فرع الشمال مواجهة تداعياتها والتعايش معها، آثر فرع الجنوب تغيير مواطنه والعيش في عزلة و منعة عن هذه التغيرات.

ـــ أن صنهاجة المغرب الأوسط لم تكن قبيلة فحسب، بل شكّلت حلفا كبيرا ضم بداية بطونها الضاربة في قلب المنطقة على غرار **تلكاتة وبني مزغنة ومليانة ولمدونة ...**، ثم امتد نفوذها إلى إفريقية شرقا في عصر الزيريين،وإلى ما وراء تاهرت غربا حتى انضوى تحت لوائها بنوتوجين ومغراوة الزناتيون مما أخلط الأمر على بعض المؤرخين وعدّوهم من الصنهاجيين الخلص.

ـــ ورغم الفتح الإسلامي المبكر لبلاد صنهاجة ما بين(80-82هـ/699-701م) مقارنة بمناطق أخرى من بلاد المغرب، إلا أن المصادر لا تطلعنا عن دور رائد لها قبل القرن الرابع الهجري /العاشر ميلادي ، اللهم بعض الإشارات التي تفيد بأن الصنهاجيين كانت لهم إسهامات في الحصار الخارجي على طبنة سنة 153هـ/770م **بزعامة عبد الله بن سكرديد،** كما انضوت بطون منهم في خدمة العباسيين راجعين في شأنهم إلى الأمراء الأغالبة.

و لم يسطع نجم صنهاجة المغرب الأوسط إلا مع مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بعد دخولها في طاعة الفاطميين ،وعلى الر غم من أن بعض الأحداث والوقائع التي ظهرت طفرة على المعترك السياسي والعسكري تنم على أن إسهامات الصنهاجيين في صنع المجد الحضاري للخلافة الفاطمية قد تمتد إلى مرحلة الدعوة ، إلا أن نشاطهم لم يبرز بشكل جلي إلا بعد اختطاط أشير سنة 324هـ/935م، و منذئذ صارت صنهاجة ركيزة أساسية في المخططات العسكرية للخلافة الفاطمية بالمغرب الأوسط.

ـــ أن صنهاجة المغرب الأوسط بانضوائها تحت لواء الخلافة الفاطمية ضربت عصفورين بحجر واحد، فقد تمكنت من جهة من تحقيق مآربها السياسية التي لطالما كافح قادتها من أجل تجسيدها منذ أن أنبأهم كاهن يمني بأنه سيدركهم ببلاد المغرب ملك لم يتح لهم من قبل،واستطاعت من جهة أخرى دحر غرمائها التقليدين من زناتة ،التي ألحق بها الصنهاجييون هزائم متكررة أرغمتهم على التقهقر حتى كاد ينحصر وجودهم في المغرب الأقصى بعد أن كان يطلق على المغرب الأوسط كله أرض زناتة ، بل أن بعض بطونها اندمج في الحلف الصنهاجي على غرار مغرارة و بنوتوجين.

ـــ أن السياسة التي انتهجها الخلفاء الفاطميون تجاه القبائل البربرية اعتمدت على حرصهم على عدم تصادم مصالح أتباعهم،بأن أوكلت لكل منهم مهام منفصلة عن الآخر ،مما ساعد على نمو مكانة صنهاجة المغرب الأوسط وذيوع صيتها، واقترنت بانتصاراتها العسكرية فكلما رزقت نصرا على نصر ضاعف الخلفاء من عطائها ووسعوا سلطانها وباركوا مسعاها.

وقد أسهم التقارب الفاطمي ـــ الصنهاجي في تغيير ملامح الحياة القبلية التي كانت تعيشها صنهاجة، وشهدت قفزة نوعية نحو حياة التحضر، فاستقرت أحوالها، وكثرت أموالها واستبحر عمرانها، وبدت مظاهر الرفه على حياتها.

ومن مظاهر الحظوة الكبيرة التي تمتع بها الصنهاجيون في كنف الخلافة الفاطمية اتخاذهم القصور والبيوت الضخمة والحمامات ،وإغراق الخلفاء لقادتهم بالهدايا والألبسة الفاخرة والسرج المحلاة بالذهب، حتى صاروا مقدمين لديهم ويُشّفعون في وجوه القوم، كما حدث **لبلكين بن زيري مع ابن نوح الإباضي** الثائر على المعز لدين الله الفاطمي بعد قتله لأحد قواد الخوارج الوهبية المدعو أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني سنة 358هـ/969م.

ولعل أبرز مظهر ينم على المكانة الراقية التي حظيت بها صنهاجة المغرب الأوسط لدى الفاطميين، أنها شكلّت ما يشبه **إمارة** – داخل الخلافة الفاطمية- تتمتع باستقلال ذاتي، وتتوفر على جهاز سياسي قار، وجيش نظامي قوي، وإقليم جغرافي واضح المعالم ، بالإضافة إلى عاصمة وعملة خاصة قوامها الدرهم والدينار ، ولو أن علاقاتها الخارجية لم تخرج في معظمها عن السياسة الفاطمية في بلاد المغرب،وكانت النتيجة أن تبلور الكيان الصنهاجي إلى دولة كاملة الأركان بعودة الفاطميين إلى مصر وقيام الإمارة الزيرية الصنهاجية بالقيروان التي سيطرت على مناطق واسعة من إفريقية والمغرب.

كما نستخلص من خلال قراءتنا الإجتماعية لما تيسر من مصادر العصر الوسيط المرتبطة بصنهاجة المغرب الأوسط، مجموعة من الحقائق نبينها في المحطات التالية:

- أن صنهاجة المغرب الأوسط – على غرار باقي قبائل بلاد المغرب- طغى عليها النظام القبلي الذي ترأسه شيخ القبيلة،ويشترط فيه الشجاعة والشرف والحكمة وقوة العصبة وسخاء اليد، وعادة ما تنتقل الرياسة من الأب إلى ابنه كما جرى عليه العرف عند فرع بني مناد، ويساعد شيخ القبيلة مجلس استشاري يتشكل من رؤساء البطون والعشائر يشاركه في اتخاذ القرارات المصيرية وفي إدارة شؤون القبيلة ، ولا يتوانى في الإسترشاد بنصائح وتوجيهات أهل العلم لاسيما فيما يتعلق بالأمور الدينية،كما أقدم عليه زيري بن مناد عندما استفتى فقهاء أشير في أمر حاميم بن من الله المفتري.

- أن نظرة قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط إلى أفراد الأسرة اختلفت بين الذكور والإناث، فقد أولى الصنهاجيون عناية كبيرة بالبنين منذ ولادتهم على اعتبار أنهم العمود الأساسي للقبيلة ومصدر طاقتها المتجددة للذود عن حياضها، زيادة على كونهم امتدادا لنسل الأسرة.

في حين لم تول البنت العناية الكافية وأعتبرت عالة على الأسرة ،واقتصر نشاطها على مساعدة الأمهات في الواجبات المترلية ورعاية الأطفال الصغار،والتمرس على العادات والتقاليد النسوية قبل أن تتحول إلى بيت الزوجية،وهنا تصبح مكانة المرأة أكثر رقيا ويصبح دورها في المجتمع بارزا من خلال إشرافها على تسيير شؤون بيتها، ومشاركة الرجل في تربية أولادهما.

كما أدى انشغال الرجل الدائم بالإستعداد للحرب والبحث عن لقمة العيش، إلى إلقاء أعباء جديدة على كاهل المرأة كنقل الخيام ونصبها،زيادة على الأشغال اليومية المعتادة من فرش وكنس وعجن وطهي للطعام وجلب للماء...

- أن ملامح المجتمع الصنهاجي على الر غم من أنها ظلت على صلة وثيقة بالنظام القبلي إلا أنها عرفت قفزة نوعية لاسيما بعد احتكاكها بمختلف المراكز الحضارية، واستفادتها من خبرات ومهارات القادمين من حمزة وطبنة والمسيلة،واتخاذه القصور الفخمة والبيوت الضخمة والحمامات، وبرزت فيه فئات شبه مميزة كالجند والتجار والحرفيين شكلّت النواة الأولى لبروز الطبقية فيما بعد.

- أن الثراء الطبيعي الذي حُبيت به بلاد صنهاجة المغرب الأوسط التي أعطيت مزيتي الجبل والسهل، ساعد على إقامة زراعة متطورة ،زاد من حيويتها موقعها الاستراتيجي وسيطرتها على معابر تجارية هامة تربط بين شرق بلاد المغرب وغربها، وحتى بالأندلس عبر ميناء جزائر بني مزغنة ، فعم الرخاء وزاد تلاحم شرائح المجتمع ، وقلّت الفوارق الإجتماعية بينها ، وأمِن الناس على قوتهم ومحاصيلهم.

كما يتبين لنا من خلال ما وصلنا من وثائق ونصوص أن الصنهاجيين خلّفوا لنا إرثا حضاريا ضخما، وعادات وتقاليد متأصّلة ، منها ما اشتركوا فيها مع باقي قبائل المنطقة ومنها ما انفردوا بها:

- فقد جُبل الصنهاجيون على صفات قلما اجتمعت في قبائل بلاد المغرب، فانتشر بينهم الكرم حتى صار يضرب بهم المثل، فقد أضحى مناد بن منقوش ملجأ كل محتاج ومقصد كل عابر سبيل، وساتر كل مسلوب، وعلى نهجه سار ابنه زيري بن مناد، واقتضى العرف عندهم أن تقدم الذبائح ومختلف ألوان الطعام إلى الضيوف دون أن يتناولوا معهم شيئا حتى إذا فرغوا رفعوا ما تبقى إلى أهلهم.

- كما اعتنوا بنظافة أجسامهم وأناقة مظهرهم ، فاختطوا الحمامات وتفننوا في هندستها ، وتنافسوا في لبس فاخر الثياب،والتي لم تخرج في معظمها عن لباس أهل المغرب عموما كــ: **البرانس والعباءات والسراويل والأقمصة ..**، في حين أغفلت المصادر تماما لباس المرأة الصنهاجية وزينتها ،غير أن المتتبع لمكانتها فيما بعد داخل المجتمع الزيري يلحظ أنها كانت ترتدي ثيابا فاخرة ــ لاسيما أمام كثرة استيرادهم للحريرــ تشبه كثيرا في أسمائها الألبسة الرجالية.

- وقد ساعد توفر المحاصيل الزراعية وتنوعها، وامتلاك الصنهاجيين لثروة حيوانية هائلة على طبخ مختلف ألوان الطعام **كالحساء والثريد والفريك والعصيدة...**، والتي كانت تحضر بكيفيات مختلفة، أما شرابهم فكانوا يستخلصونه من الفواكه كالعنب والمشمش، ومن جذور النباتات الطبيعية كزريعة الكرافس وزريعة الورد.

- أما الجانب العمراني لقبيلة صنهاجة المغرب الأوسط خلال الفترة المدروسة فتبقى معلومتنا عنه محدودة لقلة ما ورد عنه في المصادر ، وعدم توصل الحفريات التي أجريت على خرائب أشير إلى النتائج المرجوة،وعلى العموم فقد تميزت مساكن صنهاجة ببساطة هندستها ،وهشاشة أسسها على اعتبار أن معظمها مبنية بالطين والحجارة، و على الر غم من أنها تطورت لاحقا بعد أن سمح المنصور الفاطمي لزيري باتخاذ القصور والمنازل الضخمة ، إلا أن الحركة العمرانية لم تشهد أوجها إلا في العهدين الزيري والحمادي .

- وكثيرا ما كان الصنهاجيون يلتجئون للتنجيم لقراءة طوالعهم ومعرفة ما تصير إليه أمورهم ، حتى أن دولتهم ــ على ما يرويه النويرى نقلا عن ابن شداد ــ قامت على تنبؤات كاهن يمني ، وأحد المغاربة العارفين بعلم الأكتاف.

- ومن العادات الذميمة التي شابت بعض بطون صنهاجة طلب الثأر، على اعتبار أن الدم لا يغسله إلا الدم، وغالبا ما تلقى هذه المسؤولية على أسرة المقتول، فإذا تعذر عليها تنتقل إلى عشيرته، وهو ما أقدم عليه بلكين بن زيري بعد مقتل أبيه على يد زناتة وحليفها جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي.

وإلى جانب ذلك غالبا ما كان الصنهاجيون يميلون إلى استعمال القوة لسلب ونهب ما في أيدي الناس،حتى صار تقاة إفريقية والمغرب الأوسط يتورعون عن التعامل معهم تقية لا مداهنة، مثلما حدث مع الشيخ الإباضي أبي الخطاب عبد السلام بن منصور المزاتي.

§ كما انفرد صنهاجيو المغرب الأوسط وإفريقية بعادة ميزهم عن باقي قبائل بلاد المغرب ألا وهي إطالة الشوارب، وانتشرت خاصة بين قادهم، و لم تستثن حتى الفقهاء الذين غالبا ما كانوا يعبرون عن موالاهم لرجالات الدولة بصفة غير مباشرة من خلال التمادي في إطالة الشوارب كما حدث مع أبي الحسن محمد بن أحمد بن خليفة الصرائري.

و على الر غم مما توصلت إليه من نتائج حول قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط إلا أن الدراسة لا تدعي الكمال ،إذ تتخللها ثغرات وفجوات التاريخ كفيل بسدها من خلال اكتشاف وثائق جديدة حول هذا القبيل ، والنتائج التي ستسفر عنها الأبحاث الأثرية والدراسات الحقلية لخرائب أشير، وكبرى المراكز الصنهاجية بالمغرب الأوسط.

ولعل أبرز نتيجة خلصت إليها الدراسة هي اكتشاف النقص الفادح في الدراسات التي تعني بالجانب الإجتماعي للمغرب الإسلامي لاسيما إذا ما تعلق الأمر بالمغرب الأوسط، ومن هنا لا يسعنا إلا أن نبارك المسعى الذي انتهجه قسم التاريخ بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية لجامعة قسنطينة ، بإعطاء دافع جديد للتاريخ المغاربي من خلال توجيه اهتماماهم وأبحاثهم لهدا الجانب.

!!!

المختصرات

و : وجه ورقة المخطوط

ظ : ظهر ورقة المخطوط

ج:جـــزء

مج:مجلـــد

ط: طبعـــة

د.ت: دون تـــاريخ

د.م: دون مكـــان النشـــر

ع: عـــدد

R.A : Revue Africaine

B,E,A :Bulletin des etudes Arabes

J,**A**: Journal Asiatique

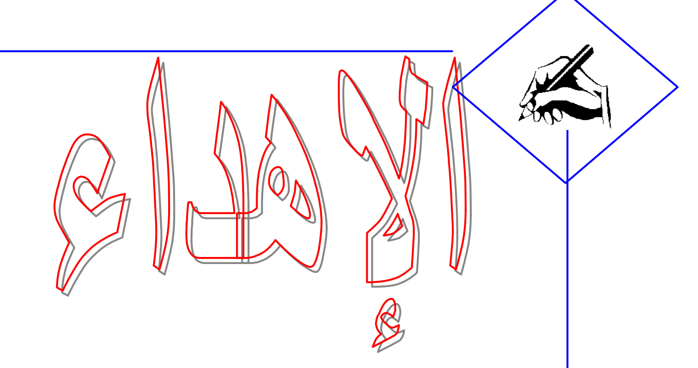
T: Tome

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين)

سورة الأحقاف : الآية (15)



إلى الوالد الكريم الذي لطالما شجعني على مواصلة الدرب، وغرس في

نفسي حب العمل والتفاني في اتقانه.

إلى الوالدة الحبيبة التي غمرتني بحنان قل نظيره ،وذللت لي بدعواتها كل الصعاب.

إليهما وحدهما أهدي عصارة فكري وزبدة عملي...برا وإحسانا.